

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01161 7929

OS-B 13221

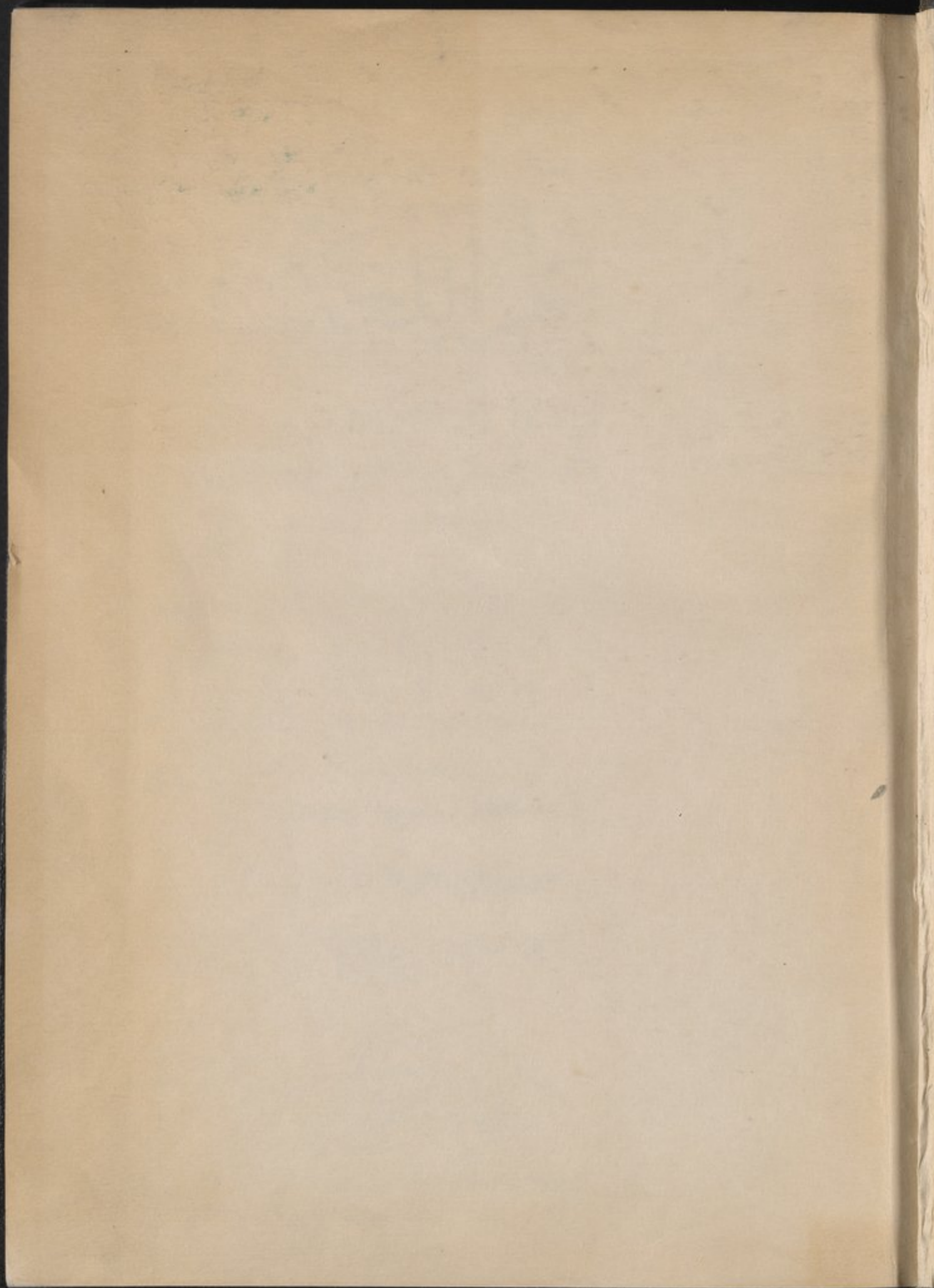
Nov 1

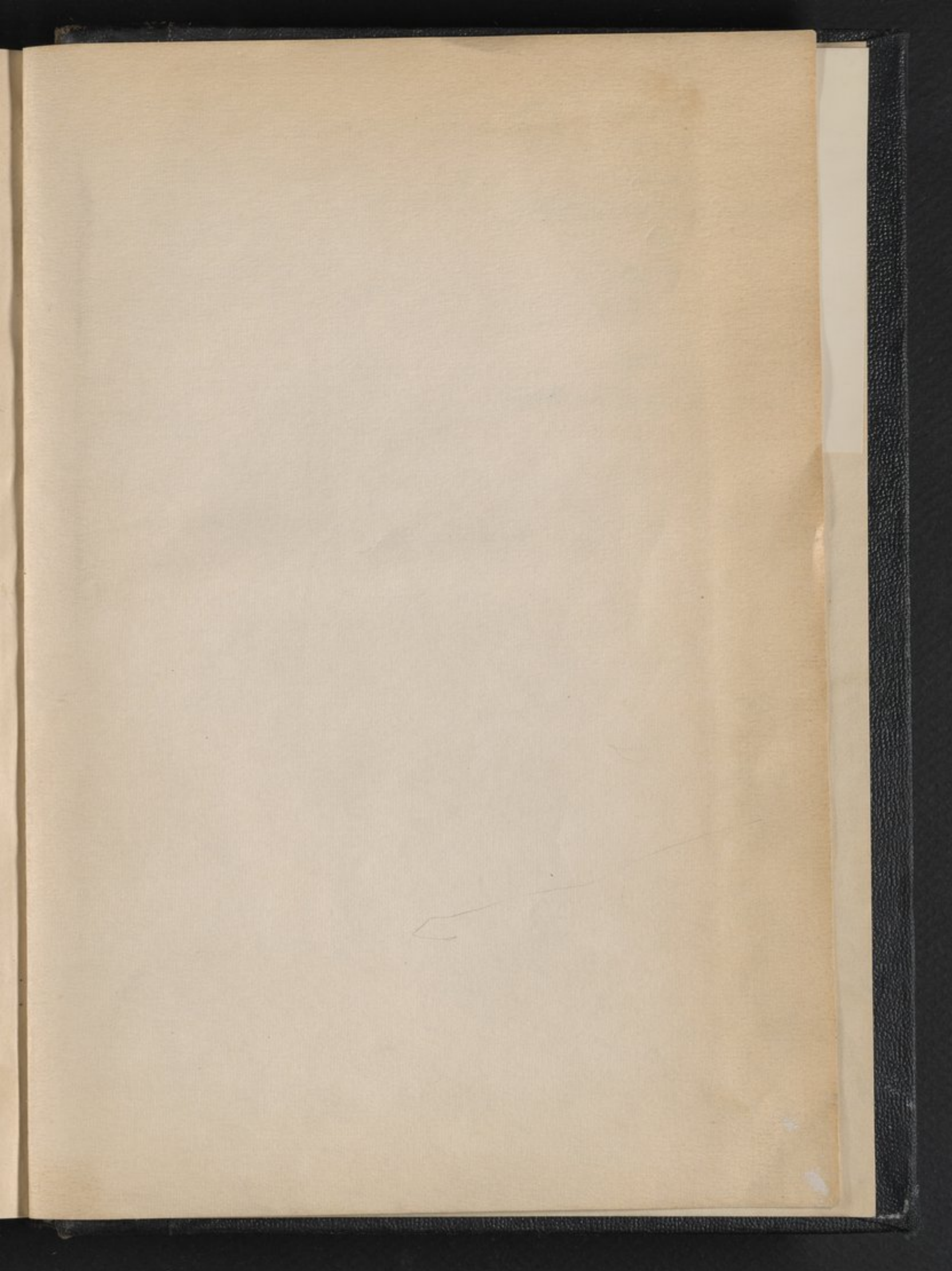
A



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





Wafiq, 'Abi Abdel Wahid

Ilm el - lughah

PJ
121
W16
1950

علم اللغة

أطراه بجمع فؤاد لأول اللغة العربية
وتقرر تدريسة بجامعة فؤاد الأول

تأليف
الدكتور عبد الواحد فاني مؤرخ اللغة العربية
دكتور في الآداب من جامعة باريس
أستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
وعظيم التقدير

الطبعة الثالثة - مزيدة ومنقحة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م

مكتبة الطبع والنشر
مجلة البيان العربي

odc
122797370

B13344705
1535247X

من مؤلفات الدكتور علي عبد الواحد وافي

١٩٤٤
١٤٤٤
١٤٤٤

- ١ - نظرية اجتماعية في الرق
- ٢ - الفرق بين رق الرجل ورق المرأة
طبعا باللغة الفرنسية ، وحصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة باريس
- ٣ - علم اللغة (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
- ٤ - فقه اللغة (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
أطراهما يجمع فؤاد الأول للغة العربية وتقرر تدريسهما بجامعة فؤاد الأول
- ٥ - الأسرة والمجتمع (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
- ٦ - المسؤولية والجزاء (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
- ٧ - اللغة والمجتمع
صدرت هذه الكتب الثلاثة في مؤلفات « الجمعية الفلسفية المصرية »
وتقرر تدريسها بجامعة فؤاد الأول
- ٨ - في التربية (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
تقرر تدريسه بدار العلوم العليا
- ٩ - البطالة ووسائل علاجها
نال جائزة المباراة الأدبية لسنة ١٩٣٥
- ١٠ - الاقتصاد السياسي (الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة)
- ١١ - نشأة اللغة عند الانسان والطفل
- ١٢ - اللعب والعمل
- ١٣ - مواد الدراسة
- ١٤ - رغبات المؤتمر الدولي الخامس للتربية العائلية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات ، بتكليف خاص من وزارة المعارف)

36592

إطراء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

لكتابي «علم اللغة» و «فقه اللغة»

مجمع فؤاد الأول للغة العربية في ١٨ / ٦ / ٤٥

حضرة الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

عرض على لجنة الأدب في المجمع كتابكم «علم اللغة» و «فقه اللغة» .
وقد حمدت لكم اللجنة ما بذلتم من جهد في البحث والدرس والاستخلاص .
فقد حوى هذان الكتابان من مختلف مسائل اللغة وعالجنا من مشكلاتها ما تمس
إليه حاجة الباحث المتطلع . وقد انتهجتم في التأليف طريقة علمية حقيقية بالتقدير ،
وبسطتم من المعلومات ما يدل على غزارة مادة وحسن إحاطة ، وكان لما أيّدتم
أو فتّدتم من وجهات النظر المتباينة مظهر من استقلال الرأي .

وإننا إذ نشكر لكم هذا المجهود في التأليف ، نرجو لكم المزيد من التوفيق .

وتقبلوا أطيب تحياتي ؟

رئيس المجمع

١٨ / ٦ / ٤٥

(إمضاء) أحمد لطفى السيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .
وبعد فنذ عهد بعيد ، وبخاصة منذ أن كشفت اللغة السنسكريتية ، لم تنفك
موضوعات علم اللغة موضع عناية عدد كبير من أعلام الباحثين في أمم الغرب .
وقد بذل في هذا السبيل جهود قيمة مشكورة بلغ بفضلها هذا العلم درجة راقية
من النضج والكمال ؛ فوضحت حدوده ومناهجه ، وهذبت أساليبه وطرق دراسته ،
وتميزت فروعه بعضها من بعض ، واختص في كل فرع منها عدد كبير من العلماء ،
فتوفروا على دراسته ، وقتلوا مسائله بحثاً . ومن ثم أصبحت مراجع هذا العلم من
أكثر مراجع العلوم عدداً ، وأوسعها نطاقاً ، وأدقها بحثاً ، وأجلها قيمة .
وعلى الرغم من ذلك ، لم يكتب فيه باللغة العربية — على ما أعلم — مؤلف
يعتد به ؛ اللهم إلا بعض كتب قديمة تمثل هذه البحوث في أدوار طفولتها الأولى ،
بل في أدوارها السابقة للطفولة ، ولا تكاد اليوم — وقد أيفع هذا العلم — تنقع
من صدى ولا تسمن من جوع .

حيال هذا ، رأيت أن الواجب يحتم عليّ — وقد وقفت قسطاً من جهودي
على هذا العلم ، وقت بتدريسه مدة طويلة — أن أقوم بأول محاولة في هذا السبيل ؛
فكشبت هذه العجالة ، معتمداً فيها على طائفة كبيرة من أوثق المصادر العربية
والإفرنجية التي يرى القارئ بعضها مشاراً إليه في ثنايا تعليقاتنا وبعضها مدونا
في ثبت المراجع في آخر الكتاب .

ولم آل جهداً أن أوفق بين غرضين ليس من اليسير التوفيق بينهما : أحدهما
أن لا أغادر ناحية من النواحي البارزة في هذا العلم إلا عرضت لها مناقشا أهم
ما قيل فيها ومدلياً بما يصح الركون إليه بصدها ، وثانيهما مراعاة الإيجاز في
علاج الموضوعات حتى لا أتجاوز النطاق الذي رسمته لهذه العجالة والذي ينبغي
أن تكون عليه أول محاولة .

والله أسأل أن يتيح متابعة ما بدأتُه وتنقيحه وتكملته وأن يهيء لنا
من أمرنا رشداً .

على عبد الواحد وافي

تمهيد

في التعريف بعلم اللغة

(١) البحوث اللغوية وما يدخل منها تحت علم اللغة

ترجع أهم البحوث اللغوية إلى الموضوعات التالية :

١ - البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الإنسانية ، والأشكال الأولى التي ظهر فيها التعبير ، والأدوار التي أجتازها حتى وصل إلى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية ، والأسس التي سار عليها الإنسان والتماذج التي احتذاها في وضع الكلمات وفي تعيين مدلولاتها ، ونشأة مركز اللغة في النوع الإنساني . . . وما إلى ذلك من البحوث التي تعالج اللغة في أدوار نشأتها الأولى . - ويطلقون على هذا الفرع من البحوث اللغوية اسم « أصل اللغة » ، أو « نشأة اللغة » ، *Origine du Langage* وكل ما يذهب إليه الباحثون بهذا الصدد - كما سيظهر في الفصل الأول من هذا الكتاب - يتألف من آراء ظنية تعتمد في بعض نواحيها على الحدس والتخمين وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمي . وهكذا شأن جميع البحوث التي تعرض لأصول النظم الإنسانية .

ولذلك يرى كثير من العلماء إخراج هذا الموضوع من نطاق علم اللغة وإلحاقه بالبحوث الفلسفية الميتافيزيقية ؛ لأن منهج البحث فيه لا يتفق في شيء مع ما ينبغي أن تكون عليه مناهج البحث في العلوم . - وهذا الرأي هو السائد الآن ؛ ولذلك لا يكاد المحدثون من علماء اللغة يعرضون لهذا الموضوع ، وإن عرضوا له تناولوه على أنه دخيل على مادتهم ومثال من البحوث اللغوية في أدوارها الأولى .

٢ - البحوث المتعلقة بحياة اللغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وسعة وضيق وعظمة وضعف ؛ وما تتعرض له من انقسامها إلى لهجات ، وتفرع لغات عامة من كل لهجة من لهجاتها ، وتعدد مظاهرها تبعاً لتعدد فنونها ووجوه استخدامها ؛

وما تقوم به من صراع مع غيرها ، وما ينجم عن هذا الصراع من انتصار أو هزيمة ، واحتلالها لمناطق جديدة أو تخليها عما كانت تملكه ؛ وما يؤول إليه أمرها من شيخوخة وهرم وفتناء ، وما تتمثل فيه ظواهر انحلالها من اختفاء من عالم المحادثة والكتابة ودروس آثارها، أو اختفاء من المحادثة وحدها، أو اختفاء من المحادثة والكتابة مع بقائها في المعاجم والمؤلفات . . . وعوامل كل ظاهرة من هذه الظواهر ونتائجها والقوانين الخاضعة لها . - ويطلق على هذا البحث اسم « حياة اللغة » Vie du Langage .

ومن أهم فروع هذا البحث وأوسعها نطاقاً فرع يسمى « الديالكتولوجي » Dialectologie أي علم اللهجات . وموضوعه دراسة الظواهر المتعلقة بانقسام اللغة إلى لهجات وتفرع اللغات العامية من كل لهجة من لهجاتها . . . وما إلى ذلك . ٣ - دراسة الأصوات التي تتألف منها اللغة وبيان أقسامها وفصائلها وخواص كل قسم ومخارجه ، وما تعتمد عليه من أعضاء النطق، وطريقة إحساس السامع بها ، واختلاف النطق بالحروف واختلاف الأصوات التي تتألف منها الكلمة في لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها ، والعوامل التي تنجم عنها هذه الظواهر ، والنتائج اللغوية التي تترتب على كل منها والقوانين التي تخضع لها . . . وما إلى ذلك . ويطلقون على هذا البحث اسم « الفونيتيك » Phonétique أي « علم الصوت » .

٤ - دراسة اللغة من حيث دلالتها ، أي من حيث إنها أداة للتعبير عما يجول بالخطاير . - ويطلق على هذا المبحث اسم « السيمينتيك » (١) Sémantique أي « علم الدلالة » . - ومن « الفونيتيك » و « السيمينتيك » (علم الصوت وعلم الدلالة) يتألف أهم فروع علم اللغة وأدقها وأكثرها نضجاً .
وينتظم علم الدلالة بجوئاً كثيرة استقل الآن كل منها عما عداه وأصبح موضوع شعبة دراسية قائمة بذاتها . وأهم هذه البحوث ما يلي :

(١) يرجع الفضل في وضع هذا الاسم إلى الأستاذ بريال M. Bréal

(١) البحث في معاني الكلمات ، ومصادر هذه المعاني ، واختلافها في لغة ما باختلاف عصورها والامم الناطقة بها ، وموت بعض معاني الكلمة ونشأة معان جديدة ، والعوامل المختلفة التي ترجع إليها هذه الظواهر ، والنتائج اللغوية التي تترتب على كل منها ، والقوانين التي تخضع لها في سيرها . . . وما إلى ذلك . — ويطلق على هذا البحث اسم « ليكسيكولوجيا » ، Lexicologie أى « علم المفردات » .

(ب) البحث في القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها . وتغيير أبنيتها بتغيير المعنى وما يتصل بذلك . — ويطلقون على هذا البحث اسم « المورفولوجيا » ، Morphologie أى « علم البنية » ، وهو ثلاثة أنواع :

« المورفولوجيا التعليمية » ، أى « علم البنية التعليمي » ، وهو الذى يدرس القواعد السابق ذكرها في لغة ما مجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها ومراجعتها في الحديث والكتابة . ومن هذا النوع علم الصرف في اللغة العربية .

« المورفولوجيا التاريخية » ، أى « علم البنية التاريخي » ؛ وهو الذى يدرس هذه القواعد في لغة ما دراسته تاريخية تحليلية ، فيدرس الأشكال التي كانت عليها في أقدم مراحل هذه اللغة ، وما طرأ عليها من تغيير في مختلف العصور والامم ، وعوامل تطورها ونتائجها ، والقوانين التي تسير عليها في مختلف مظاهرها . . . وما إلى ذلك .

« المورفولوجيا المقارن » ، أى « علم البنية المقارن » ؛ وهو الذى يدرس القواعد السابقة دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة في فضيلة من اللغات الإنسانية أو في جميع اللغات . فهو يمتاز عن الشعبة السابقة بالموازنة التي يجريها بين اللغات فيما يتعلق بقواعد البنية في كل منها .

هذا ، والقسمان الأخيران هما اللذان يدخلان في نطاق علم اللغة . أما القسم الأول وهو « المورفولوجيا التعليمية » ، فليس من بحوث علم اللغة ، بل من بحوث القواعد التعليمية .

(ج) البحث في أقسام الكلمات (تقسيمها إلى اسم وفعل وحرف . . . الخ) وأنواع كل قسم ووظيفته في الدلالة ؛ وأجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء منها

في الآخر (من ذلك مثلا تأنيث كلمة أو تذكيرها أو جمعها أو تثنيتهما ... تبعاً لحالة كلمة أخرى في الجملة) وعلاقة أجزاء الجملة ببعضها ببعض وطريقة ربطها ، وتقسيم العبارة إلى جمل وترتيب هذه الجمل وطريقة وصلها أو فصلها ... وما يتصل بذلك . ويطلق على هذا البحث اسم « السنتكس » Syntaxe أى « علم التنظيم » ، وينقسم الأقسام الثلاثة نفسها التي انقسم إليها « المورفولوجيا » أو « علم البنية » ، أى إلى تعليمي وتاريخي ومقارن .

« فالسنتكس التعليمي » ، أى علم التنظيم التعليمي ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى الحديث والكتابة . — ومن هذه الشعبة بعض أبواب النحو والمعانى فى اللغة العربية .

« والسنتكس التاريخي » ، أى علم التنظيم التاريخي ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما دراسة تاريخية تحليلية .
« والسنتكس المقارن » ، أى علم التنظيم المقارن ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة فى فصيلة من اللغات أو فى جميع اللغات .
والقسمان الأخيران هما اللذان يعدان من فروع علم اللغة . أما « السنتكس التعليمي » فليس من بحوث هذا العلم .

هذا ، ومن « المورفولوجيا » و « السنتكس » ، أى علم البنية وعلم التنظيم يتألف ما يسمونه « الجرامير » Grammaire أى القواعد . — وما تقدم يتبين لك أن دراسة الجرامير بفرعها تكون تارة تعليمية وتارة تاريخية وتارة مقارنة ، وأن القسمين الأخيرين وحدهما هما اللذان يدخلان فى علم اللغة .

(٥) البحث فى أساليب اللغة واختلافها باختلاف فنونها (الشعر ، النثر ، الخطابة ، المحادثة ، الكتابة ، المسرح ... الخ) وباختلاف الصور والأمم الناطقة بها ، والطرق التى تسلكها الأساليب فى تطورها ، والقوانين الخاضعة

لها . . . وما يتصل بذلك . - ويطلق على هذا البحث اسم « الستيليستيك Stylistique أى « علم الأساليب » . وهذا البحث يمكن أن يدرس على الوجوه الثلاثة نفسها التي أشرنا إليها في البحثين السابقين .

فإذا درس على الوجه الأول ، بأن كان الغرض منه مجرد جمع القواعد المتعلقة بأساليب لغة ما وتنسيقها وترتيبها ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها في المحادثة والكتابة ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك التعليمي » ، أى علم الأساليب التعليمي - ومن هذا النوع بعض أبواب المعاني والبيان والبديع في اللغة العربية .

وإذا درس على الوجه الثانى ، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب فى لغة ما دراسة تاريخية وتعقبها فى مختلف مراحل هذه اللغة وفى مختلف الأمم الناطقة بها وشرح تطورها والقوانين الخاضعة لها بهذا الصدد ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك التاريخى » ، أى « علم الأساليب التاريخى » .

وإذا درس على الوجه الثالث ، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب فى عدة لغات دراسة تاريخية وتحليل ومقارنة ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك المقارن » ، أى علم الأساليب المقارن .

والنوعان الأخيران هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة . أما دراسة الأساليب على الوجه الأول فليست من بحوث هذا العلم بل من بحوث « علوم البلاغة » .

٥ - البحث فى الأصول التى جاءت منها الكلمات فى لغة ما ، بأن نبحث مثلا عن الأصول الإغريقية واللاتينية . . . وغيرها التى انحدرت منها كل كلمة من الكلمات الفرنسية . - ويطلق على هذا البحث اسم « الإيتيمولوجيا » Etymologie أى « أصول الكلمات » .

ويختلف هذا البحث عن البحثين السابقين (الفونيتيك والسيمنتيك) فى أنهما يدرسان أموراً كلية ويرميان إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها ظواهر الصوت

أو ظواهر الدلالة ، على حين أن هذا المبحث يدرس أموراً جزئية وليس من أغراضه ولا من شأن دراسته الوصول إلى قوانين ؛ فهو يبحث عن الأصول التي جاءت منها كل كلمة من كلمات اللغة على حدتها .

ولكن الصلة وثيقة - على الرغم من ذلك - بينه وبين المبحثين السابقين . فدراسته تفيدهما كثيراً ، كما ينتفع كثيراً بدراستهما . وذلك أن معرفة أصول الكلمات (موضوع هذا البحث) يساعد كثيراً على الوقوف على تطور الأصوات وتطور الدلالات وعلى كشف القوانين الخاضع لها هذا التطور في مظهره ، أي يعين المبحثين السابقين (الفونيتيك والسيميوتيك) على الوصول إلى أغراضهما . كما أن الوقوف على القوانين التي يخضع لها كل من الصوت والدلالة في تطورهما (وهو موضوع المبحثين السابقين) يساعد على معرفة أصول الكلمات ، أي يساعد هذا البحث على الوصول إلى أغراضه .

هذا ، ومن أهم شعب الإيتيمولوجيا شعبة تسمى « الأونوماستيك » Onomastique وموضوعها البحث عن أصول الأعلام بمختلف أقسامها : أعلام الأشخاص والقبائل والعشائر والجبال والأنهار والأمصار . . . وما إلى ذلك . ومن أهم فروع « الأونوماستيك » فرع يسمى « التوبونوماستيك » Toponomastique وموضوعه البحث عن أصول أسماء الأماكن على اختلاف أنواعها .

٦ - بحوث اجتماعية ترمي إلى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع ومدنيته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية . . . في مختلف الظواهر اللغوية .

وإلى هذه البحوث تحتاج معظم الفروع السابقة . لأن نشأة اللغة الإنسانية والأشكال الأولى التي ظهر فيها التعبير والأدوار التي اجتازها حتى وصل إلى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية . . . (موضوع الفرع الأول) ؛ وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى وفقرة وقوة وضعف وسعة وضيق ، وانقسامها

إلى فنون وإلى لهجات وتفرع لغات عامية منها ، وما تقوم به من صراع مع غيرها
وما ينجم عن هذا الصراع ، وما يؤول إليه أمرها من شيخوخة وهرم وفناء ...
(موضوع الفرع الثاني) ؛ والتطورات التي تحدث في أصواتها ومعانيها وأساليبها
وقواعدها ... (موضوع الفروع الثالث والرابع والخامس) كل أولئك
وما إليه ترجع أهم عوامله إلى ظواهر اجتماعية .

فموضوعات البحث الذي نحن بصدده تمتزج بموضوعات الفروع
السابقة جميعها وتفسر ظواهرها . ولذلك لا يكاد يخلو منها مبحث من مباحث
علم اللغة .

غير أن علماء الاجتماع قد أخذوا على القدامى من علماء اللغة بهذا الصدد
مأخذ كثيرة ، ترجع إلى تقصيرهم في بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر
الاجتماعية ، وانحرافهم أحياناً عن جادة الصواب في هذه السبيل ، وتفسيرهم لبعض
الظواهر اللغوية تفسيراً خاطئاً يبعد بها عن المجتمع وشئونه . ولذلك أنشئوا فرعاً
خاصاً في علمهم سموه « علم الاجتماع اللغوي » ، Sociologie Linguistique
وعالجوا فيه الظواهر اللغوية بطريقة تكشف عن العلاقات التي تربطها بمختلف
الظواهر الاجتماعية ، وتكفل سداً ما في البحوث القديمة من نقص وإصلاح ما بها
من أخطاء . وقد أوغل بعضهم في هذا السبيل حتى كاد ينسکر أن لغير العوامل
الاجتماعية أثراً في شئون اللغة .

ومهما يكن نصيب نظرياتهم من الصواب ، فهي قد أعطت هذه البحوث
شخصية متميزة ، وجعلتها موضوع فرع مستقل ، وجعلت كثيراً من علماء اللغة
أنفسهم ينزلونها هذه المنزلة ويفرد لها دراسة خاصة . ولذلك سنوجه إليها قسطاً
كبيراً من عنايتنا في معظم فصول هذا الكتاب .

٧ - بحوث نفسية تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية
بمختلف أنواعها من تفكير وخيال وتذكر ووجدان ونزوع ... الخ ، وتبين أثر
كل طائفة منها في الأخرى ؛ وتشرح ما تؤديه اللغة من وظائف معتمدة في أدائها

على ظواهر نفسية كالإيحاء والتأثير ؛ وتعرض لما يعتمد عليه كسب الطفل للغة من قوى نفسية . . . وهلم جرا .

ولا تقل أهمية هذه البحوث في دراسة اللغة عن أهمية البحوث الاجتماعية السابقة . وذلك أن أهم العوامل التي تؤثر في الظواهر اللغوية لا تخرج عن طائفتين :
ظواهر اجتماعية عامة وظواهر نفسية فردية (١) .

فموضوعات البحث الذي نحن بصددته تمتزج بموضوعات الفروع السابقة جميعها وتحتاج إليها هذه الفروع في تفسير ظواهرها وتعليلها . ولذلك لا يكاد يخلو منها مبحث من مباحث اللغة .

غير أن علماء النفس قد وجهوا لهذه البحوث قسطا كبيرا من عنايتهم ، وجعلوها موضوع فرع مستقل من علمهم سموه « علم النفس اللغوي » ، *Psychologie du Langage* وتوفر على دراسته عدد كبير من أعلامهم ، فبلغوا به درجة راقية من النضج والكمال . وقد تأثر بهم كثير من علماء اللغة أنفسهم ، فأفردوا لهذه الموضوعات دراسة خاصة .

بقي من البحوث اللغوية ما يسمونه « الفيلولوجيا » *Philologie* . - وهو بحث غير محدود النطاق ولا متميز الحدود . وذلك أن مدلول هذه الكلمة قد اختلف كثيراً باختلاف العصور وباختلاف الأمم ، ولا يزال العلماء يختلفون في فهمها وإطلاقها .

فأحيانا تطلق ويراد بها ما يشمل معظم البحوث السابقة . - ويكاد يتعين هذا المعنى إذا وصفت بما يدل على عموم بحوثها ، فقول مثل « فيلولوجيا مقارنة »
Philologie comparée .

(١) تتأثر الظواهر اللغوية كذلك بالظواهر البيولوجية والفيزيولوجية والجغرافية كما سنذكر ذلك بتفصيل عند كلامنا على علاقة علم اللغة بما عداه (أنظر صفحة ٢٩) . ولكن أهمية هذه العوامل أقل كثيراً من أهمية الظواهر الاجتماعية والنفسية .

وأحياناً تطلق ويراد بها دراسة لغة أو لغات من حيث قواعدها وتاريخ أديها
ونقد نصوصها (١).
وأحياناً تطلق ويراد بها دراسة الحياة العقلية ومنتجاتها على العموم في أمة
ما أو في طائفة من الأمم.
وهي بمعنيها الأخيرين تقابل ما نسميه أدب اللغة وتاريخ أديها.

ويطلق على جميع البحوث السابقة - ما عدا الفيولوجيا بمعنيها الأخيرين
وما عدا المورفولوجيا التعليمي والسنسكس التعليمي والستيلستيك التعليمي -
اسم « علم اللغة » (٢) « Linguistique » ou « Science du Langage »
وقد اخترنا هذا الاسم لسكتابنا لأن موضوعاته ستكون شاملة لكل البحوث
التي تدخل تحت علم اللغة.

هذا ، وقد وضع المؤلفون من العرب أسماء لبحوث تشبه بعض
البحوث السابقة .
فوضعوا اسم « الصرف » لبحوث من فصيلة « المورفولوجيا التعليمي » ؛
واسم « النحو » لبحوث من فصيلة « السنسكس التعليمي » ؛ واسم « البلاغة »
لبحوث من « الستيلستيك التعليمي » ؛ واسم « أدب اللغة وتاريخ أدب اللغة »
لبحوث من نوع الفيولوجيا بمعنيها الأخيرين .
غير أنهم لم يطلقوا هذه الأسماء إلا على ما يتعلق من البحوث السابقة باللغة
العربية وحدها .

(١) كانت إذا أطلقت في عصر أحياء العلوم لا تنصرف إلا إلى دراسة اللغتين الإغريقية
واللاتينية دراسة قواعد وأدب . ولكن الآن لا تفيد هذا المعنى إلا إذا قيدت فقيل
« فيولوجيا كلاسيكية Phil. Classique » .
(٢) يخرج كذلك بعض المؤلفين من نطاق علم اللغة البحث الخاص بنشأة اللغة . وقد أشرنا
فيما سبق لمذهبهم هذا وذكرنا وجهة نظرم (انظر ص ٥) .

ومهما يكن من شيء فقد علمت أن «المورفولوجيا التعليمية» و«السنسكس التعليمي» و«الستيليستيك التعليمي» و«الفيولوجيا» بمعنيها الأخيرين، ليست من علم اللغة في شيء.

أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها اسم «فقه اللغة»^(١).

وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث؛ فإن فقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من نواميس. فقد قال صاحب المصباح: «الفقه فهم الشيء» وقال ابن فارس: «كل علم لشيء فهو فقه».

وقد كنا نود أن نسمى كتابنا باسم «فقه اللغة» لولا أن هذا الاسم قد خصص مدلوله في الاستعمال المؤلف، فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلقة بفقه اللغة العربية وحدها.

(٢) أغراض علم اللغة

يرمى هذا العلم من وراء دراسته للظواهر اللغوية السابق بيانها إلى أغراض وصفية تحليلية يرجع أهمها إلى الأمور الآتية:

١ - الوقوف على حقيقة الظواهر اللغوية والعناصر التي تتألف منها والأسس القائمة عليها.

٢ - الوقوف على الوظائف التي تؤديها في مختلف مظاهرها وفي شتى المجتمعات الإنسانية.

٣ - الوقوف على العلاقات التي تربطها بعضها ببعض والعلاقات التي تربطها بما عداها من الظواهر: كالظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية والجغرافية والطبيعية والفيزيولوجية والبيولوجية والانتروپولوجية... وهلم جرا.

٤ - الوقوف على أساليب تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور.

٥ - كشف القوانين التي تخضع لها في جميع نواحيها والتي تسير عليها في مختلف

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفقرة الخاصة بتاريخ البحوث اللغوية.

مظاهرها (القوانين التي تسير عليها في تكوينها ونشأتها وأدائها لوظائفها وعلاقاتها المتبادلة وعلاقاتها بغيرها وتطورها . . . وما إلى ذلك) .

وهذا الغرض الأخير هو الأساسى لبحوث علم اللغة ؛ بل يكاد يكون غرضها الفذ ؛ وذلك أن الأغراض السابقة ليست في الواقع إلا وسائل للوصول إليه . فعلم اللغة لا يعرض لحقيقة الظواهر اللغوية والوظائف التي تؤديها والعلاقات التي تربطها ببعضها ببعض والتي تربطها بغيرها والتطورات التي تعتمدها . . . لا يعرض لهذا كله مجرد الوصف وسرد الحائق التاريخية، ولكن ليصل على ضوئه إلى كشف القوانين الخاضعة لها هذه الظواهر .

(٣) قوانين العلوم

وبهذه المناسبة لا نرى مندوحة عن ذكر كلمة عن قوانين علم اللغة التي قررنا أنها الغرض الأساسى في دراسته . - وسنمهد لهذا بالكلام عن قوانين العلوم على العموم فنقول :

تطلق كلمة القوانين في العرف العلمى على الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها اللازمة ؛ أو بعبارة أخرى التي تنبئ بحدوث نتائج معينة لازمة إذا حدثت أسباب خاصة وترجع النتائج الحادثة إلى أسبابها^(١) . فما يقرره علماء الرياضيات والطبيعيات والاقتصاد وغيرهم من القواعد التي تبين علاقة السببية بين أمرين أو أكثر يصدق عليه اسم قوانين . وذلك كقوانين ضرب عدد في عدد^(٢) وقوانين الربح^(٣) وقانون تساوى المثلثين^(٤) في الرياضيات ، وقانون

(١) يعرفها منتسكيو بأنها « العلاقات الضرورية التي تنشأ من طبيعة الأشياء » .

(٢) مثال ذلك : إذا ضربت أربع وحدات في خمس وحدات كان الحاصل عشرين وحدة .

(٣) مثال ذلك : ربح مبلغ ما يساوى حاصل ضرب رأس المال في الزمن في السعر مقسوما على مائة .

(٤) مثال ذلك : ينطبق المثلثان كل على الآخر تمام الانطباق إذا ساوى في كل ضلعان والزاوية

المحصورة بينهما نظائرهما في الآخر .

الجذب العام وقانون أرشميدس^(١) وقانون بويل^(٢) في الطبيعيات ، وقوانين العرض والطلب^(٣) وقانون جريشام^(٤) في الاقتصاديات . . . وهلم جرا . . . هذا ، وقد فطن الإنسان منذ عصور سحيقة في القدم إلى خضوع السكواكب والنجوم في سيرها وبزوغها وأفولها لقوانين ثابتة مطردة ؛ هدته إلى ذلك مشاهداته اليومية وملاحظته لاطراد النظام الذي تسير عليه هذا الأجرام . وعلى هذه المشاهدات أسس علم من أقدم العلوم الإنسانية وهو علم الفلك .

ومع ارتقاء الفكر الإنساني أخذ الاعتقاد بخضوع الظواهر لقوانين ثابتة يتسع نطاقه قليلا قليلا حتى شمل كل نواحي الطبيعة وكل مظاهر الحياة ، وحفز الباحثين على إنشاء علوم الطبيعة والكيمياء والجغرافيا والبيولوجيا والفيزيولوجيا والتاريخ الطبيعي . . . وما إلى ذلك من البحوث التي لم تدع ظاهرة من ظواهر الطبيعة ولا ناحية من نواحي النمو حتى كشفت عما يسيطر عليها من قوانين .

ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى تمكن العلماء من الوقوف على القوانين الطبيعية الخاضعة لها الرياح والعواصف والأمواج . . . وما إلى ذلك من الظواهر التي كانت مضرب الأمثال في التقلب وعدم الاستقرار والتي كان الشعراء يجعلونها رمزا للتحرر من ربقة القواعد والقوانين . فأنشئوا «الميتيورولوجيا» (علم الأحوال الجوية) و«الأسينولوجرافيا» علم أحوال المحيطات ، وتمكنوا في بحوثهم الجغرافية وغيرها من الكشف عن القوانين الخاصة لها التيارات البحرية والزلازل والبراكين . وقد كان لزاما بعد هذا كله أن تتجه الأفكار شطر الإنسان والمجتمع الإنساني ،

(١) كل جسم مغمور في سائل يكون مدفوعا من أسفل إلى أعلى بقوة تساوي وزن السائل الذي يحل محله .

(٢) في درجة الحرارة الواحدة تكون حجوم مقدار معين من غاز مناسبة للضغط الواقعة عليه تناسبيا عكسيا .

(٣) يرتفع الثمن كلما زاد الطلب أو قل العرض وينخفض الثمن كلما قل الطلب أو زاد العرض .

(٤) إذا اجتمع نقدان في التعامل أحدهما رديء والآخر جيد فإن الرديء يتغلب على الجيد ويطرده من السوق .

وأن يتساءل الباحثون عما إذا كانت الأعمال الإنسانية الفردية والاجتماعية خاضعة لقوانين شبيهة بالقوانين الخاضعة لها ظواهر الطبيعة . غير أنهم قد طال تساؤلهم وترددوا كثيراً بهذا الصدد . وذلك أن كلامن الظواهر الفردية والاجتماعية تبدو حرة طليقة غير خاضعة لما نسميه بالقوانين ؛ فالأولى تبدو أنها من صنع الفرد يسيطر عليها ويسيرها وفق ما يراه ؛ والأخرى تبدو أنها من صنع المجتمعات تخلقها خلقاً وتغير فيها حسب ما تشاء وتشاء لها أهواؤها . فتذكر الفرد أمر أمن الأمور ونسيانه لأمر آخر ، وارتفاع ثمن سلعة ما أو انخفاضه ، واختلاف مدلول كلمة ما في عصر أو اختلاف حروفها وأصواتها في جيلين متعاقبين . . . هذه الأمور وما إليها من الظواهر الإنسانية الفردية والاجتماعية تظهر للنظرة الأولى أنه لا سيطرة عليها لغير إرادة الأفراد والمجتمعات وأهوائهما ، ويصعب بداءة ذى بدء الاعتقاد بخضوعها لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين الخاضع لها القمر في تزايد وتناقصه أو النهار والليل في اختلافهما باختلاف الفصول .

لمثل هذه الشبهات لم ينفك الباحثون يقدمون في هذا السبيل رجلاً ويؤخرون أخرى ، حتى ظهر في أواخر القرون الوسطى العلامة ابن خلدون وألف مقدمته الشهيرة التي أثبت فيها بالأدلة القاطعة أن أعمال المجتمع وظواهر العمران خاضعة في مختلف نواحيها لقوانين لا تقل في صرامتها واطرادها عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الطبيعية . — غير أن آراءه وبحوثه في هذه الناحية لم يتح لها ما كانت أهلاً له من الذبوع والانتشار وما كان يعوزها من التنقيح والتهذيب إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين . فقد ظهر في هذين القرنين في مختلف بلدان أوروبا وبخاصة في فرنسا طائفة من قادة الفكر لم تدع مؤلفاتهم أى مجال للريب في خضوع الظواهر الاجتماعية بمختلف أنواعها لقوانين يمكن استنباطها من ملاحظة هذه الظواهر في مختلف أحوالها وفي شتى الأمم والعصور . ومن ذلك الحين أخذ المشتغلون بدراسة الظواهر الاجتماعية يوجهون كل عنايتهم إلى كشف القوانين الخاضعة لها ؛ وأخذت العلوم الاجتماعية تظهر شيئاً فشيئاً وينمو عددها قليلاً قليلاً

ويتكون من فروعها مجموعة حديثة بجانب المجموعتين القديمتين وأعنى بهما العلوم الرياضية والطبيعية .

(٤) قوانين علم اللغة

على هذا الأساس قام علم اللغة كما قام غيره من العلوم الاجتماعية ؛ واتجهت عناية الباحثين فيه إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية في مختلف أشكالها ومناحيها . وقد اهتموا إلى طائفة كبيرة من هذه القوانين : منها ما يتعلق بالأصوات ، ومنها ما يتعلق بالدلالات ، ومنها ما يتعلق بحياة اللغة ، ومنها ما يتعلق بوظائفها . . . ؛ بعضها خاص يصدق على لغة معينة ، وبعضها عام ينطبق على فصيلة من اللغات ، وبعضها أعم يصدق على جميع اللغات . - وسيمر بك في كل باب من أبواب هذا الكتاب أمثلة كثيرة من هذه القوانين ؛ وسترى على ضوءها أن الظواهر اللغوية لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد والمجتمعات ، أو تبعاً للأهواء والمصادفات ، وإنما تسير وفقاً لنواميس لا تقل في ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة . - فقد يكون في استطاعة الفرد أو في استطاعة الجماعة اختراع لفظ أو تركيب ؛ ولكن بمجرد أن يقذف بهذا اللفظ أو بهذا التركيب في التداول اللغوي وتتناقله الألسنة يفلت من إرادة مخترعه ويخضع في سيره وتطوره وحياته . . . لقوانين ثابتة صارمة لا يستطيع الفرد ولا الجماعة إلى تعويقها أو تغييرها سبيلاً . فالكلمة الجديدة أو التركيب الجديد أشبه شيء بحجر يقذف به القاذف في جهة معينة بقوة خاصة ؛ فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع في سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها .

ومن هذا يظهر أنه ليس في قدرة الأفراد والجماعات أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يحولوا دون تطورها على الطريقة التي ترسمها قوانين علم اللغة . فهما أجادوا في وضع معجزاتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها

وضبط قواعدها وأصواتها وكتابتها ، ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للإطفال قراءة وكتابة ونطقاً وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليهما من لحن وخطأ وتحريف .. ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير في السبيل التي تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء والتي ترسمها قوانين علم اللغة .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إسبرنتو Esperanto) يتحدث بها الناس من مختلفي الأمم والشعوب . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها (١) ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع في أصواتها ومدلولاتها وحياتها

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظرياً ، يحول دون تحقيقها عملياً صعوبات حمة سنعرض لها في الفصل الخامس الذي سنقفه على هذا الموضوع .

ومع ذلك لا يزال المتعصبون لفكرة الإسبرانتو كثيرين في مختلف الأمم ، ولا يزالون دائبين على نشر مشروعاتهم والدعاية له وعقد مؤتمرات دولية لدراسته وإذاعته . وقد جاء في هذا الصدد بجريدة الاهرام الصادرة في ٤ / ٨ / ٤٨ ما يلي :

« افتتح يوم السبت الماضي المؤتمر الثالث والثلاثون للإسبرانتو في مدينة مالمو بالسويد ، وقد تولى رياسته الفخرية المسيو ناجي ارلاندرئيس الحكومة السويدية وحضر جلساته مندوبون عن اثنتين وثلاثين دولة ، ومثل جمعية الإسبرانتو المصرية فيه الأستاذ نصيف أسعد . ولهذا المناسبة تلقينا من الأستاذ سعيد صالح سكرتير الجمعية كلمة نوه فيها بما يمتاز به هذا المؤتمر عن المؤتمرات الأخرى فقال : ان المشتركين فيه يتحدثون ، رغم اختلافهم في الجنسيات واللغات ، بلغة واحدة هي لغة الإسبرانتو ، التي ألفها الطبيب البولندي الدكتور زامتهوف في عام ١٨٨٧ ، ثم أخذت تنتشر حتى اعترفت بمزاياها دول كثيرة وراحت تدرسها في معاهدها التعليمية المختلفة وتستعملها للدعاية عن نفسها واجتذاب السائحين اليها من شتى بلاد العالم . — وبعد أن ذكر أن كثيراً من محطات الاذاعة كمحطات باريس وفارسوفيا وفيينا تخصص جزءاً من برامجها بلغة الإسبرانتو وأن البنوك والشركات التجارية الكبرى أصبحت تستخدم هذه اللغة ، رجا أن تولى مصلحة الدعاية والسياحة المصرية الإسبرانتو ما تستحقه من عناية ، اذ ان بلادنا في حاجة الى مختلف وسائل الدعاية » .

وورد في جريدة المصري الصادرة في ١١ / ٧ / ٤٩ ما يأتي :

« سيفادر مصر هذا الأسبوع الأستاذ تادرس مجلي المتدوب الرئيسي لجمعية الإسبرانتو العالمية في القطر المصري لحضور مؤتمر الإسبرانتو العالمي الرابع والثلاثين الذي سيعقد بانجلترا في أوائل أغسطس ، وسيزور أيضاً السويد والدانيمرك بدعوى من مكتب الصحافة السويدي » .

وتطورها لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية والتي خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين في التكوين الطبيعي لجسومهم وأعضاء نطقهم، وفي الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم، وفي قواهم الإدراكية والوجدانية، وما دامت سنة الطبيعة تقضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له في كل هذه الأمور؛ فلا بد أن تختلف هذه اللغة الصناعية في كلماتها وأصواتها ودلالاتها وتراكيبها . . . باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها، وتختلف أقسامها باختلاف فنونها، وتنقسم إلى لهجات يختلف كل منها عما عداه، وتتفرغ منها لغات عامية، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاماً وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات، وهكذا لا يمضي زمن قصير أو طويل حتى تتولد من هذا العلاج المشكلة نفسها التي حاولنا القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك . . . ولذلك خلقهم » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » .

(٥) قوانيـن « الفونيتيك » وقوانيـن « السيمينتيك »

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد إلى استنباط قوانيـن بالمعنى الدقيق لهـذه الكلمة إلا في الشعبة الخاصة بدراسة الأصوات (الفونيتيك) . أما في الشعبة الخاصة بالدلالة (السيمينتيك) فكثير مما كشفوه لم يصل بعد في دقته وضبطه وعمومه إلى المستوى الذي يستحق فيه اسم « القوانيـن » .

والسبب في ذلك راجع إلى أن الظواهر الصوتية في مختلف أشكالها ترجع أهم عواملها إلى أعضاء النطق وطريقة أدائها لوظائفها وتأثرها بالظواهر الجغرافية وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع وما إلى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها من الممكن تحديد آثارها وتحديد العلاقات التي توجد بينها وبين مختلف

الظواهر اللغوية . فطبيعة الظواهر التي تدرسها هذه الشعبة تسمح باستنباط قوانين دقيقة مضبوطة .
وليس الأمر كذلك في الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (موضوع السيمينتيك) . وذلك أن العوامل التي تؤثر في معاني الكلمات وفي قواعد اللغة وأساليبها فتؤدى إلى اختلافها وتطورها .. وما إلى ذلك ، يرجع أهمها إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وسياسية وجغرافية وثقافية ... وهلم جرا . وعوامل هذا شأنها ليس من اليسير تحديد آثار كل منها وتحديد العلاقات التي تربطه بالظواهر اللغوية . - فلا ينبغي أن نتظر من علم اللغة أن يصل في هذه الناحية إلى قوانين ثابتة صارمة عامة إلا بعد زمن طويل ومجهود جبار .

(٦) الشعبة التي ينتمى إليها علم اللغة

تمهيد في تعريف العلم والفن وأمثلتها وأقسام كل منهما
ترجع جميع شعب البحوث إلى قسمين : بحوث علمية وبحوث فنية .
ويطلق العلم Science اصطلاحاً على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التي تربطها ببعضها ببعض والتي تربطها بغيرها وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها .

ويطلق الفن Art اصطلاحاً على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التي ينبغي الالتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العملية .

فالبحث في جسم الإنسان مثلاً يختلف الحكم عليه باختلاف ما يرمى إليه من أغراض . فإن كان الغرض منه شرح أعضائه وأجهزته وبيان العناصر التي تتألف منها ، ومعرفة الوظائف التي تقوم بها ، والوقوف على تطورها ونموها ، وتوضيح العلاقات التي تربطها ببعضها ببعض والتي تربطها بغيرها ، وكشف القوانين التي تخضع لها في تكوينها ونشوتها وتطورها وأدائها لوظائفها ... صدق عليه أنه

« علم » . — وإن كان الغرض منه بيان الوسائل التي ينبغي الالتجاء إليها لشفاء الجسم مثلا مما عسى أن ينتابه من مرض واختلال ، صدق عليه أنه « فن » . — ومن ثم يعدون « الفيزيولوجيا » ، علما ، لأنها تدرس جسم الإنسان من وجهة النظر الأولى ؛ على حين أنهم يعتبرون « الطب » ، من طائفة الفنون ، لأنه يدرس جسم الإنسان من وجهة النظر الثانية .

وكذلك البحث في القوى العقلية ، فالحكم عليه يختلف باختلاف الطريق التي يسير فيها والغرض الذي يرمى إليه . فإذا كان موضوعه وصف هذه القوى وشرحها ببيان حقيقتها والعناصر التي تتألف منها ، والوظائف التي تؤديها ، والمراحل التي تجتازها في نموها ، والعلاقات التي تربطها ببعضها البعض والتي تربطها بغيرها ، والقوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها ... كان جديرا باسم « العلم » . —

وإن كان الغرض منه بيان الوسائل التي ينبغي الالتجاء إليها للتأثير في هذه القوى وتربيتها وتهذيبها ... صدق عليه أنه « فن » . — ومن ثم كانت بحوث « السيكولوجيا » (علم النفس) من طوائف العلوم وكانت « البيداجوجيا العامة » (التربية العامة) شعبة من شعب الفنون .

ومن هذا يتبين أن أهم فارق بين العلوم والفنون أن الأولى نظرية وصفية تحليلية ترمى إلى شرح ما هو كائن ؛ على حين أن الأخرى عملية تطبيقية يهتما ببيان ما ينبغي أن يكون (١) .

(١) وبجانب هاتين الطائفتين توجد طائفة ثالثة من البحوث ترمى إلى تكوين مثل عليا وبيان قيم الأشياء وما يجب أن تكون عليه حتى تتفق مع هذه المثل . وتسمى هذه الطائفة بالبحوث المعيارية أو التقويمية : وهي ليست من البحوث العملية في شيء .

ولاصحة لما ذهب إليه فونت Wundt من أن العلوم تنقسم قسمين : وصفية موضوعها الوصف والتحليل ، ومعيارية Normatives موضوعها بيان ما يجب عمله ، لأن في تقسيمه هذا خلطا بين العلوم والبحوث المعيارية ، ولأن البحوث التي سماها علوما معيارية تختلف اختلافا جوهريا عن العلوم . — هذا وقد كلفنا العلامة « ليفي برون Levy Bruhl » مشونة الاطالة في الرد على هذه النظرية بما كتبه عنها في مؤلفه الجليل « الأخلاق وعلم الاجتماع الخافي »

هذا ، وتنقسم الفنون قسمين رئيسيين :

١ - فنون يقينية Arts rationnels ، وهي ما كانت بحوثها الفنية مؤسسة على بحوث علمية ومستمدة منها . وذلك كفن الطب الحديث ، فإنه مؤسس على علم « الفيزيولوجيا » ، وكفنون التربية الحديثة ، فإن الخطط التي ترسمها للتأثير في جسم الطفل وعقله وخلقه مؤسسة على بحوث علم النفس وعلم وظائف الأعضاء وما إليهما .

٢ - فنون غير يقينية Arts irrationnels ، وهي ما كانت بحوثها الفنية غير مؤسسة على بحوث علمية . وذلك كفنون السحر والشعوذة والطب القديم وما إلى ذلك من الفنون التي تعتمد فيما تقرره على العقائد أو الأساطير والخرافات أو على محض التجارب .

أما العلوم فتقسم باعتبار الظواهر التي تدرسها إلى ثلاث طوائف رئيسية :

١ - العلوم الرياضية ، وهي العلوم التي تدرس خواص الكم من حيث إنه معدود أو مقيس ، كالحساب والجبر والهندسة وما إليها .

٢ - العلوم الطبيعية ، وهي التي تدرس ظواهر السكون سماوية كانت أم أرضية عضوية كانت أم غير عضوية ، كالفلك والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية وعلم الحيوان وعلم النبات والطبيعة والكيمياء . . . وما إليها .

٣ - العلوم الإنسانية ، وهي التي تبحث في الإنسان أو في المجتمع الإنساني . وهي لذلك تنقسم قسمين :

(أولا) علوم فردية ، وهي التي تدرس الإنسان من حيث إنه فرد كالأنثروبولوجيا (علم الإنسان) والفيزيولوجيا الإنسانية (علم وظائف الأعضاء الإنسانية) والسيكولوجيا (علم النفس) .

(ثانيا) علوم اجتماعية وهي التي تدرس الإنسان من حيث إنه عضو في مجتمع . أو بعبارة أخرى تدرس العلاقات التي تتكون بين أفراد يضمهم مجتمع . — ولتعدد هذه العلاقات تعددت علوم هذه الطائفة : فمنها ما يدرس

العلاقات السياسية ويبحث في نشأة الأمم وتطورها ونظم الحكم فيها وعلاقتها بعضها ببعض... الخ ، ويسمى « علم السياسة » ؛ ومنها ما يدرس النظم القضائية وتطورها والأسس المبنية عليها... وما يتصل بذلك ، ويسمى « علم الحقوق » ؛ ومنها ما يدرس النظم الدينية ويبحث في أصولها وتطورها وآثارها ، ويسمى « علم الأديان » ؛ ومنها ما يبحث في النظم الاقتصادية المتعلقة بإنتاج الثروة واستبدالها وتوزيعها واستهلاكها ويشرح حقيقتها ونشأتها وتطورها والأسس القائمة عليها ووظائفها والقوانين الخاضعة لها... ويسمى « علم الاقتصاد السياسي » ؛ ومنها ما يبحث في النظم الخلقية ويسمى « علم الأخلاق » ،... وهلم جرا .

وتمتاز هذه الطائفة الأخيرة عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التي تربط فروعها بعضها ببعض . فبحوث علم الأخلاق تمت بصلة وثيقة إلى بحوث علم الأديان ؛ وبحوث علم السياسة شديدة الارتباط ببحوث علمي الأخلاق والحقوق.. وهلم جرا . - والسبب في هذا راجع إلى أن فروع هذه الطائفة متحدة في موضوعها الرئيسي وهو الإنسان من حيث إنه عضو في مجتمع ، وإلى أن النظم الاجتماعية التي تدرسها متداخل بعضها في بعض ومتأثر بعضها ببعض لدرجة تجعل تقسيمها إلى فروع ضرباً من الاصطلاح ومجرد وسيلة لتسهيل الدراسة . - وهذا ما حدا بأوجيست كونت Auguste Comte على أن يجمعها كلها تحت لواء علم واحد سماه علم الاجتماع أو « السوسيولوجيا » ، Sociologie . وعلى العكس من ذلك العلوم الطبيعية ؛ فإن موضوعات كل فرع منها متميزة تمام التميز عن موضوعات ما عداه . فموضوعات الجيولوجيا مثلاً لا يمكن أن تلتبس بموضوعات علم الفلك ؛ إذ الأول يدرس طبقات الأرض على حين أن الثاني يبحث في أفلاك السماء .

الشعبة التي تنتمي إليها بحوث علم اللغة
فإذا عرفت هذا ورجعت إلى ما قلناه في الفقرات السابقة عن بحوث علم اللغة وموضوعاتها وأغراضها وقوانينها ، ظهر لك أن هذه البحوث من طائفة العلوم

لا الفنون وأنهما من فصيلة العلوم الاجتماعية . أما أنها من طائفة العلوم فذلك لأنها ترمى من وراء دراستها للظواهر اللغوية إلى أغراض وصفية تحليلية ترجع إلى الوقوف على حقيقتها والعناصر التي تتألف منها ، والوظائف التي تؤديها ، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض والتي تربطها بما عداها ، وأساليب تطورها ، والقوانين التي تخضع لها في مختلف نواحيها ؛ وبالجملة : تدرس الظواهر اللغوية لشرح ما هو كائن لا لبيان ما ينبغي أن يكون . وقد تقدم أن كل بحث هذا شأنه يسمى علماً . — وأما أنها من فصيلة العلوم الاجتماعية ، فذلك لأن موضوع العلوم الاجتماعية ، كما تقدم ، هو دراسة العلاقات التي تتكون بين أفراد يضمهم مجتمع . ومن الواضح أن الظواهر اللغوية التي تدرسها بحوث علم اللغة ليست إلا شعبة من شعب هذه العلاقات . فالنظم اللغوية التي تسير عليها أفراد أمة ما في تفاهمهم والتعبير عما يجول بخواطرهم لا تختلف في هذه الناحية عن النظم الاقتصادية التي يسرون عليها في مبادلاتهم ، والنظم الدينية التي يتبعونها في عباداتهم وعقائدهم وفهمهم لما وراء الطبيعة ، والنظم الخلقية التي يأخذون بها في تمييزهم بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، والنظم العائلية التي يخضعون لها في الزواج والطلاق والتوريث وتحديد درجة القرابة ، والنظم السياسية التي يحتذونها فيما يتعلق بشكل الحكومة ونظام الحكم وتوزيع السلطات وحقوق كل سلطة وواجباتها ، والنظم القضائية التي يطبقونها في الجرائم والعقوبات والمسئولية والعقود والالتزامات . — فكما أن كلا من النظم الاقتصادية والدينية والخلقية والعائلية والسياسية والقضائية تنظم ناحية من العلاقات الاجتماعية ، كذلك النظم اللغوية تنظم ناحية هامة من هذه العلاقات وهي الناحية المتصلة بالتفاهم بين الأفراد والتعبير عما يجول بخواطرهم .

(٧) الانتفاع بحوث علم اللغة من الناحية العملية

غير أنه من الممكن الانتفاع بحقائق هذا العلم من الناحية العملية ، أي الاهتمام على ضوءه إلى ما ينبغي عمله في ظواهر اللغة ، شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم .

فكما أن بحوث الفيزيولوجيا التي تدرس وظائف الأعضاء دراسة علمية ، أى دراسة وصف وتحليل ، قد أقيم على أسسها فن الطب الذى يشرح الوسائل التي ينبغى الالتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العملية المتصلة بجسم الإنسان ؛ وكما أن بحوث السيكولوجيا (علم النفس) التي تدرس القوى النفسية لمجرد وصفها وتحليلها وكشف القوانين الخاضعة لها ، قد أقيم على أسسها فن « البيداجوجيا » الذى يشرح الوسائل التي ينبغى اتخاذها لتربية قوى الطفل النفسية وتعليمها وتهذيبها وإعدادها إعداداً صالحاً للحياة المستقبلية ، كذلك من الممكن أن يقام على القواعد التي يكسفها علم اللغة بحوث فنية ترشدنا إلى ما ينبغى عمله في مختلف الشؤون اللغوية : فترشدنا مثلاً إلى خير الوسائل التي ينبغى اتخاذها في تعليم اللغات الحية وغيرها ، وفي وضع كتب القواعد والأدب وطرق تدريسها ، وفي إصلاح قواعد الإملاء والشكل والترقيم ، وفي تدوين معاجم اللغة وضبط مفرداتها وتحديد دلالاتها ، وفي النهوض باللغة ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن أو تحريف ، وفي تهذيب مصطلحاتها وتوسيع نطاقها وترقية لهجاتها العامية وإدخال مفردات جديدة على مفرداتها ، وفي إحلال لغة أخرى محلها ، وفي إنشاء لغة عالمية يتحدث بها جميع أفراد النوع الإنسانى ... وما إلى ذلك من الشؤون اللغوية التي تستأثر الآن بقسط كبير من نشاط الباحثين والمصلحين والتي من أجلها تنشأ المجامع اللغوية و الأكاديميات ، وينظم عدد كبير من المؤتمرات المحلية والدولية .

وفي الحق أن كثيراً من المصلحين والمفكرين قد أخذوا الآن يولّون وجوههم في حل هذه المشاكل شطر علم اللغة ويستمدون منه المعونة ويقومون بإصلاحاتهم على الأسس التي تقررها قوانينه وتطمئن إليها قواعده ، بعد أن كانوا من قبل يصدرّون عن آراء فردية فظيرة وتسيرهم آمال ورغبات لا سند لها من العلم الصحيح . — ومن ثم اضطروا إلى تغيير كثير من الخطط الفاسدة التي كانوا يسرون عليها من قبل ؛ وأخذوا ينصرفون عن كثير من المشروعات التي شغلهم

زمناً غير قصير ، بعد أن تبين لهم من قوانين علم اللغة استحالة تنفيذها ، كمشروع إنشاء لغة عالمية (١).

فإذا هذبت هذه البحوث الفنية وربطت في مختلف نواحيها ببحوث علم اللغة ، ونسقت موضوعاتها ، ونظمت مسائلها ، وجمعت نتائجها ، وفصلت عما عداها من البحوث ، ودونت في مؤلفات مستقلة ، لا يلبث أن يتكون منها فن يقيني شبيه بالفنون التي تكونت على أسس الفيزيولوجيا والسيكولوجيا كالطب والترية العامة وما إليهما — ويظهر للتمأمل في هذه البحوث أنها سائرة إلى هذه الغاية بخطى حثيثة وأن اليوم الذي يتم فيه تكوين هذا الفن على الوجه الذي وصفناه ليس ببعيد .

(٨) علاقة علم اللغة بما عداه من البحوث

تقدم أن علم اللغة من العلوم الاجتماعية وأن طائفة العلوم الاجتماعية تمتاز عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التي تربط فروعها بعضها ببعض (٢). فعلم اللغة متصل إذن اتصالاً وثيقاً ببقية أفراد فصيلته ونعني بها العلوم الاجتماعية . وذلك أن للظواهر الاجتماعية بمختلف أنواعها آثاراً بليغة في مختلف شؤون اللغة . فنشأة اللغة ، وانقسامها إلى فصائل ، وحياتها ، وانتشارها ، وما يطرأ عليها من قوة وضعف وسعة وضيق وعظمة وضعف ، وصراعها مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغيرها أو تخليها لغيرها عن بعض مناطق نفوذها ، وتعدد مظاهرها تبعاً لتعدد فنونها ، وانقسامها إلى لهجات وتفرع لغات عامية منها ، واختفاؤها اختفاء كلياً أو جزئياً ، والتطورات التي تحدث في أصواتها ومدلولاتها وأساليبها وقواعدها . . . كل أولئك وما إليه لا يمكن فهمه والوقوف على أصوله وأسبابه إلا على ضوء الظواهر الاجتماعية الأخرى من سياسية ودينية

(١) أنظر ما ذكرناه في هذا الصدد بصفحة ١٦ وما سنذكره بشأنه كذلك في الفصل الخامس

(٢) انظر آخر صفحة ٢٣ وصفحة ٢٤ ، ٢٥ .

واقصادية . . . وهلم جرا . فلا غرابة إذن أن تكون الصلة وثيقة بين العلم الذي يدرس الظواهر اللغوية (علم اللغة) والعلوم التي تدرس الظواهر الاجتماعية الأخرى كعلوم السياسة والأديان والاقتصاد والتاريخ . . . وما إلى ذلك .

وليس علم اللغة مرتبطاً بالعلوم الاجتماعية فحسب ، بل إن بحوثه متصلة كذلك ببحوث علم النفس . فكثير من المسائل التي يعرض لها يتوقف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع إلى ما يرتبط بها من الظواهر النفسية وإلى ما يقوله علم النفس بصددتها . فتكوين المتكلم لعباراته وفق أفكاره ، وإدراك السامع الحديث وفهمه له ، وصوغ العبارات وتدوينها كتابة ، وفهم القارئ لنقوش الكتابة ، وكسب الطفل للغة ، وأداء اللغة لوظائفها الدلالية والإيحائية والتأثيرية ، وانحطاط لغة في عصر ما أو عند بعض الشعوب الناطقة بها وارتقاؤها في عصر آخر أو عند شعوب أخرى ، وتعدد فروع اللغة تبعاً لتعدد نواحي التفكير ، وتطور اللغة في مدلولات كلماتها وأساليبها . . . كل هذه الظواهر وما إليها تعتمد اعتماداً جوهرياً على ظواهر عقلية كالإدراك الحسي والتفكير وإدراك المعاني الكلية والحكم والاستدلال وخيال الحركة والخيال السمعي والخيال النظري والحافظة والذاكرة وتداعي المعاني والحالات الوجدانية والانتباه والعادة ومظاهر النزوع والإرادة والأمزجة ووراثة الصفات النفسية . . . وهلم جرا . ومن الواضح أن هذه الظواهر هي موضوع علم النفس ؛ ولا يمكن فهمها وتحديد صلتها باللغة وأثرها فيها إلا بالرجوع إليه .

ويتصل علم اللغة كذلك بالبحوث التاريخية والجغرافية . فكثير من الظواهر اللغوية التي يعرض لها ترجع عواملها وأصولها إلى ظواهر جغرافية وتاريخية . فانتشار اللغة وصراعها مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغيرها أو تخليها لغيرها عن بعض مناطق نفوذها ، وانقسامها إلى لهجات وتفرع لغات عامية منها ، وانتشار الدخيل بين ألفاظها ، واستعارتها كلمات من غيرها ، وتأثرها بقواعد غيرها من اللغات أو بأساليبها ، وما يطرأ عليها في أثناء

حياتها من قوة وضعف وسعة وضيق ، والتطورات التي تحدث في أصواتها ومدلولاتها وأساليبها . . . كل ذلك وما إليه ترجع طائفة من أسبابه إلى ظواهر تاريخية وجغرافية : كالغزو ، وتغلب أمة على أخرى ، والهجرة ، واندماج أمم بعضها في بعض ، واتصال الأمة بما عداها ، واعتناقها ديناً غير دينها الأصلي . . . وكالموقع الجغرافي للمملكة ، وحالة الجو ، وطبيعة الأرض ، وما تشتمل عليه من تضاريس وجبال وفجوات وخليجان . والحدود الطبيعية التي تفصل أجزاء المملكة الواحدة أو تفصل المناطق الناطقة بلغة واحدة بعضها عن بعض . . . وهلم جرا .

ويتصل علم اللغة كذلك بعلم ووظائف الأعضاء والتشريح والبيولوجيا والأنتروبولوجيا . فهو يستعين ببحوث علم الطبيعة في تحليل الصوت والوقوف على خواصه وقوته ومدته وموجاته وذبذبته وانتشاره وما يتصل بذلك . ويستعين بالتشريح والفيزيولوجيا الإنسانية (وظائف أعضاء الإنسان) في الوقوف على مخارج الحروف وتحليل أعضاء النطق والسمع ، والوقوف على وظائفها ، وكيفية قيامها بهذه الوظائف ، واختلافها باختلاف الأفراد ، واختلافها في الفرد الواحد باختلاف سنه ، واختلافها باختلاف الأمم ، واختلافها في الأمة الواحدة باختلاف عصورها ، وبيان أثر هذه الظواهر جميعها وما إليها في اللغة ونشأتها وتطورها . ويستعين بالبيولوجيا (علم الحياة) والأنتروبولوجيا (علم الإنسان) في الوقوف على نشأة الفصيلة الإنسانية ، ونشأة مركز اللغة عند الإنسان ، ونشأة أجهزة السمع والنطق ، والتطورات التي اجتازتها الفصيلة الإنسانية فيما يتعلق بالتكوين الجسمي وعلى الأخص تكوين أعضاء السمع والنطق ، وفي الوقوف على قوانين الوراثة وانتقال الصفات الجسمية من الأصول إلى الفروع ، وبيان أثر هذه الظواهر كلها وما إليها في اللغة الإنسانية نشأتها وانتشارها وتطورها (١) .

(١) لم يفكر علماء اللغة في الاستعانة بعلم الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والبيولوجيا والأنتروبولوجيا إلا منذ عهد قريب . . . (٢) .

وحماى القول : إن علم اللغة يتصل بكل طوائف العلوم ؛ غير أن صلته بأفراد فصيلته ، ونعنى بها العلوم الاجتماعية ، أشد من صلته بالطوائف الأخرى . — على أن ما يصدق على علم اللغة بهذا الصدد ، يصدق على ما عداه من العلوم : فالمعارف الإنسانية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

هذا ، وتشدد حاجة علم اللغة إلى علوم الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والأنتروپولوجيا فى بحوثه الخاصة بالأصوات (شعبة الفونيتيك ^(١)) على حين أن حاجته إلى الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا تشدد فى بحوثه المتعلقة بالدلالة (شعبة السيمينتيك ^(٢)) والمتعلقة بحياة اللغة ^(٣) . . . وما إلى ذلك .

(٩) مناهج البحث فى علم اللغة

يراد بمناهج البحث الطرق التى يسير عليها العلماء فى علاج المسائل التى يصلون بفضليها إلى ما يرمون إليه من أغراض . وقد تقدم لك أن العلوم تتفق جميعها فى اتجاهاتها الأساسية وفى وجهة نظرها إلى الظواهر التى تعالجها وفى الأغراض العامة التى ترمى إليها من وراء دراستها . وقد كان لزاماً ، وهى متفقة فى هذه الأمور ، أن تتحد فيها بعض مناهج البحث . ولذلك كان من بين مناهج البحث بعض طرق تستخدم فى مختلف فروع العلوم . — ويطلقون على هذه الطرق اسم « الطرق العامة » أو « مناهج البحث المشتركة » .

ولكن لكل فرع منها موضوعات معينة وأغراضاً خاصة يمتاز بها عما عداه من الفروع . وقد نجم عن هذا أن استخدم كل علم منها فى دراسته — زيادة على الطرق العامة التى سبق ذكرها — طرقاً خاصة به تتفق مع طبيعة موضوعاته وتدعو إليها بميزات ظواهره وما يرمى إليه من أغراض خاصة به .

(١) انظر موضوع هذه الشعبة بصفحة ٦ (رقم ٣)

(٢) انظر موضوع هذه الشعبة بصفحة ٦ (رقم ٤) والصفحات التالية لها .

(٣) انظر موضوع هذه البحوث فى آخر صفحة ٥ (رقم ٢) ، وأول ص ٦ .

ولكل شعبة من شعب العلم الواحد مسائل متميزة تختلف في بعض خواصها ومظاهرها عن مسائل الشعب الأخرى . ولذلك ترى أن العلم الواحد قد يستخدم في دراسته لموضوع من موضوعاته طرقاً لا يستخدمها ، ولا ينبغي استخدامها ، في موضوع آخر من العلم نفسه .

وعلى هذا السنن سار علم اللغة في دراساته : فاستخدم طرقاً عامة يشترك فيها مع غيره من البحوث العلمية ، واستخدم كذلك طرقاً خاصة به تقتضيها طبيعة الظواهر التي يعرض لدراستها ولا تتلاءم مع غيرها ؛ وامتازت كل شعبة من شعبه عما عداها ببعض طرق دراسية تواتى طبيعة مسائلها وتحقق أغراضها من أقرب سبيل .

وسنعرض بإيجاز فيما يلي لأهم هذه الطرق معلقين على كل منها بما يوضح نوعها ونواحي استخدامها ويبين منشأها وما بها من محاسن وعيوب .

(الطريقة الأولى) طريقة الملاحظة المباشرة . أى التي لا يُلتجأ فيها إلى التجارب ولا تستخدم فيها الأجهزة ؛ بل يقتصر فيها على ملاحظة الظواهر اللغوية في حالاتها العادية الطبيعية ولا يستعين فيها الباحث بغير حواسه وقواه العقلية . وفي هذه الطريقة يشترك علم اللغة مع عدد كبير من العلوم الأخرى وبخاصة العلوم الطبيعية . — وهى أقدم طريقة استخدمها الباحثون في علم اللغة ؛ ولا تزال إلى الآن من أهم طرقهم ؛ وإليها يرجع الفضل في معظم ما وصلوا إليه . فعلى ضوء الملاحظة استطاعوا أن يقسموا الظواهر اللغوية إلى أقسام متميزة ويرجعوها إلى طوائف محدودة ويردوا الفروع إلى أصولها ؛ فنظمت بذلك موضوعات العلم ونسقت فروعه وسهلت دراسته . وبفضل هذه الطريقة كذلك كشف العلماء عن كثير من الحقائق المتصلة بنشأة اللغة وحياتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التي تربط ظواهرها بعضها ببعض والتي تربطها بما عداها والقوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها .

وتنقسم الملاحظة أقساماً كثيرة باعتبارات مختلفة :
فتنقسم باعتبار نوع الظواهر اللغوية التي تعالجها إلى قسمين : ملاحظة صوتية
Phonétique وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت ، وملاحظة دلالية
Sémantique وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة .
وتنقسم باعتبار نوع اللغات التي يتناولها البحث إلى قسمين : ملاحظة اللغات
الحية ، وملاحظة اللغات الميتة . أما ملاحظة اللغات الحية فسيبيلها واضحة ، وأما
ملاحظة اللغات الميتة فتتحقق بالرجوع إلى ما وصل إلينا عنها في المؤلفات
والوثائق والآثار . . . وما إلى ذلك . — وملاحظة اللغات الميتة كبيرة الأهمية
في الدراسات اللغوية على العموم وفي دراسة نشأة اللغات وتطورها على الخصوص .
فلو اقتصر علماء اللغة على ملاحظة اللغات الحية لما وصلوا إلى شيء يعتد به بصدد
التطور اللغوي ، ولتعرضت بحوثهم وآراؤهم بهذا الصدد للزلل والاضطراب ،
وما كان متاح لعلمهم في هذا الأمد القصير أن يصل إلى ما وصل إليه من حقائق
وقوانين تنتظم جميع الظواهر اللغوية . وذلك أن ارتقاء اللغات وتطورها لا تظهر
آثارها جلية واضحة إلا بملاحظة مرحلة طويلة من مراحل التاريخ الإنساني ؛
وهذا لا متاح إلا بدراسة اللغات الميتة من بطون السكتب والآثار . وقد بدأ علم
اللغة بداءة حسنة بهذا الصدد ؛ فقد وجه الباحثون فيه منذ نشأته عناية كبيرة إلى
دراسة اللغات الميتة القديمة ؛ بل إن عناية القدامى منهم بملاحظة اللهجات الحية
واللغات الحاضرة لم تسكن شيئاً مذكوراً بجانب عنايتهم بدراسة ما دثر من اللغات (١) .
وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بشخص الملاحظ (بكسر الحاء)
أو بغيره إلى قسمين : أحدهما الملاحظة الذاتية Subjective وهي أن يلاحظ
الباحث ما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية ويدون ملاحظاته ويحملها ليصل على
ضوءها إلى تحقيق ما يرمى إليه ، أو أن يكلف شخصاً آخر أن يلاحظ ما يصدر عنه
(عن ذلك الشخص الآخر) من ظواهر لغوية ويطلب إليه أن يصفها له ، فيدون

(١) سنتكلم عن هذا بتفصيل في أثناء كلامنا عن تاريخ البحوث اللغوية (أنظر الفقرة التالية) .

هذا الوصف ويحمله ويوازنه بملاحظات أخرى ويستخدمه في علاج ما تعنيه دراسته . وثانيهما الملاحظة الخارجية Objectif وهي ملاحظة الباحث لما يصدر عن شخص آخر من ظواهر لغوية بدون أن يكون لهذا الشخص الآخر أى دخل في الملاحظة . وهذا القسم الأخير ينقسم هو نفسه قسمين : ملاحظة خارجية سلبية Passive ؛ وملاحظة خارجية إيجابية Positive . فالسلبية هي ما يترك فيها الملاحظ (بفتح الحاء) على حالته الطبيعية ، بأن يقتصر الباحث على الاستماع إليه وهو يتحدث حديثاً عادياً . والإيجابية هي ما يعمل فيها الباحث على توجيه الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة وجهة معينة ، بأن يلقى عليه أسئلة خاصة فى الموضوعات التى يهيمه بحثها ليصل على ضوء إجاباته إلى الوقوف على ما يعنيه الوقوف عليه .

* * *

وقد أخذ علماء اللغة على طريقة الملاحظة بمختلف أنواعها مأخذ كثيرة ، وتبين لهم نقصها فى كثير من الشئون .

فكثير من العلماء لا يثقون بالملاحظة الذاتية (ملاحظة الباحث لما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية) ويرتابون فى كل ما يصل عن طريقها من حقائق . وذلك أنهم يرون أن قوى العقل فى أثناء ملاحظة الإنسان لما يصدر عنه ويقوم به من ظواهر لغوية تكون موزعة مشتتة . فهى تشرف على إصدار الظواهر اللغوية وتلاحظ فى الوقت نفسه ما تصدره من هذه الظواهر . وتكون النتيجة أن كلا الأمرين (الإصدار والملاحظة) يكون ناقصاً غير طبيعى ، لعدم تفرغ القوى العقلية له ولاشتغالها بشئ آخر فى أثناء قيامها به . هذا إذا لاحظ الباحث نفسه فى أثناء قيامها بالظاهرة اللغوية . أما إذا لم يشغل نفسه بالملاحظة إلا بعد الفراغ من الظاهرة اللغوية ، فإن ملاحظته فى هذه الحالة تكون منصبية على ما تستعيده ذاكرته من عناصر الظاهرة التى فرغ منها . وملاحظة كهذه لا يوثق بها ؛ لأنه من المتعذر أن يتذكر الإنسان كل ما أصدره أو قام به تذكر صحيحاً لا نقص فيه ولا زيادة ولا تغيير ولا تبديل .

هذا إلى أن عزم الشخص على ملاحظة ما يصدر عنه من ظواهر لغوية ، سواء

أراد أن تجرى هذه الملاحظة في أثناء قيامه بالعمل أو بعد فراغه منه ، يحمله على توجيه قسط من انتباهه للعمل في أثناء صدوره . وتوجيه الانتباه لعمل ما من الأعمال العادية في أثناء صدوره يشوّهه ويجعله يصدر في صورة غير طبيعية . ألا ترى أنك لو حاولت أن تعرف مثلاً كيف تكتب أو كيف تمشي لاعتراك اضطراب في أعصابك فتتشوه كتابتك وتعثّر في مشيتك ؟

وكثيراً ما يكون علماء اللغة متأثرين في أثناء ملاحظتهم لما يصدر عنهم من ظواهر لغوية ببعض مبادئ ونظريات ، فهما حاولوا الدقة في الملاحظة فإن هذه المبادئ والنظريات تفسد عليهم أحكامهم وتبعدها عن الحقيقة من حيث لا يشعرون . وكثيراً ما تغرى الملاحظة الذاتية الباحثين بالتسرع في أحكامهم . فقد يكون بعض ما يصدر عنهم من ظواهر لغوية خاصاً بهم لا يشترك معهم فيه غيرهم من الأفراد . فالإقتصار على الملاحظة الذاتية في حالات كهذه يغرر بالباحثين ويجعلهم ينظرون إلى أمور فردية نظرهم إلى ظواهر عامة .

هذا إلى أن الفرد لا يمكن أن يمثل في حياته الفردية إلا ناحية يسيرة من ظواهر لغته . فالإقتصار على الملاحظة الذاتية يجعل دائرة البحث ضيقة كل الضيق . على أن ثمة ظواهر لغوية كثيرة لا تمسك فيها مطلقاً الملاحظة الذاتية . ومن ذلك الظواهر اللغوية في أدوار الطفولة الأولى . وذلك لأن الطفل لا يشعر بما يصدر عنه وما يقوم به من ظواهر لغوية شعوراً دقيقاً ولا يستطيع أن يصفه وصفاً يعتد به .

وقد دلت التجارب على خطأ الملاحظة الذاتية حتى في الظواهر اللغوية الداخلية التي لا يدركها بشكل مباشر إلا المتكلم نفسه كحركات اللسان مثلاً في أثناء النطق بصوت ما . فقد ظهر للباحثين بعد أن استخدموا الأجهزة الدقيقة في دراسة هذه الطائفة من الظواهر فساد كثير من النظريات القديمة التي كان مصدرها الملاحظة الذاتية .

وكثير من العلماء لا يطمئن كذلك إلى الملاحظة الخارجية في شكلها السلبي والإيجابي . أما شكلها السلبي فلبطئه وضآلة محصله . فإذا اقتصر الباحث على

ملاحظة الناس في حالاتهم العادية فقد ينقضى عمره قبل أن يتم له تحقيق مسألة لغوية واحدة . وأما شكلها الإيجابي فلأنه عرضة للزلل وخطأ التأويل . فقد لا يفهم الملاحظ (بفتح الحاء) حق الفهم ما يلقى عليه من أسئلة فيجيب إجابات مضللة . هذا إلى أن شعوره بأن لغته موضوع ملاحظة يغير من اتجاهها ويخرج بها عن حالاتها الطبيعية .

ووجه كذلك اعتراضات كثيرة إلى الملاحظة الصوتية (ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت) . فقد أخذ كثير من العلماء على هذه الملاحظة أنها تعتمد على الأذن الإنسانية ؛ وأن هذه الحاسة غير دقيقة في تمييز أنواع الصوت وإدراك خصائصه .

ويزيد من فساد إدراكها ثلاثة أمور :

(أحدها) تأثر السامع بالشكل الكتابي للكلمة فلا يسمعها على الوجه الذي لفظت به ، بل على الوجه الذي يتفق مع رسمها . فسكثير منا ينطق مثلا بالعبارات الآتية على هذا النحو « ضار للعلوم » ، « مسأل صعب جداً » ، « جر تلمصري » ، « صووط جميل » ؛ ولكن يخيل لمن يسمعها إذا كان ملماً بالقرأة والكتابة أنه يسمعها على النحو الآتي : « دار العلوم » ، « مسألة صعبة جداً » ، « جريدة المصري » ، « صوته جميل » . وذلك لتأثره في سماعها بالشكل التي ترسم به . (وثانيها) أن السامع يوجه قسطاً كبيراً من انتباهه في أثناء السماع إلى مدلول الكلمات والعبارات ولا يعنى كثيراً بإدراك الأصوات . وهذا الاتجاه الذي لا يستطيع أى سامع أن يتحرر منه تمام التحرر يجعل إدراكه السمعي عرضة للزلل . فهو بمجرد أن يدرك معنى الكلمة ، وذلك يتحقق بسماع بعض حروفها ، وبمجرد أن يدرك معنى الجملة ، وذلك يتحقق بإدراك بعض كلماتها ، ينصرف عن سماع الباقي فلا يدركه إدراكاً سمعياً صحيحاً . تعتمد مثلا تحريف بعض كلمات في جملة وناقش السامع فيما سمعه ، تر أنه لم يتبين هذا التحريف . قل مثلاً لرائر : « إزى صحّة » فإنه يسمعها « إزى صحتك » ولا يتبين حذفك لكاف الخطاب ؛

وقل مثلاً في أثناء التحسر على شخص : « بسكين الراجل ده » ، فإن المخاطب يسمعها « مسكين » ولا يفظن لاستبدال الباء بالميم .
(وثالثها) أن غرابة الصوت على الأذن ، أى عدم إيلافها سماعه من قبل ، يجعلها تدركه إدراكاً خاطئاً . ويظهر هذا من سماعك لكلمات لغة أجنبية لا تعرفها : فانك لا تكاد تتبين الأصوات التى سمعتها ولا تستطيع إعادتها إعادة صحيحة لأول مرة .

ولسكن ، على الرغم من جميع هذه المآخذ ، لا تزال طريقة الملاحظة المباشرة من أهم الطرق المستخدمة فى علم اللغة ومن أهمها نفعاً وأكثرها إنتاجاً ، ولا يمكن لأية شعبة من شعبه الاستغناء عنها ؛ بل إن بعض الشعب لا يواتها فى بحوثها إلا هذه الطريقة ^(١) .

غير أن هذه الاعتراضات ترشدنا إلى اتخاذ احتياطات كثيرة بهذا الصدد . فمن ذلك :

١ — أن الاقتصار على شكل واحد من أشكال الملاحظة المباشرة يعرض الباحث للزلل وخطل الرأى . فينبغى أن تتضافر جميع أشكال هذه الطريقة ويدعم بعضها بعضاً ليسد ما فى كل منها من نقص ويصلح ما به من فساد . وذلك بأن نجتمع بين الملاحظة الذاتية ، والملاحظة الخارجية السلبية والملاحظة الخارجية الإيجابية ، ونتخذ فى كل منها من وسائل الحيلة ما يكفل بعده عن مظان الخطأ والريبة التى أشرنا إليها فى الاعتراضات السابقة .

٢ — وأنه من الخطأ الاقتصار على طريقة الملاحظة المباشرة فى دراسة « الفونيتيك » ، (دراسة المظهر الصوتى فى اللغة) ؛ بل الواجب أن تضم إليها طرق أخرى أدق منها فى علاج هذه الظواهر ، كطريقة الأجهزة والمقاييس التى سيأتى الكلام عنها .

(١) شعبة «السيمنتيك» مثلاً تعتمد فى أم بحوثها على طريقة الملاحظة المباشرة ولا يواتها غيرها .

٣ - وأن استخدام هذه الطريقة في « الفونيتيك » يتطلب من الباحث أن يكون دقيق الإحساس مرهف السمع . وذلك لا يتحقق إلا إذا عني بتربية هذه الحاسة وأخذها في كل شئونها بالدقة وعودها بالضبط وقوة التمييز . فقد تستطيع حينئذ أن تقوم بما يعجز عن القيام به أدق الاجهزة . على أنها في حالاتها العادية قد بلغت في بعض إدراكاتها درجة من الدقة لم يبلغ مثلها بعد أي جهاز صناعي . فهي تدرك إحساسات سمعية كثيرة في آن واحد وتميز بينها ؛ وتستطيع أن تحس فروقا لغوية دقيقة لا يقوى على تسجيلها أحدث جهاز . فقد يبلغ الشخص في إجادة لغة أجنبية درجة لا يستطيع معها أدق الاجهزة أن يسجل فرقا بين نطقه ونطق أبنائها ؛ ولكنه بمجرد أن يلفظ أمام أحدهم كلمات منها يدرك السامع من فوره أن المتكلم أجنبي ويحس ما في أصواته من غرابة ومخالفة للألوف . والقرى المتقاربة قد تتقارب لغات أهلها لدرجة لا يقوى معها أي جهاز على تسجيل فرق بينها ؛ ولكن بمجرد أن ينطق أحدهم أمام آخر ببعض كلمات يستطيع السامع أن يدرك إن كان المتكلم من أهل قريته أو من غيرها .

وخير طريقة تسهل على الأذن القيام بوظائفها وتعودها الدقة في إدراكاتها ، أن يأخذ الباحث نفسه بما يسمونه « الكتابة السمعية » ؛ وذلك بأن يعنى بتدوين الكلمات عقب سماعه لها مباشرة بالشكل الذي يتفق مع الأصوات التي لفظت بها وبدون أن يدع لرسمة العادي أي أثر على نفسه في أثناء ذلك . ويتطلب هذا النوع من الكتابة حروف هجاء أكثر من حروف الهجاء المصطلح عليها . وذلك أنه في هجائنا العادي لا يوجد لكل صوت إلا حرف واحد ، مع أن هذا الصوت يختلف اختلافا كبيرا في شكله ونبرته وقوته ومدة النطق به ... باختلاف الكلمات والجمل وباختلاف موقعه في الكلمة أو العبارة ، ويختلف النطق به في كل حالة من هذه الحالات باختلاف الأفراد والمناطق ... وهلم جرا . وإليك مثلا اللام في الله : فانها تارة ترقق (بالله مثلا) وتارة تفخم (والله وتالله مثلا) ؛ وأحيانا لا يقف اللسان عندها وأحيانا يستمر صوتها مدة طويلة (إذا أراد السامع التأكيد

في قسم مثلاً) ؛ ولا ينطق بها في القسم كما ينطق بها في غير القسم (فنطقك باللام في والله إذا كانت الواو عاطفة ليس كنطقك بها إذا كانت واو قسم) . فينبغي في « السكتابة السمعية » أن يكون لكل شكل من أشكال اللام حرف خاص يرمز إليه . وإليك مثلاً آخر حرف الجيم : فإن النطق به يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف المناطق والأفراد وباختلاف الكلمات . ففي العالم العربي وحده يوجد عدد كبير من أصوات الجيم : فالجيم المنقلبة عن قاف عربية يختلف النطق بها عن الجيم الأصلية . وكلتا الجيمين يختلف النطق بها باختلاف المناطق : فلكل من سكان الصعيد وسكان الدلتا والحجازيين واليمنيين والسوريين واللبنانيين والعراقيين والمغاربة . . . في نطق كل جيم منهما أسلوب صوتي خاص يختلف عن أسلوب من عداهم . بل إن بلاد المنطقة الواحدة لتختلف أحياناً بهذا الصدد فيما بينها اختلافاً غير يسير . فينبغي في « السكتابة السمعية » أن يكون لكل شكل من أشكال الجيم حرف خاص يرمز إليه . وما قلناه في اللام والجيم يصدق على ما عداهما من الحروف .

(الطريقة الثانية) طريقة الأجهزة في دراسة الفونيتيك (علم الأصوات) . إن عدم دقة الأذن الإنسانية في تمييز أنواع الصوت وخصائصه وإدراك تفراته وقياس قوته ومدته ، والعوامل الكثيرة المحيطة بها والتي تجعل مدركاتها عرضة للزلل . . . كل أولئك قد حمل علماء الفونيتيك (دراسة أصوات اللغة) على البحث عن وسيلة أخرى تبرا من كل هذه العيوب ، فاهتدوا إلى طريقة الأجهزة . وهي آلات تدار بطرق خاصة فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة بما يتعلق بالصوت إلا أحصتها وسجلتها بشكل دقيق مضبوط . وبذلك تستحيل ظواهر الصوت إلى علامات مخطوطة تقاس باليد وتحسها العين ، وتغني الباحث عن استخدام أذنه وتقويه شر أخطائها ، وتجعل بحوثه مبنية على أسس متينة صادقة لا يستطرق إليها الشك ولا يأتينا الباطل .

وترجع الحقائق التي ترشدنا إليها هذه الأجهزة إلى طائفتين مختلفتين: إحداهما تتعلق بطبيعة الأصوات؛ وثانيتها تتعلق بمخارجها.

فبالأمل فيما تسجله هذه الأجهزة من العلامات الممثلة لنبرات الصوت وقوته ومدته... وما إلى ذلك نستطيع أن نقف على طبيعته؛ وبالتأمل فيما ينطبع فيها بصدد الأعضاء التي تلفظه نستطيع أن نقف على مخارجه.

ومن ثم انقسمت طرقهم بهذا الصدد إلى طريقتين لكل طريقة منهما أجهزة خاصة: إحداهما يسمونها طريقة التدوين المباشر «Inscription directe» وهي التي نقف بفضلها على مخارج الحروف؛ وثانيتها يسمونها «طريقة العلامات Méthode Graphique» وهي التي نقف بفضلها على طبيعة الصوت.

أما طريقة التدوين المباشر، فترمي إلى الوقوف على الأعضاء التي تشترك في لفظ صوت ما وانتقالات كل عضو منها في أثناء لفظه، عن طريق أجهزة تترك فيها هذه الأعضاء وهذه الانتقالات أثراً مباشراً. وهذه الأجهزة كثيرة متنوعة. فمنها «السقف» الصناعي، وهو آلة على شكل سقف الحلق يغطي ظاهرها بطبقة من الحلك أو ما شاكله وتركب في الفم بحيث يكون باطنها ملصقاً بسقف الحلق، ويطلب إلى الشخص النطق بحرف من الحروف التي يشترك في لفظها اللسان وسقف الحلق. فعند ما يتصل لسانه بسقف حلقه يترك في المادة الجيرية أثراً. ومن هذا الأثر وموضعه من الجهاز يتبين للباحث، في صورة واضحة، المكان الذي يلتقي فيه اللسان بسقف الحلق في أثناء النطق بهذا الحرف.

وأما طريقة العلامات فهي أهم كثيراً من الطريقة الأولى وأعظم منها فائدة وأكبر أثراً في تقدم هذا العلم. وهي ترمي إلى الوقوف على طبيعة الصوت أي على خواصه ومميزاته من حيث نبراته وقوته ومدته... وما إلى ذلك، عن طريق أجهزة تحس هذه الخواص وتسجلها بعلامات وخطوط دقيقة الدلالة بهذا الصدد. وذلك أنه بالتأمل في هذه الخطوط وقياسها والنظر في اتجاهاتها نستطيع أن نقف

بطريقة مضبوطة على مختلف الخواص المميزة للصوت الذي نختبره وعلى مبلغ كل خاصة منها ودرجتها .

وكل جهاز من هذه الأجهزة يشتمل على ثلاثة أجزاء :

١ — الكاشف Explorateur ، ويوضع على العضو الذي يراد دراسة حركته في أثناء النطق للوقوف على خاصة من خواص الصوت . ويختلف شكل الكاشف وتركيبه باختلاف الأعضاء التي يوضع عليها . وهو مصنوع بطريقة تجعله يحس إحساساً دقيقاً كل ما يقوم به العضو من حركة مهما كانت ضئيلة .

٢ — المدون Inscripteur ، وهو على شكل قلم متصل بالكاشف ، يتحرك حركات معينة تبعاً لحركات العضو التي يحسها الكاشف ، ويخط في أثناء تحركه خطوطاً تمثل ، في اتجاهاتها وأطوالها وأشكالها ، حركات العضو .

٣ — السجل Enregistreur ، وهي أسطوانة تدور حول محورها يخط عليها المدون الخطوط السابق ذكرها ؛ والغرض من دورانها أن تقع الخطوط منفصلة بعضها عن بعض .

ولكل جهاز من هذا النوع نظام خاص في سيره وتركيبه وحل رموزه . ويستخدم عدد كبير من هذه الأجهزة في وقت واحد في أثناء النطق ؛ فيوضع جهاز على الرئة وآخر على القلب وثالث على القصبة الهوائية ورابع على الحنجرة وخامس على الأنف وسادس على الفم . . . وهلم جرا . فعلى ضوء الخطوط التي تظهر في سجلات هذه الأجهزة نستطيع — بعد قياسها وحل رموزها — أن نقف على مختلف خواص الصوت الذي نجرى عليه الاختبار وأن نصفه وصفاً دقيقاً لا لبس فيه ولا إبهام .

هذا ، وقد شاع تسمية البحوث القائمة على طريقة الأجهزة باسم « الفونيتيك التجريبي Phonétique Expérimentale » ، أي دراسة الصوت دراسة تجريبية . ولكن هذه التسمية غير صحيحة ؛ لأننا لسنا بصدد تجارب أي تغيير الظروف العادية المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ ، بل بصدد ملاحظة في ظروف طبيعية عادية ، ولكن عن طريق أجهزة ومسجلات آلية لا عن طريق الأذن

والحواس الإنسانية . — حقاً إن الباحث قد يلجأ أحياناً إلى التجربة أي إلى تغيير الظروف المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ ، ولكن هذا لم يحدث إلا في حالات نادرة لم تحصل منها على نتائج ذات بال . ومهما يكن من شيء ، فلم تكن التجارب هي الغرض الأساسي الذي دعا إلى اختراع الأجهزة وليست هي الغرض الأساسي الذي يدعو إلى استخدامها ؛ وإنما أهم ما قصد من اختراعها وما يقصد من استعمالها هو ملاحظة الظواهر عن طريقة آلة دقيقة ، لا عن طريق الأذن التي كثيراً ما تضلل الباحثين .

وقد مهد لهذا الأسلوب من البحوث العلامة ماري Marey باستخدامه أجهزة من هذا القبيل في « الفيزيولوجيا » (علم وظائف الأعضاء) . ولكن أول من استخدمه في الظواهر اللغوية هو الأستاذ روسلو Rousselot ، وكان ذلك عام ١٨٩٠ ، وهو الذي أطلق على البحوث القائمة على هذه الطريقة اسم « الفونيتيك التجريبي » أي « علم الصوت التجريبي » . ويلتمس له العذر في إطلاق هذا الاسم الخاطيء . ففي عصره كانت تطلق كلمة « التجريبي » على كل ما تستعمل فيه الأجهزة ولو لم يكن للتجارب حظ فيه .

(الطريقة الثالثة) الطريقة التجريبية . مثال ذلك ما ذكرناه . تقوم هذه الطريقة — كما أشير إلى ذلك فيما سبق — على تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما أو المحيطة بالشخص الذي تجرى عليه الملاحظة ، بحيث يمكننا الوقوف ، من طريق سهل مختصر مأمون العواقب ، على ما يتعذر الوقوف عليه في الظروف العادية أو على ما يقتضينا الوقوف عليه في الظروف العادية إسرافاً في الوقت والمجهود .

وعلى هذه الطريقة تعتمد طائفة كبيرة من العلوم الطبيعية كالطبيعه والكيمياء والتاريخ الطبيعي وما إلى ذلك . فأهم ما كشفه الباحثون في هذه العلوم يرجع الفضل فيه إلى الطريقة التجريبية ، ولو أنهم اقتصروا على ملاحظة الظواهر في حالاتها العادية لما وصلوا إلى عشر معشار ما وصلوا إليه . فعالم الطبيعة مثلاً

لا يكتفى فيما يتعلق بالجذب والكهربائية والمغناطيسية والضغط الجوي ... وما إلى ذلك بملاحظة ظواهرها في حالاتها العادية ولا ينتظر حتى تحدث الظاهرة التي يريد دراستها ، بل يخلقها خلقاً في معمله ويغير من الظروف المحيطة بها ويختير النتائج التي تنجم عن تجاربه ، وعلى ضوء هذا كله يصل إلى كشف القوانين الخاضعة لها في مختلف أحوالها وأوضاعها .

أما العلوم الإنسانية ، فلم تنتشر فيها هذه الطريقة انتشاراً كبيراً ، ولم يتجاوز استخدامها فيها دائرة ضيقة . وذلك أن معظم الظواهر التي تدرسها العلوم الإنسانية لا تواتر طريقة التجارب . فليس في طاقة الباحث أن يخلق مثلاً نظاماً من النظم الاجتماعية ويحور فيه وفي الظروف المحيطة به وينظر إلى النتائج التي تنجم عن كل حالة من حالاته كما يفعل هذا حيال ظاهرة كهربائية أو ظاهرة جذب أو حيال نبات أو حيوان .

ولكن هذا لم يثن الباحثين في العلوم الإنسانية عن الانتفاع بهذه الطريقة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . فاستخدمت أولاً في علم النفس ، وشاع استخدامها غيره حتى أصبحت الآن معظم الظواهر النفسية ، من حفظ وذكر وانتباه وتداعي معان ... وما إلى ذلك ، تدرس على النحو التجريبي الذي تدرس به ظواهر الطبيعة . ثم أخذ استخدامها منذ عهد قريب ينتشر في العلوم الاجتماعية وخاصة علم اللغة .

وقد صادفت ميداناً فسيحاً في شعبة « الفونيتيك » . فلم يكتف الباحثون في هذه الشعبة بملاحظة الظواهر اللغوية في ظروفها العادية ، بل لجئوا في مواطن كثيرة إلى التجارب ، أي إلى خلق هذه الظواهر وإثارتها وتغيير أوضاعها والظروف المحيطة بها وبالأشخاص الذين تجرى عليهم الملاحظة . ووصلوا بفضل هذه الطريقة — على الرغم من قرب العهد بها — إلى كثير من النتائج القيمة بصدد العلاقة بين اللفظ والسمع ، وأخطاء الأذن ، والفرق بين الأصوات الغنائية والأصوات الكلامية ، واختلاف النطق بالحروف باختلاف الأمم والمناطق وباختلاف الأعمار ، وتعلم اللغات الأجنبية ، وكسب الطفل للغة ، وتعلم الصم

الكلام وهلم جرا . وينتظر أن يتسع نطاق هذه الطريقة في المستقبل وأن يصل الباحثون على ضوءها إلى حل كثير من المشكلات الصوتية التي لا تزال قائمة إلى الآن .

وقد يصحب التجربة في هذه الشعبة استخدام الأجهزة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . ولكن هذا ليس ضرورياً . فالطريقة التجريبية تتحقق في كل حالة يحاول فيها الباحث تكوين ظاهرة لغوية أو إثارتها ولو لم يستخدم في ذلك أى جهاز صناعى ؛ كأن يطلب إلى الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة أن ينطق بكلمة ما ، أو يغير من أوضاع حروفها ويطلب إليه النطق بها ، أو ينطق بها أمامه ويطلب إليه تكرار ما سمعه . . . وهلم جرا .

واستخدمت هذه الطريقة كذلك فى الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (السيمنتيك) ؛ ووصل بفضلها العلماء إلى نتائج ذات بال وبخاصة فى دراسة اللهجات واللغات العامية (الدياليسكتولوجى) . فلم يكتف الباحثون فى هذه الناحية بملاحظة الأشخاص وهم يتحدثون فى حالاتهم العادية، بل لجئوا كذلك إلى التجارب أى إثارة الظواهر اللغوية وتوجيهها فى النواحي التى تتيح لهم الوقوف على حقيقة أو استنباط قانون .

ومن الواضح أن تجارب هذه الشعبة لا مجال فيها لاستخدام الأجهزة . فمادة التجارب فيها لا تتجاوز الأسئلة والأجوبة ، ووسائل إصدار الظواهر وتسجيلها وملاحظتها لا تتجاوز أعضاء الجسم والقوى العقلية . وذلك بأن يطلب الباحث مثلاً إلى الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة أن يعبر عن معنى أو يصف منظرآ ، أو يذكر له كلمة ويطلب إليه ذكر مترادفاتهما ، أو يريه شيئاً ويطلب إليه بيان اسمه أو أسمائه فى لغته ، أو يعمل عملاً ويطلب إليه التعبير عما يدل عليه ، أو ينطق أمامه بجملة صحيحة ويطلب إليه تفسيرها بلغته العامية ، أو بجملة خاطئة ويطلب إليه أن يرشده إلى ما فيها من نقص بصدد الدلالة . . . وهلم جرا .

هذا ، ولم يتح للطريقة التجريبية من ظروف النجاح والانتشار فى علم اللغة

ما أتيسح لغيرها . فهي لا تزال تسير فيه بخطى بطيئة ؛ بل لا يزال بعض علمائه ينظرون إليها بعين الريبة ولا يثقون كل الثقة بما تصل إليه من نتائج . وذلك أنهم يرون أن تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية قد يخرج بها عن طبيعتها ويصورها في غير صورتها الحقيقية فيتعرض الباحث للخطأ في الحكم إذ يلتبس عليه الطبيعي بالمتصنع .

ورأيهم هذا ، على ما فيه من مبالغة في الشك ، يرشدنا إلى ما يحف بهذه الطريقة من أخطار وإلى وجوب استخدامها بقصد وحرص ، واتخاذ أقصى ما يمكن اتخاذه من وسائل الحيطة لاتقاء الزلل واللبس وللتمييز بين الطبيعي والمتصنع من أعمال الأفراد الذين تجرى عليهم التجارب .

(الطريقة الرابعة) طريقة قياس الغابر على الحاضر .

ترشدنا الملاحظة إلى كثير من التطورات التي اعتورت اللغات القديمة في مختلف مظاهرها . فقد اختلفت كل واحدة منها في أصواتها ودالاتها وقواعدها وأساليبها . . . باختلاف عصورها وباختلاف الأمم الناطقة بها . ومن الواضح أن عالم اللغة لا يقنع بتسجيل هذه التطورات ووصفها وصف المؤرخ الأمين ؛ بل يبحث كذلك عن أسبابها ويعمل على كشف العوامل التي أدت إليها .

ولما كان من الصعب الاهتداء بشكل مباشر إلى هذه الأسباب والعوامل لتعلقها بظواهر قد تقادم عليها العهد ، استخدم العلماء للوصول إليها طرقاً غير مباشرة . ومن هذه الطرق ، طريقة قياس الغابر على الحاضر ، . فلولوقوف على أسباب مظهر من مظاهر التطور في لغة قديمة يبحثون عن تطور مشابه له في اللغات الحديثة ويدرسون أسبابه (وأسباب التطورات الحديثة لا يحتاج كشفها إلى كبير عناء لوضوح أثرها وقرب العهد بها) ، ثم ينظرون إلى أي مدى يمكن أن تكون أسباب التطور القديم مشابهة لهذه الأسباب .

واستخدام هذه الطريقة في تطورات الدلالة (السيمنتيك) محفوف بالأخطار وعرضه للزال . وذلك أن العوامل التي تؤدي إلى تطور اللغة في معاني كلماتها

وقواعدها وأساليبها . . . قلنا ما تتحد في عصرين أو في لغتين . لأن معظمها يرجع إلى ظواهر اجتماعية وتاريخية وسياسية وجغرافية وثقافية . . . وهلم جرا . ومن الواضح أن هذه الطائفة من العوامل لا يمكن أن تتكرر بشكل واحد ولا أن تتحد نتائجها في عصرين ولا في أمتين . فمن المجازفة إذن أن نعزو تطوراً دلالياً حدث في لغة قديمة إلى عوامل مماثلة للعوامل التي أحدثت تطوراً يشبهه في لغة حديثة .

أما فيما يتعلق بالناحية الصوتية من اللغة (الفونيتيك) فلا ضير من استخدام هذه الطريقة . وذلك أن التطورات الصوتية يرجع معظمها إلى أمور تتعلق بأعضاء النطق ، وطريقة أدائها لوظيفتها ، وتأثرها بالظواهر الجغرافية ، وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع . . . وما إلى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها قلما تختلف آثارها باختلاف العصور والأمم . فعلى ضوء العوامل التي أدت إلى تطور صوتي في لغة حديثة ، نستطيع أن نصل إلى كشف العوامل التي أدت إلى تطور مشابه له في لغة قديمة .

(الطريقة الخامسة) طريقة الموازنة Méthode Comparative .

تقوم هذه الطريقة على الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة ، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها . ، وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها .

ومع أهمية هذه الطريقة في دراسة علم اللغة ، ومع أن العلماء قد وصلوا بفضلها إلى معظم ما وصلوا إليه من حقائقه ، فإنها كثيراً ما تكون عرضة للزلل والانحراف عن جادة الصواب . غير أن معظم الأخطاء بهذا الصدد لا يرجع في الحقيقة إلى الطريقة ذاتها ، وإنما يرجع إلى سوء استخدامها ، وخاصة إلى نقص الاستقراء والتسرع في صوغ القوانين العامة . فقد يلاحظ الباحث مثلاً بصدد ظاهرة لغوية أنها قد حدثت في طائفة من اللغات على أثر بعض أمور ، فيتعجل

بوضع قانون عام يقرر فيه أن هذه الظاهرة نتيجة لازمة لهذه الأمور وحدها .
مع أن الواقع قد يكون غير ذلك . فقد لا يكون بين هذه الظاهرة وتلك الأمور
علاقة سبب بمسبب ؛ وقد يظهر له إذا اتسع نطاق استقرائه أن الأمر بينهما
لا يعدو مصاحبة اتفق حدوثها في بعض اللغات ، وأن هذه الأمور قد حدثت
في لغات أخرى بدون أن تحدث هذه الظاهرة ، أو أن الظاهرة قد حدثت أحياناً
بدون أن تسبقها هذه الأمور . وقد يبدو له مثلاً تشابهه في بعض الكلمات في لغتين
فيتسرع في الحكم عليهما بأنهما من فصيلة واحدة . مع أن الواقع قد يكون غير
ذلك ؛ فقد يكون سبب الاتفاق أن إحداهما قد اقتبست هذه الكلمات اقتباساً
من الأخرى مع انتمائهما إلى فصيلتين مختلفتين ؛ كما اقتبست السريانية عدداً كبيراً
من الكلمات الإغريقية ، مع أن السريانية من فصيلة اللغات السامية والإغريقية
من فصيلة اللغات الهندية - الأوربية ؛ وكما اقتبست الفارسية الحديثة كلمات
كثيرة من العربية ، مع أن أولاهما من اللغات الآرية وثانيتها من اللغات
السامية ؛ وكما اقتبست التركية قسماً كبيراً من متن لغتها من العربية والفارسية ،
مع أنها من فصيلة غير فصيلتي العربية والفارسية ، وهي الفصيلة التتيرية .

(الطريقة السادسة) الطريقة الاستنباطية Méthode d' Induction .

تستخدم هذه الطريقة للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة والكشف
علاقة السببية بين ظاهرتين أو أكثر .

وقد قسمها ستورت ميل إلى أربع طرق سماها طرق الاستنباط ، ووضع
لكل منها ضابطاً أو قانوناً خاصاً بها ، وهي :

طريقة التلازم في الوقوع Méthode de Concordance ، وهي التي
يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه كلما
وقعت الأولى وقعت الثانية .

وطريقة التلازم في التخلف Méthode de différence ، وهي التي يحكم

بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه إذا لم تقع إحداها لم تقع الأخرى .

وطريقة التلازم في التغيير *Méthode des Variations Concomitantes* ، وهي التي يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى إذا ثبت بالمشاهدة أنه كلما حصل تغير في إحداها صحبه تغير في الأخرى بنفس النسبة والقدر .

وطريقة البواقي *Méthode des Résidus* ، وهي التي يحكم بمقتضاها على حادثة من مجموعة حوادث بأنها علة لناحية من ظاهرة ما إذا ثبت عليها التلازم بين مجموعة الحوادث وجميع نواحي الظاهرة وثبت كذلك أن ما عدا هذه الحادثة من المجموعة علة لما عدا هذه الناحية من الظاهرة .

ولا يدخل في نطاق بحثنا شرح هذه الطرق ومناقشتها وبيان مدى صحة كل منها؛ فهذا كله موضعه كتب المنطق . والذي يهمنا تقريره هو أنه على الرغم من شيوع استخدام هذه الطرق في العلوم الطبيعية للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة وللكشف العلاقات التي تربط بين ظاهرتين أو أكثر ؛ فإن علماء اللغة لم يستخدموها لهذه الأغراض إلا في حالات قليلة . وذلك أنه قد تبين لهم أن الطرق الثلاثة الأخيرة ليست مطردة الصحة في الظواهر اللغوية^(١) . فاقصروا على استخدام الطريقة الأولى وهي « طريقة التلازم في الوقوع » . فعند محاولتهم الوقوف — عن طريق الاستنباط — على العلاقة بين ظاهرتين لغويتين ، أو ظاهرة لغوية من جهة وظاهرة اجتماعية أو نفسية أو فيزيولوجية . . . من جهة أخرى ، لا ينظرون إلا إلى مبلغ التلازم في وقوعهما ؛ فيستقرئون الحالات التي تبدو فيها كلتا الظاهرتين ، فاذا تبين لهم أنه في كل حاله تبدو فيها إحداها تظهر الأخرى حكموا على اللاحقة منهما بأنها نتيجة لل سابقة .

(١) يرجع هذا الى أسباب كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها .

(٢)

(١٠) تاريخ البحوث اللغوية

عرضنا في الفقرات السابقة لعلم اللغة في وضعه الأخير ، وسنتكلم بإيجاز في هذه الفقرة عن المراحل التي اجتازتها البحوث اللغوية حتى وصلت إلى هذا الوضع ، مقسمين موضوعنا قسمين : أحدهما خاص بتاريخ هذه البحوث في الغرب ، وثانيهما خاص بتاريخها في الثقافة العربية .

تاريخ البحوث اللغوية في الغرب

ظلت البحوث اللغوية عند أمم أوروبا ، حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي محصورة في دائرة ضيقة لا تعدو كثيراً مسائل علوم البنية والتنظيم والأسلوب (المورفولوجيا والسنتكس والسيتيلستيك) في أشكالها التعليمية^(١) . فلم يكن معظم العلماء ليعرضوا لغير هذه البحوث الثلاثة إلا استطراداً وفي صورة ناقصة وبطريقة تبعد كثيراً عن مناهج البحث العلمي : فن ذلك بعض نظرات في أصوات اللغة (الفونيتيك) وردت في مؤلف لكورديموا Cordemoy ظهر عام ١٦٦٨ ؛ وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة في القرن الثامن عشر لتعليم الصم البكم ؛ وبعض آراء لسانت أوجيستان Saint Augustin بصدده تطور اللغة ؛ وبعض آراء في أصول الكلمات الفرنسية والإيطالية والإسبانية (إيتيمولوجيا)^(٢) لكلود فوشيه Claud Fauchet وبيرون Joachin Périon وهنري إستيان Henri Estienne وميناج Ménage (الذي ألف سنة ١٦٥٠ معجماً في أصول الكلمات الفرنسية) وأودان Oudin وابنه ؛ وبعض بحوث لغوية عامة وخاصة قامت بها الأكاديميات ، (المجامع اللغوية) التي أنشئت في صدر العصور الحديثة كالأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الإسبانية وأكاديمية فلورنسا (أكاديمية كروسكا Crusca) وغيرها وقام

(١) أنظر صفحات ٧ - ٩ .

(٢) أنظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٩ رقم ٥ .

بها مؤلفو المعجمات الكبيرة ودوائر المعارف في هذا العصر .
وثمة مظهر آخر لضيق البحوث اللغوية في هذه المرحلة ، وذلك أنها كانت مقصورة على اللغتين الإغريقية واللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الفصحى . فلم يكن للهجات الشعبية ولا لغير اللغات الأوروبية في هذه المرحلة الطويلة حظ ما من الدراسة (١) .

وفي أواخر القرن الثامن عشر حدث بهذا الصددهنهضة كبيرة يرجع معظم الفضل فيها إلى كشف اللغة السنسكريتية Sanscrit وحل رموزها ، فقد أراح هذا الكشف الستار عما بين اللغات الهندية والإيرانية من جهة واللغات الإغريقية واللاتينية والجرمانية من جهة أخرى من تشابه وصلات قرابة وروابط وثيقة ، ومهد السبيل لإنشاء علوم القواعد التاريخية والمقارنة (٢) ، ووسع بذلك نطاق الدراسات اللغوية .

وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل العلامة الألماني شليجيل Schlegel . فقد نبه أذهان العلماء إلى صلوات التشابه الكثيرة التي تربط اللغات الأوروبية والهندية والآرية بعضها ببعض : تلك اللغات التي رجعها العلماء من بعده إلى فصيلة واحدة سموها « الفصيلة الهندية — الأوروبية » كما سيأتي بيان ذلك (٣) .

ومن ذلك الحين أخذ العلماء يدرسون هذه الفصيلة دراسة علمية عميقة ويكشفون عما بين أفرادها من تشابه في أصول الكلمات وفي قواعد الصرف والاشتقاق والتنظيم ، فبلغوا بعلم « القواعد المقارن » شأواً راقياً . وكان من أنبه أفراد هذه الحلقة ذكراً وأجلهم أثراً في هذه النهضة عالمان ألمانيان هما بوب

(١) بل إن هذه اللهجات كانت محاربة ومعدودة من مصادر الخطر على الأدب . وقد بلغ العداء لهذه اللهجات مبلغاً كبيراً في فرنسا؛ حتى لقد عهدت الجمعية الوطنية Convention Nationale التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية إلى الأب جريجوار (أحد أعضائها) عام ١٧٩٤ أن يقدم تقريراً عما ينبغي اتخاذه للقضاء على اللهجات الشعبية الفرنسية وتعميم اللغة الفصحى .

(٢) انظر صفحتي ٨٤٧ .

(٣) انظر الفصل الثاني من الباب الثالث .

Franz Bopp^(١) وجريم Jacques Louis Grimm^(٢) .
وقد مهدت بحوث « علم القواعد المقارن » السبيل إلى بحوث « علم القواعد التاريخية » . فانتقل العلماء من الموازنة بين اللغات الهندية الأوروبية إلى الموازنة بين مظاهر كل لغة منها في مراحلها المختلفة ، ومن البحث في تفرع هذه اللغات بعضها من بعض وتفرعها عن أصل واحد إلى البحث في الطريقة التي تسلكها كل لغة منها على حدتها في تطورها وارتقائها من جميع نواحيها وبخاصة من ناحية قواعدها . — وكان من أشهر من افتتح هذا السبيل جاك لويس جريم السابق ذكره وديز Friedrich Diez^(٣) وبراشيه August Brachet^(٤) . — وقد استمدت هذه الدراسات اللغوية بعض موادها من بحوث من آداب اللغات الأوروبية بالعصور الوسطى ، قام بها قبيل ذلك العصر وفي أثنائه جماعة من مؤرخي الأدب ، من أشهرهم بولان باريس Paulan Paris^(٥) ورينوآر François Reynouar^(٦) .

ثم انتقل البحث من هذه الدائرة الخاصة المقصورة على اللغات الهندية — الأوروبية إلى دائرة عامة ترمى إلى كشف القوانين التي تخضع لها كل لغة إنسانية في تطورها وارتقائها من حيث أصواتها وقواعد تصريفها ... وما إلى ذلك . وقد

-
- (١) ولد بجاينس Mayence عام ١٧٩١ وتوفي عام ١٨٦٧ . — ومن أشهر مؤلفاته كتاب « القواعد المقارنة للغات الهندية — الأوروبية » .
(٢) هو أول من كتب في الفيلولوجيا الجرمانية ولد عام ١٧٨٥ وتوفي عام ١٨٦٣ .
(٣) فردريك ديز من أشهر علماء الفيلولوجيا الألمان ، ولد عام ١٧٩٤ وتوفي عام ١٨٧٦ . — ومن أشهر مؤلفاته « معجم في أصول مفردات اللغات الرومانية » و « قواعد اللغات الرومانية » (واللغات الرومانية Langues Romanes هي اللغات المتفرعة من اللاتينية) .
(٤) ولد بتور من أعمال فرنسا سنة ١٨٤٤ وتوفي بها سنة ١٨٩٨ . وكان أستاذاً للفيلولوجيا بمعهد الدراسات العليا بفرنسا . ومن أشهر مؤلفاته : « بحث في القواعد التاريخية للغة الفرنسية » و « معجم في أصول كلمات اللغة الفرنسية » .
(٥) ولد عام ١٨٠٠ وتوفي عام ١٨٨١ — وله مؤلفات جلية في آداب اللغة الفرنسية بالعصور الوسطى .
(٦) ولد عام ١٧٦١ وتوفي عام ١٨٣٦ — وله بحوث قيمة في آداب اللغة الفرنسية بالعصور الوسطى .

افتتح هذه الحلقة العلامة الألماني ماكس مولر Max Muller^(١) وتبعة كثيرون من أشهرهم العلامة الإنجليزي سيس Archibald - Henry Sayce^(٢). وقد كان لزاماً أن يصل العلماء في تعقبهم لأصول اللغات ومراحل ارتقائها إلى أقدم مرحلة للتعبير الإنساني، وأن يحاولوا الكشف عن منشأ اللغة في الفصيلة الإنسانية وعن الأسس الأولى التي قام عليها التخاطب بالأصوات ذات الدلالات الوضعية. وقد استأثرت هذه المشكلة بقسط كبير من نشاطهم في منتصف القرن التاسع عشر، وانقسموا بصددها إلى فرق كثيرة سيأتي الكلام عنها في الفصل الأول من هذا الكتاب. — ومن أشهر من عرض لهذا الموضوع الفيكونت دو بونالد Vicomte de Bonald^(٣) وماكس مولر، وسيس ورينان Renan^(٤).

(١) ولد ببلدة ديسو Dessau من أعمال ألمانيا عام ١٨٢٣ وتوفي بأكسفورد عام ١٩٠٠. وهو ابن الشاعر غليوم مولر، تخرج من جامعتي ليزنج وبرلين، ثم رحل إلى باريس حيث حضر دروس الأستاذ برونوف Burnouf في اللغة السنسكريتية. ثم ذهب إلى إنجلترا واستقر بأكسفورد حيث عين أستاذاً بجامعة للآداب واللغات الحديثة ثم أستاذاً للقواعد المقارنة. ومن أشهر مؤلفاته «دروس في علم اللغة» ظهر عام ١٨٦١ و«دروس حديثة في علم اللغة» ظهر عام ١٨٦٤. وكان لهذين الكتابين شأن كبير في القرن السابق. وله كذلك مؤلفات كثيرة في الأديان وتاريخها.

(٢) ولد ببلدة شيرهمتون Shirehempton بجوار مدينة بريستول Bristol عام ١٨٤٦. وقد خلف ماكس مولر في تدريس القواعد المقارنة بجامعة أكسفورد. وله نظريات ومؤلفات كثيرة في هذا العلم من أشهرها: «أصول الفيلولوجيا المقارنة» و«مقدمة في علم اللغة». — وقد كان كذلك من شهيري المستشرقين، وله عدة مؤلفات في كثير من اللغات السامية وبخاصة اللغة الآشورية القديمة.

(٣) اسمه لويس جيراثيل امبرواز Louis - Gabriel - Ambroise ولد بمدينة ميو Millau من أعمال فرنسا عام ١٧٥٤ وتوفي بها عام ١٨٤٠. وله مؤلفات كثيرة في السياسة والفلسفة. وكان من أكبر أنصار الحكومة الملكية الخاضعة للنفوذ الديني الكاثوليكي.

(٤) أرنست رينان Ernest Renan من أشهر المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ولد ببلدة تريجييه Tréguier عام ١٨٢٣ وتوفي بباريس عام ١٨٩٠. درس اللاهوت واللغات الشرقية والعلوم ومختلف فروع الفلسفة والآداب، وتولى تدريس اللاهوت واللغة العبرية والتاريخ والفلسفة في كثير من المعاهد وعين عضواً بالأكاديمية الفرنسية ومديراً للكليج دو فرانس Collège de France. وله نحو خمسين مؤلفاً كبيراً في التاريخ العام وتاريخ الديانات وفي اللغات والأخلاق والفلسفة واللاهوت والسياسة وغيرها. وقد كان مؤلفاته أكبر أثر في الثقافة الفرنسية في القرن التاسع عشر. ومن أشهر كتبه في اللغات: «تاريخ اللغات السامية» و«منشأ اللغة».

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر عند المشتغلين بالبحوث اللغوية اتجاهان هامان كان لكل منهما أثر كبير في النهوض بهذا العلم :
(الاتجاه الأول) جعل البحوث اللغوية بحوثاً علمية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وذلك بإخضاعها لمناهج البحث العلمي ، وتوجيهها إلى الأغراض نفسها التي ترمى إليها العلوم ، وجعل غايتها الأساسية الوصول إلى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية^(١) ، وتخليصها من جميع المسائل الفلسفية التي لا يتفق منهج البحث فيها مع ما ينبغي أن تكون عليه مناهج البحث في العلوم والتي لا يمكن الوصول فيها إلا إلى فروض وآراء ظنية لا تسمو إلى درجة اليقين ولا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمي .

وقد كان لهذا الاتجاه آثار جليلة في مختلف فروع هذا العلم . فبفصله وضحت حدود كل فرع منها ومناهجه ، وهذبت أساليبه وطرق دراسته واجتذبت إليه عدداً كبيراً من أعلام الباحثين ؛ فكثر الإنتاج ورتق نوعه . وكان من آثاره كذلك أن انصرف العلماء عن البحث في موضوع نشأة اللغة وتركوا دراسته للفلاسفة والميتافيزيقيين (الباحثين فيما وراء الطبيعة)^(٢) .

ويرجع الفضل في توكيد هذا الاتجاه إلى مدرسة ألمانية الأصل أطلق على أفرادها اسم «المحدثين من علماء القواعد Néo Gramairiens» . فقد ذهب هذه المدرسة إلى «جبرية» الظواهر اللغوية ، فقررت أن هذه الظواهر لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد أو تبعاً للأهواء والمصادفات ، وإنما تسير وفقاً لقوانين لا يستطيع الفرد إلى تعويقها أو تغييرها شيئاً ، ولا تقل في ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة^(٣) ؛ وأن واجب الباحث في هذه الظواهر ينبغي أن ينحصر في تحليلها لكشف القوانين الخاضعة لها . ومن أشهر أفراد هذه المدرسة ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف

(١) انظر صفحات ١٤ ١٥ ١٦ ١٨ — ٢٥ .

(٢) انظر صفحة ٥ .

(٣) أنظر توضيح ذلك بصفحات ١٨ — ٢٠ .

Ostoff وهرمان بول Hermann Paul ودلبروك Deidrück .

وقد لقي مذهبهم هذا في مبدأ أمره مقاومة كبيرة من طوائف كثيرة وبخاصة من ثلاث طوائف :

إحداها « المدرسة الإيطالية » التي كان العلامة أسكولي Ascoli من أبرز أعضائها . فقد ذهبت هذه المدرسة في تعليل كثير من الظواهر اللغوية مذهباً يختلف عن آراء المحدثين من علماء القواعد ؛ ولا يتفق في بعض مظاهره مع القول بحجيرية الظواهر اللغوية .

وثانيتهما « المدرسة الإنجليزية » التي كان الأستاذان سيس Sayce وسويت Sweet الإنجليزيان والعلامة جيسبرسن Jespersen الدانيمركي من أظهر ممثليها . فقد أنكرت هذه المدرسة حجيرية الظواهر اللغوية وذهبت إلى أن جميع هذه الظواهر بما في ذلك التطورات الصوتية نفسها ترجع أهم أسبابها إلى أمور يقوم بها الأفراد وتنتشر عن طريق التقليد^(١) . ولعل هذه المدرسة قد تأثرت فيما ذهبت إليه بنظرية العلامة الفرنسي جبرائيل تارد Tarde الذي يذهب إلى أن جميع الظواهر الاجتماعية فردية المنشأ وتصبح اجتماعية عن طريق التقليد^(٢) .

وثالثها طائفة يمثلها العلامة الفرنسي بريال Bréal . فقد ساءت هذه الطائفة ، مع شيء من التحفظ ، بمذهب « الجبرية » فيما يتعلق بظواهر الصوت (موضوع الفونيتيك) . ولكنها خالفت هذا المذهب فيما يتعلق بظواهر الدلالة (موضوع السيميوتيك) ؛ فذهبت إلى أن كل التغيرات التي تحدث في مدلولات اللغة عبارة عن إصلاحات مقصودة أو شبه مقصودة تعتمد على جهود يقوم بها الناطقون

(١) أنظر كتاب الأستاذ سيس Sayce « أصول الفيلولوجيا المقارنة » Principles of Comparative Philology وكتابتان سويت Sweet « تاريخ أصوات اللغة الإنجليزية » History of English Sounds و « الدراسة العملية للغة » The Practical Study of Language وكتابتان جيسبرسن Jespersen : « تطور اللغة » The progress of Language و « اللغة : طبيعتها وتطورها ومنشؤها » Language: its nature, development and origin .

(٢) أنظر كتابه « قوانين التقليد » Lois de l'imitation .

بهذه اللغة وتسير بها دائماً إلى حيث الكمال ؛ وأن من أهم هذه الجهود ما يبذله
الأدباء والكتاب في كل عصر للنهوض باللغة^(١).

(والاتجاه الثاني) التخصص في دراسة فرع واحد أو بعض مسائل من فرع

من بحوث اللغة . ولذلك انصرف المحدثون من علماء اللغة عما كان يحاوله القدامى
من معالجة جميع المسائل ، وآثر كل منهم التفرغ لناحية من البحوث اللغوية .
وكان لهذا الاتجاه فضل كبير في النهوض بمختلف شعب هذا العلم .

ومن بين هذه الشعب خمس اتسع نطاق البحث فيها اتساعاً كبيراً في هذا العصر .

وتخصص في دراستها كثير من العلماء ، واستأثرت بقسط وافر من نشاطهم ،

فوصلت إلى شأو عظيم في النضج والكمال بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً في المراحل

السابقة : وهي « الفونيتيك » Phonétique أو دراسة الأصوات^(٢) ؛

و « الدياليسكتولوجيا » Dialectologie ، أو دراسة اللغات الشعبية العامية^(٣) ؛

والسيكولوجيا اللغوية Psychologie Linguistique ، أو علم النفس اللغوي ،

وهو دراسة العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها وبيان

أثر كل منها في الآخر^(٤) ؛ و « السيمنتيك » Sémantique ، أو دراسة اللغة من

ناحية الدلالة^(٥) ؛ و « السوسيلوجيا اللغوية » Sociologie Linguistique ،

أو علم الاجتماع اللغوي ، وهو دراسة العلاقة بين اللغة والظواهر الاجتماعية

وبيان أثر المجتمع ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته . . . في مختلف الظواهر اللغوية^(٦).

(١) انظر كتاب الأستاذ بريال : « بحث في السيمنتيك » Essais de Sémantique .

والأستاذ بريال هو أول من سمى هذه الشعبة باسم السيمنتيك . — وسننقد هذه النظريات جميعها بتفصيل
في مواطنها .

(٢) انظر صفحات ٦ (رقم ٣) ، ٢٠ (رقم ٥) ، ٣٥ — ٤٣ . — وسنقف فصلاً خاصاً

على دراسة هذه الشعبة . انظر كتاب الأستاذ بريال : « بحث في السيمنتيك » (١)

(٣) انظر صفحات ٥ (رقم ٢) ، ٤٣ ، ٦٤ . — وسنعرض لهذا الموضوع بتفصيل في الفصل

الخاص بتفرع اللغة . انظر كتاب الأستاذ بريال : « بحث في السيمنتيك » (٢)

(٤) انظر ص ١١ (رقم ٧) ، ٢١ ، ٢٨ ، ١٢ . — وسننقد هذه النظريات جميعها بتفصيل في الفصل

(٥) انظر صفحات ٦ — ٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٣ . — وسننقد هذه النظريات جميعها بتفصيل في الفصل

(٦) انظر صفحات ١٠ (رقم ٦) ، ١١ ، ٢٤ ، ٢٥ . — وسننقد هذه النظريات جميعها بتفصيل في الفصل

١ - أما شعبة « الفونيتيك » فيرجع الفضل في النهوض بها إلى طائفة كبيرة من العلماء في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وخاصة مدرسة « المحدثين من علماء القواعد Néo-Gramairiens التي سبقت الإشارة إليها (١) . فقد وجد أعضاء هذه المدرسة في مسائل « الفونيتيك » ما يؤيد مذهبهم في « جبرية الظواهر اللغوية » (٢) ؛ فخصوا هذه الشعبة بعنايتهم ووجهوا نحوها قسطاً كبيراً من جهودهم ، فبلغوا بها شأواً راقياً وكشفوا عن الأسباب الصحيحة التي يرجع إليها تطور الأصوات اللغوية . - ومن أشهر المبرزين في هذه الحلقة من أعضاء هذه المدرسة وغيرهم :

ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostoff وهرمان - بول Hermann - Paul . وأربعتهم من أقدم الأعضاء الألمان لمدرسة « المحدثين من علماء القواعد » . وإلى رابعهم يرجع النصيب الأكبر من الفضل في توجيه الأنظار إلى أثر التغيرات الجسمية الخاصة بأعضاء النطق في تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . وقد مهد بذلك السبيل إلى علم الفونيتيك التجريبي الذي أشرنا إليه فيما سبق (٣) .

وجاستون باريس Gaston Paris . وهو أول فرنسي فكر في إنشاء معمل للتجارب المتعلقة بدراسة الأصوات (وقد أنشأه بالسكوليج دو فرانس Collège de France . وإلى جهوده الجبارة في دراسة تطور الأصوات في اللغات الرومانية (وهي اللغات المتفرعة من اللاتينية) يرجع أكبر قسط من الفضل في النهوض بهذه الشعبة وفي تأييد نظرية « المحدثين من علماء القواعد » .

وبول باسي Paul Passy الذي تعد بحوثه في التطورات الصوتية وعواملها من أجل ما ألف في هذه الشعبة (٤) .

(١) انظر صفحات ٥٢ وتوابعها .

(٢) انظر صفحات ١٨ - ٢١ ، ٥٢ - ٥٤ .

(٣) انظر صفحات ٢٨ - ٤١ .

(٤) من أشهر مؤلفاته في ذلك بحث في « دراسة التطورات الصوتية في اللغة »

Etudes sur les changements phonétiques وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ .

وروسلو Rousselot . وهو أول من استخدم الآلات في دراسة الصوت ،
وأنشأ بذلك الشعبة الشهيرة التي سماها « الفونيتيك التجريبي » (١) . ويرجع الفضل
في توجيه روسلو هذا الاتجاه الجديد إلى الأساتذة ماري Marey وهرمان بول
Hermann Paul . وجاستون باريس Gaston Paris كما سبقت الإشارة
إلى ذلك (٢) .

٢ - وأما الدياليكتولوجيا ، أو دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية ،
فقد كان مهملًا كل الإهمال قبل أواخر القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة ؛
منها أن العلماء كانوا يحاربون اللغات العامية ويرون فيها مصدر خطر على الأدب
كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) ؛ ومنها أنهم وجدوا في اللغات الفصيحة وفي اللغات
القديمة مجالًا واسعًا للبحث أستأثر بكل نشاطهم ؛ ومنها أن دراسة اللغات الشعبية
والعامية كانت تتطلب الأسفار والرحلات والاختلاط بسكان الريف ، وعلماء
اللغة في ذلك العصر كانوا يؤثرون الدراسة الهادئة في المكاتب والتنقيب
في بطون المؤلفات .

ولم تبد العناية بهذه الشعبة إلا منذ عهد قريب ؛ ولسكنها خطت في هذا الأمد
الوجيز خطوات واسعة حتى كادت تلحق الفروع الأخرى بل سبقت بعضها .
ويرجع الفضل في النهوض بها إلى طائفة من أعلام الباحثين في أواخر القرن
التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أشهرهم :

« جاستون باريس » الذي سبقت الإشارة إليه بين المبرزين من علماء الفونيتيك .
وهو أول فرنسي نادى بوجوب دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية . وقد
أنشأ بمعهد الدراسات العالية بفرنسا Ecole pratique des Hautes Etudes

(١) انظر صفحات ٣٨ - ٤١ .

(٢) انظر صفحتي ٤١ ، ٥٥ . هذا ، ومن أشهر مؤلفات روسلو كتابه في « التغيرات الصوتية
في اللغة » Les Modifications Phonétiques du Langage الذي كان له أكبر أثر في النهوض
بهذه الشعبة .

(٣) انظر صفحة ٤٩ والتعليق الأول من تعليقاتها .

قسماً خاصاً لهذه الشعبة. وإليه يرجع الفضل في تمهيد الطريق لدراسة كثير من اللغات الشعبية الفرنسية .

والإيطاليان « كورنو ، و « أسكولى ، Cornu et Ascoli اللذان تعد مؤلفاتهما في هذه الشعبة من أجل البحوث .

والأساتذة الفرنسيون « تورتولون ، Tourtoulon و « برنجيه ، Bringuet و « أنطوان توماس ، Antoine Tomas و « ألبرت دوزا ، Albert Dauzat ، الذين كان لجهودهم المشكورة في دراسة اللغات الشعبية الأوروبية، وبخاصة اللغات الرومانية (وهي المتفرعة من اللاتينية) واللهجات الفرنسية ، أثر كبير في النهوض بهذه الشعبة^(١) .

وأشهر هؤلاء جميعاً عالمان اقتسما بينهما دراسة « الديالكتولوجيا » : فعنى أحدهما بناحيها الصوتية (الفونيتيكية) ، وهو الأب روسلو الذي سبقت الإشارة إليه أكثر من مرة ؛ وعنى ثانيهما بناحيها الدلالية (السيمنتيكية) وهو العلامة جيليرون Cillieron .

ثم انتشر الاشتغال بهذه الشعبة بين جميع علماء « الفونيتيك » وجميع علماء « السيمنتيك » ، وذلك لما تبين لهم من أهميتها في دراساتهم . وقد أصبح الآن من المعتذر أن يدرس أي موضوع لغوي بدون الاستعانة بهذه الشعبة .

٣ — وأما علم النفس اللغوي Psychologie Linguistique فقد تضافر على النهوض به عوامل كثيرة ، أهمها اتساع البحوث المتعلقة بكسب الطفل للغة

(١) من أشهر مؤلفات « أنطوان توماس » : « بحث في الفينولوجيا الفرنسية. » Essais de Philologie Française و « بحوث في الايتيمولوجيا (أصول الكلمات) الفرنسية » Mélanges d' Etymologie Française ظهر أولهما عام ١٨٩٧ وثانيهما عام ١٩٠٢ . ومن أشهر مؤلفات العلامة « دوزا » في هذه الشعبة كتابه « اللغات العامية أو الريفية » Les Patois وكتابه « دراسات لغوية للهجات أوفيرني السفلى في أربعة أجزاء : Etudes linguistiques sur la Basse — Auvergne : أما الأستاذان « تورتولون ، و « برنجيه » فقد قضيا شطراً كبيراً من حياتهما في دراسة بعض اللهجات الفرنسية .

وارتقاء الدراسات الخاصة بأمراض اللغة (الأفازيا Aphasie) — فقد كثرت الإصابات بهذه الأمراض في أثناء الحرب العظمى بين الجنود وغيرهم ، فأتاح هذا فرصاً واسعة للبحوث والتجارب في هذه السبيل) . وقد ظهر للعلماء على ضوء هذه الدراسات قوة الصلة التي تربط مظاهر اللغة بمختلف المظاهر العقلية ، وتبين لهم أن كل دراسة لغوية لا تقوم على دراسة القوى النفسية ، وكل دراسة نفسية لا تقوم على دراسة اللغة تكون ناقصة مبتورة ، قليلة الجدوى ، فاسدة النتائج . فعكف علماء النفس وعلماء اللغة على دراسة « علم النفس اللغوي » ، وجعله كل فريق منهم شعبة مستقلة من بحوث علمه ، وتوفر على دراسته عدد كبير من أعلامهم فبلغوا به شأواً راقياً في النضج والكمال . ومن أشهر من برز فيه الأساتذة : ريبو ^(١) Ribot وبالي ^(٢) Bally وپولان ^(٣) Paulhan وبوردون ^(٤) Bourdon وبرونو ^(٥) Brunot وجويوم ^(٦) Guillaum وفان جينيكيين ^(٧) Van Ginneken وپاولوفيتش ^(٨) Pavlovitch وپياجيه ^(٩) Piaget وسان - پول ^(١٠) Saint-Paul وسيجلاس ^(١١) Seglas والعلامة الإيطالي فردريك جارلاندا ^(١٢) Frédric Garlanda وأستاذي المرحوم العلامة هنري

(١) انظر علي الأخص الفصل الثاني من كتابه تطور المعاني الـكـيـة Evolution des Idées
générales

(٢) انظر علي الأخص كتابية بالفرنسية: « اللغة والحياة » و« بحث في علم الأسلوب » .

(٣) انظر علي الأخص كتابه بالفرنسية: « الوظيفة المزدوجة للغة » Double Fonction du
Langage

(٤) انظر كتابه بالفرنسية: « التعبير الطبيعي عن العواطف واتجاهات اللغة » .

(٥) من أشهر مؤلفاته بهذا الصدد كتابه بالفرنسية: « اللغة والتفكير » .

(٦) انظر كتابه بالفرنسية: « التقليد عند الطفل » وعلى الأخص القسم الثاني الذي وقفه على
التقليد في اللغة .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية: « أصول علم اللغة النفسي » .

(٨) انظر كتابه بالفرنسية: « لغة الطفل » .

(٩) انظر كتابه بالفرنسية: « التفكير واللغة عند الطفل » .

(١٠) انظر كتابه بالفرنسية: « الكلام النفسي » .

(١١) انظر كتابه بالفرنسية: « أمراض اللغة » .

(١٢) انظر كتابه بالاطالية: « فلسفة اللغة » .

دولاكروا Henri Delacroix عميد كلية الآداب بجامعة السربون وأستاذ علم النفس بها سابقاً : فقد وقف قسماً كبيراً من جهوده العلمية على هذه الشعبة وقام فيها ببحوث قيمة ، ألقى بعضها علينا في جامعة السربون ، ونشر بعضها بكثير من المجلات النفسية والفلسفية ، وضمن كثيراً منها كتابه الشهير : « اللغة والتفكير » Le Langage et La Pensée (١) .

٤ — وأما « السيمنتيك » (أى دراسة اللغة من ناحية الدلالة) فقد كان لهضة الشعب الثلاثة السابقة أثر كبير في الارتقاء به من ناحيتي الطريقة والمادة . فقد تهذبت طريقته تحت تأثير « الفونيتيك » ، واتسعت مادته وكثر إنتاجه بفضل دراسات « الديالكتولوجيا » (علم اللهجات) و « علم النفس اللغوي » .

وذلك أن علماءه قد أعجبوا بالاتجاه العلى الذى نحا إليه زملاؤهم علماء « الفونيتيك » ، والذى أشرنا إليه فيما سبق (٢) ، فأخذوا يسيرون على غرارهم ويختطون لأنفسهم في علاج مسائل الدلالة خططا جديدة أدنى إلى الكمال وأقرب إلى مناهج البحث العلى . فأهملوا كل الطرق التى يسيطر عليها النظر الفلسفى ولا تودى إلى نتائج يقينية ، واستخدموا ، زيادة عن طريقة الملاحظة التى كان يقتصر عليها كثير من القدامى ، طرقا حديثة أخرى كطريقة التجارب وقياس الغابر على الحاضر والموازنة والاستنباط (٣) ، واتخذوا في جميع هذه الطرق من وسائل الحيلة ما يكفل عصمتها من الزلل ويبعد بها عن مظان الانحراف . فأتيح بذلك لمناهج البحث السيمنتيكي ما أتيح لمناهج البحث الفونيتيكي من وسائل الرقى والتهديب .

وكما ارتقت طريقة الدراسة في هذه الشعبة ، اتسعت مادتها وكثر إنتاجها ؛ وكان ذلك بفضل بحوث « الديالكتولوجيا » (دراسة اللهجات العامية) وبحوث

(١) انظر كذلك ما كتبه في الجزء الثانى من كتاب علم النفس Traité de Psychologie

Par Dumas et collaborateurs

(٢) انظر صفحات ٥٢ — ٥٦ .

(٣) انظر صفحات ٤١ — ٤٧ .

« علم النفس اللغوي ». فقد قدمت « الديالكتولوجيا » مادة وفيرة لعلماء السيميوتيك وكشفت لهم عن آفاق واسعة كانت مجهولة من قبل ، وحلت لهم كثيراً من المشكلات التي استعصى حلها على القدامى منهم . وقد تبين لهم على ضوء « علم النفس اللغوي » أن أهم العوامل التي تتأثر بها اللغة من ناحية الدلالة ترجع إلى أمور نفسية ، وأن كشف القوانين الخاضعة لها ظواهر شعبتهم يتوقف على الإلمام بمختلف العلاقات التي تربط الظواهر اللغوية بظواهر علم النفس ؛ فاتجهوا إلى هذا العلم يستمدون منه المعونة من جهة ويعملون على تهذيبه وتكاملته وربط مسأله ببحوث شعبتهم من جهة أخرى ، فأفاد من جهودهم أيما فائدة ، وأصابت شعبتهم بفضلها حظاً كبيراً من النهوض والكمال .

هذا ، ومن أظهر علماء السيميوتيك أثراً في هذه النهضة من الإنجليز العلامة « وتني » Withney^(١) ومن الفرنسيين « دارمستيتير » Arsène Darmesteter^(٢) ، و « بريال » Michel Bréal^(٣) ، وألبير دوزا Albert Dauzat^(٤) ، ومن الإيطاليين « كروس » Croce ومن الألمان فونت Wundt و ثام Thumb ومارب Marbe .

٥ — وأما « علم الاجتماع اللغوي » Sociologie Linguistique فقد تضافر على النهوض به « أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية Ecoles Sociologique Française التي أنشأها العلامة دوركايم Durkheim في أوائل القرن الحاضر^(٥) ،

(١) من أشهر مؤلفاته : « حياة اللغة » (ظهر عام ١٨٧٥) و « اللغة ودراساتها » (ظهر سنة ١٨٦٧) .

(٢) من أشهر مؤلفاته : (حياة الكلمات) La Vie des mots

(٣) سبقت الإشارة إلى العلامة بريال وكتبه ومذهبه في السيميوتيك بآخر صفحة ٥٣ وأول ٥٤ .

(٤) سبقت الإشارة إلى العلامة دوزا في صفحة ٥٧ وتعليقها ، ومن أشهر مؤلفاته التي عرض فيها للسيميوتيك كتاباه : (فلسفة اللغة) و (حياة اللغة) .

(٥) من أشهر أعضاء هذه المدرسة الأساتذة ليفي برون Levy Bruhl وموسس Mauss

وبوجليه Bouglé وفوكونيه Fauconnet (أستاذ الاجتماع بالسربون سابقاً) وهلفاكس

Halbwachs ودافي Davy . — وقد كان لي شرف التلمذة على الأربعة الأول من هؤلاء بجامعة

السربون وبالكوليج دو فرانس وشرف الاشتراك مع المرحوم فوكونيه في طائفة من البحوث

الاجتماعية ، وبعض مؤلفاتي باللغة الفرنسية مصدر بمقدمة منه .

وطائفة من أئمة علماء اللغة انضمت إلى هذه المدرسة واعتنقت مذهبها؛ ومن أشهرهم
الأساتذة دوسوسور De Saussure ومييه Meillet وفندريس Vendryes .
وترمى هذه البحوث كما تقدم (١) إلى بيان العلاقة بين اللغة والحياة
الاجتماعية وأثر المجتمع ومدنيته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته في مختلف
الظواهر اللغوية .
وإلى هذه الشعبة تحتاج جميع الشعب الأخرى من علم اللغة . وذلك أن نشأة
اللغة الإنسانية والأدوار التي اجتازتها ، وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى
وفقر ، وقوة وضعف ، وسعة وضيق ، وانقسامها إلى فنون وإلى لهجات ، وما تقوم
به من صراع مع غيرها ، وما ينجم عن هذا الصراع ، والتطورات التي تحدث في
أصواتها ومعانيها وأسايلها وقواعدها . . . كل أولئك وما إليه ترجع أهم عوامله
إلى ظواهر اجتماعية . — فموضوعات البحوث التي نحن بصددتها تمتزج بجميع فروع
علم اللغة وتفسر ظواهرها .

غير أن علماء الاجتماع الذين أشرنا إليهم ومن نهج نهجهم قد أخذوا على قدامى
الباحثين من علماء اللغة وعلى أعضاء مدرسة « المحدثين من علماء القواعد » (٢)
تقصيرهم في بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، وانحرافهم
أحياناً عن جادة الصواب في هذه السبيل ، وتفسيرهم لكثير من ظواهر اللغة ،
وخاصة الظواهر الصوتية ، تفسيراً خاطئاً يبعدها عن المجتمع وشئونه . فعملوا
على سد هذا النقص وإصلاح هذه الأخطاء فأنشئوا فرعاً خاصاً سموه « علم الاجتماع
اللغوي » أو « السوسولوجيا اللغوية » ، Sociologie Linguistique توفروا فيه
على كشف العلاقات التي تربط بين الظواهر اللغوية ومختلف الظواهر الاجتماعية ،
فنهضوا بالدراسات اللغوية نهضة مشكورة . وقد زادهم قوة انضمام عدد كبير من
أئمة علماء اللغة إليهم « كفيرديناند دوسوسور ، Ferdinand De Saussure

(١) انظر صفحة ١٠ (رقم ٦) و صفحة ١١ .

(٢) انظر الفقرة الأخيرة من صفحة ٥٢ ونوابها .

الذي وقف قسطاً كبيراً من جهوده العلمية على هـذـه البحوث^(١) ، والأستاذ فنـدريس « Vendryes » الذي نشر رسائل قيمة في هذا الفرع بكثير من المجلات العلمية وعرج في مؤلفاته على كثير من مسائله^(٢) ، والعلامة « ميهيه » Meillet الذي تعد مؤلفاته من أهم مراجع علم اللغة في العصر الحاضر ومن أوسعها نطاقاً وأدقها بحثاً^(٣) . — وقد جرت العادة أن يطلق على هذه الطائفة من اللغويين اسم « علماء اللغة المحدثين » Néo Linguistes .

وقد أوغل بعض أفراد هذه الطائفة في الانتصار لنظريتهم حتى كاد ينكر أن لغير العوامل الاجتماعية أثراً في شؤون اللغة ، فانبرى للرد عليهم طائفة من الباحثين في « علم النفس اللغوي » على رأسها أستاذي المرحوم دولا كروا Delacroix^(٤) وطائفة من « علماء اللغة » على رأسها العلامة دوزا Dauzat^(٥) ؛ فعادت هذه المناقشات على علم اللغة بأحسن النتائج وأطيب الثمرات^(٦) .

(١) قد جمع تلاميذ العلامة دوسوسور بعد وفاته طائفة من بحوثه القيمة في كتاب سموه « دروس في علم اللغة » Cours de Linguistique Générale ، طبع بلوزان عام ١٩١٦ .
(٢) من أشهر مؤلفاته : « اللغة » Le Langage و « مقتطفات من بحوث ميهيه » Mélange Meillet . ومن رسائله بحث نشر بصحيفة علم النفس Journal de Psychologie عنوانه : « اللغات وصفاتها الاجتماعية ومذهب دوسوسور » .
(٣) العلامة ميهيه من تلاميذ المرحوم فرديناند دوسوسور وهو أستاذ في « الكوليج دو فرانس » ومدير « معهد الدراسات العليا » بباريس ورئيس « جمعية علم اللغة بباريس » . وهو من أكثر علماء اللغة مؤلفات وأوسعهم إنتاجاً . وقد كتب أكثر من عشرين مجلداً ضخماً و مختلف بحوث هذا العلم ، منها : « علم اللغة التاريخي وعلم اللغة العام » و « اللغات الهندية — الأوروبية » و « تاريخ اللغة اليونانية » و « الصفات العامة للغات الجرمانية » و « اللغات في أوروبا الحديثة » و « لغات العالم » (وهذا الكتاب كان بالاشتراك مع الأستاذ مرسل كوهين Marcel Cohen وآخرين) . وقد اشترك مع العلامة دوركايم Durkheim وأعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية في إصدار « التقويم الاجتماعي » Année Sociologique الذي يعد أم مجلة أوربية في علم الاجتماع في العصر الحاضر . — وللاستاذ ميهيه في معظم أجزاء هذا التقويم بحوث قيمة في علم اللغة ، من أهمها بحث ظهر في المجلد التاسع عام ١٩٠٦ ، تحت عنوان « كيف تتغير معاني الكلمات » .
(٤) انظر الفصل الثاني من الكتاب الأول من مؤلفه « اللغة والفكر » . — فقد وقف هذا الفصل جميعه على نقد نظرية دوسوسور .

(٥) انظر صفحات ١٨٢ — ١٩٥ من كتابه « فلسفة اللغة » .

(٦) سنعالج هذا الموضوع من جميع وجوهه في الفصل الرابع من الباب الثالث .

تاريخ البحوث اللغوية في الثقافة العربية

ترجع أهم البحوث اللغوية في الثقافة العربية إلى الفروع الآتية :

١ - النحو والصرف : أما النحو فكان الغرض الأساسي منه في مبدأ الأمر ضبط القواعد التي يسير عليها إعراب المفردات ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها في الحديث والكتابة ، ولتعصم الناس من اللحن الذي أخذ يتفشى منذ صدر الإسلام من جراء تطور اللغة واختلاط العرب بالعجم . ثم أخذ نطاق هذا العلم يتسع قليلاً قليلاً وأخذ علماءه يعرضون لكثير من الموضوعات المتصلة بأجزاء الجملة وترتيبها ، وأثر كل جزء منها في الآخر ، وعلاقة هذه الأجزاء ببعضها ببعض ، وطريقة ربطها ، وأنواع الجمل ، وعلاقة الجمل التي تتألف منها العبارة ببعضها ببعض ، وأقسام الكلمة ، وأنواع كل قسم منها ، ووظيفته في الدلالة . . . ، حتى شمل جميع البحوث التي يطلق الفرنجة على مثلها اسم « السنتكس التعليمي » ، أي « علم التنظيم التعليمي »^(١) . - وأما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغيير أبنيتها بتغيير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التي يطلق الفرنجة على مثلها اسم « المورفولوجيا التعليمية » ، أي « علم البنية التعليمي »^(٢) .

وقد كانت العناية في المبدأ مقصورة على البحوث النحوية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر القرن الأول الهجري . ثم أخذ العلماء يعالجون بعض مسائل الصرف استطراداً وفي خلال دراستهم لمسائل النحو . ثم أخذت مسائل الصرف تنفصل شيئاً فشيئاً عن مسائل النحو ، وتدرس على حدة ، حتى تسكون منها علم متميز . غير أن هذا العلم لم يستقل تمام الاستقلال عن النحو . فلا تزال طائفة كبيرة من مسأله ممتزجة بالنحو ؛ ولم ينفك الباحثون ، إلى عهد قريب ، ينظرون إلى الشعبتين نظرتهما إلى علم واحد ويعالجون مسائلهما في مؤلفات واحدة^(٣) .

(١) انظر صفحة ٧ (رقم ج) و صفحة ٨ .

(٢) انظر صفحة ٧ (رقم ب) .

(٣) ولكن جرت عادة معظمهم أن يفرد لكل منهما أبواباً على حدة .

ويرجع الفضل في النهوض بهاتين الشعبتين إلى عدد كبير من أعلام الباحثين
بالبصرة والكوفة وبغداد ومصر وغيرها في العصرين الأموي والعباسي ، من
أشهرهم أبو الأسود الدؤلي (واضع النحو بإرشاد الإمام علي بن أبي طالب)
وعنيسة الفيل ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن
يعسر ، وميمون الأقرن ، وعبد الله بن اسحق الحضرمي ، والأخفش
الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء (وجميع هؤلاء من قدامى الباحثين من البصريين ،
ولم يصلنا شيء يعتد به من مؤلفاتهم) - وعيسى بن عمر الثقفي (وكان على رأس
جماعة يرجع إليها الفضل في نقل هذا العلم إلى الكوفة ، ويقال إنه ألف في نحو
البصريين أكثر من سبعين مجلداً منها كتابا « الجامع » و « الإكمال » ، ولكن
لم يصلنا شيء يعتد به من مؤلفاته) - وأبو جعفر الرؤاسي صاحب كتاب « الفيصل »
في نحو السكوفيين ، وأبو مسلم معاذ الهراء (وكلاهما من قدامى الباحثين من
السكوفيين) - والخليل بن أحمد الذي يرجع إلى جهوده الجبارة ومؤلفاته الجليلة
وعبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل في النهوض بهاتين الشعبتين وغيرهما من
شعب البحوث اللسانية - وأعضاء مدرسة المحدثين من البصريين الذين كان على
رأسهم سيديويه (أشهر أئمة النحو وصاحب « السكتاب » ، الذي صار إماما لكل
الباحثين من بعده) ، ثم الأخفش الأوسط (شارح « كتاب سيديويه ») ، ثم أبو علي
الفارسي وأبو القاسم الزجاج (وقد كتب كلاهما كتباً مختصرة للمتعلمين يحذو
فيها حذو سيديويه) ، ثم المازني والسجستاني ، ثم المبرد - ومدرسة المحدثين من
السكوفيين الذين كان على رأسهم السكسائي ، ثم الفراء (صاحب كتاب الحدود) ،
ثم ابن السكيت وابن سلام ، ثم ثعلب (وقد حدث بين هذه المدرسة ومدرسة
المحدثين من البصريين خلاف في طائفة كبيرة من المسائل وفي إعراب كثير من
آي القرآن ، ونشأت بينهما مساجلات طريفة فاضت بها كتب الأخبار) -
وابن خالويه (صاحب « كتاب ليس » و « رسالة في إعراب ثلاثين سورة من
القرآن ») ، وابن جنى (صاحب كتب « سر الصناعة » في النحو و « شرح

تصريف المازني ، و « اللبع » في النحو و « المحتسب » في إعراب الشواذ ، و « علل التثنية » . . . وغيرها) — وجماعة المتأخرين الذين جاءوا بمذهبهم في الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم ، فوضعوا أهم كتب النحو والصرف وأكملها وأدقها وأكثرها تهذيباً وتنقيحاً ، ومن أشهرهم الزمخشري (صاحب « المفصل » في النحو) ، وابن الحاجب (صاحب « الكافية » و « الشافية » في النحو والصرف) ، وابن معطي (صاحب ألفية في النحو) ، وابن مالك (صاحب كتاب « التسهيل » و « الألفية » الشهيرة) ، وعز الدين الزنجاني (صاحب كتاب « تصريف العزى ») ، والسكاكي (صاحب كتاب « مفتاح العلوم » في النحو والصرف والبلاغة والعروض) ، وابن هشام (صاحب كتاب « القطر » و « التوضيح » و « الشذور » و « المغنى » . . . وغيرها ، وهو أكثر المتأخرين مؤلفات وأدقهم بحثاً^(١) .

٢ — علوم البلاغة ، التي تشمل ثلاثة بحوث : المعاني وموضوعه بيان ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب العربي لي مطابق مقتضى الحال وليعبر عن المراد أبلغ تعبير ، والبيان وموضوعه شرح المناهج التي يسلكها الأسلوب العربي في استخدام التشبيه والمجاز والسكناية ؛ والبديع وموضوعه دراسة المحسنات المعنوية واللفظية التي يحتملها الأسلوب العربي . — فموضوعات البحوث الثلاثة ترجع إلى ما يسميه المحدثون من علماء الفرنجة « الستيليبستيك التعليمي^(٢) » ، أي « علم الأسلوب التعليمي » .

وقد كتب المتقدمون بعض بحوث في هذه العلوم . فمن ذلك « مجاز القرآن »

(١) وقد شهد بذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته إذ يقول بصدد كتابه المغنى : « استوفى فيه أحكام الإعراب بحملة ومفصلة وتكلم عن الحروف والمفردات والجل وحذف ما في الصناعة من المشكر في أكثر أبوابها ، وأشار إلى نسكت إعراب القرآن كلها . . . فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلمه قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها . . . وقوة ماسكته وإطلاعه » .
(٢) أنظر صفحتي ٨ (رقم د) و ٩ .

لأبي عبيدة ، و « إعجاز القرآن » ، للجاحظ و « البديع » لابن المعتز ^(١) . وبعض آراء للبرد في الأغراض البلاغية لتوكيد الكلام ، وبعض بحوث لقدامة بن جعفر عقب بها على بديع ابن المعتز وحاول فيها تكلمته . - ولكن أول من تصدى لاستيعاب هذه البحوث الثلاثة في مؤلف مستقل هو أبو هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » . ثم جاء من بعده عبد القاهر الجرجاني فيز بحوث المعاني من بحوث البيان ، ورد مسائل كل منهما إلى قواعد مضبوطة سهلة المأخذ ؛ فكان بذلك المنشئ الحقيقي لذين العليين ^(٢) . ثم خلف من بعده خلف من الأعاجم كتبوا في هذه العلوم بأساليب ركيكة فلسفية أساءت إلى البلاغة أكثر مما أحسنت إليها . ومن هؤلاء السكاكي الذي وقف قسماً كبيراً من كتابه « مفتاح العلوم » على المعاني والبيان البديع ؛ والخطيب القزويني الذي لخص هذا القسم في كتابه « تلخيص المفتاح » .

٣ - علوم القراءات - وموضوعها بيان الوجوه التي قرئت بها أي الذكر الحكيم . وقد ظلت موضوعات هذه البحوث يأخذها الناس عن القراء عن طريق التلقين ، حتى جاء العصر العباسي ، فعكف العلماء على تدوينها ، وضبط قواعدها ، ونقد أسانيدها ، فقطعوا بها شوطاً كبيراً في سبيل الكمال . - وأهمية هذه البحوث من الناحية اللغوية ترجع إلى الأمرين الآتين :

(أولاً) أنها تقفنا على كثير من نواحي اللهجات العربية في صدر الإسلام . وذلك أن اختلاف القراءات يرجع أهم أسبابه إلى اختلاف العرب في لهجاتها ، وإلى أن القرآن لم يأت كله بلغة قريش بل جاء فيه كثير من المفردات والتراكيب بلغة غيرها . وإلى أن الرسول عليه السلام كان يقرؤه لكل قبيلة بالطريقة التي تتفق مع لهجتها .

(١) جمع ابن المعتز نحو سبعة عشر نوعاً من المحسنات سماها البديع . ولم تكن جميعها في الواقع ، من المحسنات البديعية ، بل كان من بينها بعض مسائل البيان كلاستعارة والسكنائية .

(٢) كتب عبد القاهر كتابه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » وقد وقف معظم فصول الأول على المعاني ومعظم فصول الثاني على البيان .

(ثانياً) أن معظم المؤلفات في القراءات قد اشتملت على بحوث دقيقة قيمة في أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ومخارجها ، والمد وأحكامه ومدته والغن وضروبه، وتأثر أصوات الكلمة أو الكلمات المتجاورة بعضها ببعض... وما إلى ذلك من مسائل « الفونيتيك »^(١) الخاصة باللغة العربية^(٢) .

٤ — أدب اللغة وتاريخ الأدب والنقد الأدبي . — نهضت هذه الفروع نهضة كبيرة في العصر العباسي ؛ ولم تنفك ، منذ ذلك العهد إلى الآن ، موضع عناية الباحثين من العرب وغيرهم ، حتى أصبحت المكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم في هذه الناحية ، وأصبحت مراجع هذه الفروع من أكبر المراجع عدداً ، وأوسعها نطاقاً ، وأجلها قيمة^(٣) .

٥ — متن اللغة — وتنقسم مؤلفاته ثلاثة أقسام : —

(١) معجمات ترمى إلى شرح المفردات ، فترتب السكيات ترتيباً خاصاً ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع إليها في موطنها . وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد . فقد وضع كتابه « العين » ، ورتب كلماته حسب ترتيبها في مخارج أول حروفها ، مبتدئاً بأقصى الحلق (ولذلك بدأه بحرف العين الذي سمي الكتاب باسمه) ومنتهياً بالشفيتين . غير أنه يظهر أن المنون قد عاجلته قبل إتمامه ، فأكمله جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن . وظهر بعد ذلك معجم « الجهرة » لابن دريد ؛ وقد جمع مواده من كتاب العين ومن كتب أخرى للاصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، ورتب مفرداته حسب ترتيب حروف الهجاء من الهمزة إلى الياء . وألف أبو منصور محمد بن أحمد معجمه « التهذيب » على ترتيب الخليل لسكتابه العين في عشرة مجلدات . وألف

(١) أنظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٦ (رقم ٣) .

(٢) أنظر تفصيل الكلام في موضوع القراءات بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية ص ٩٤ .

(٣) لضعف العلاقة التي تربط هذه البحوث بموضوعنا لم نركب حاجة للكلام عن تاريخها

وأشهر المؤلفين فيها كما فعلنا في الفروع السابقة .

الصاحب بن عباد معجمه « المحيط » في سبعة مجلدات ، واحمد بن فارس « المجمل »
والجوهرى « الصحاح » الذى جمع فيه أربعين ألف مادة ، والفيروزابادى
« القاموس المحيط » ، والزحشرى « أساس البلاغة » ، والصغاني « تكلمة الصحاح »
و « العباب » ثم جمعهما في كتاب واحد سماه « مجمع البحرين » : وابن منظور المصرى
« لسان العرب » الذى ضمنه معظم ما كتب قبله في هذا الباب ، والمقرى « المصباح
المتبر » ، والرازى « مختار الصحاح » الذى اختصر فيه صحاح الجوهرى . . . وغير
ذلك كثير (١) .

وهذا النوع من المعجمات قليل الفائدة للباحث في علم اللغة . وذلك أن
مؤلفيها قد وجهوا كل عنايتهم إلى ذكر معانى الكلمات والاستشهاد عليها أحياناً
بالقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب ، ولكنهم أغفلوا إغفالا تاماً تعقب
معانى كل كلمة في مراحل حياتها ، وشرح تطورها في مختلف العصور ، وبيان
الأصول التى انحدرت منها ، . . . وما إلى ذلك من مسائل « الليكسيكولوجيا »
و « الإيتيمولوجيا » (٢) التى تشغل الآن أكبر حيز فى المعجمات الأفرنجية الحديثة ،
وتهم كثيراً طوائف الباحثين فى علم اللغة . هذا إلى أن معظم هذه المعجمات العربية
لم يتبع نظاماً معيناً فى ترتيب معانى الكلمة ، فخلط بين الحقيقى منها والمجازى ،
والقديم والحديث ، كما خلط بين المعانى فى مختلف لهجات العرب ، فأصبح البحث
فيها شاقاً ، وجاءت مضللة فى مواطن كثيرة (٣) .

(ب) معجمات ترمى إلى بيان المفردات الموضوعات لمختلف المعانى . فترتب

(١) أنظر تفصيل الكلام فى هذا النوع من المعجمات بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية
صفحات ١٩٠ — ١٩٩ .

(٢) أنظر صفحة ٧ (رقم ١) و صفحة ٩ (رقم ٥) .

(٣) يستثنى من ذلك بعض معجمات قديمة حرصت نوعاً ما على التفرقة بين الحقيقة والمجاز (أساس
الزحشرى مثلاً) وبعض معجمات حديثة سارت من بعض الوجوه على غرار المعجمات الأوروبية فى
تنظيم الكلمات وترتيب معانيها . . . وما إلى ذلك . ومن هذه الطائفة « محيط المحيط » لبطرس
البيستاني ، و « أقرب الموارد » لالشرتونى ، و « البستان » لعبد الله البيستاني .

المعاني بطريقة خاصة وتذكر الألفاظ التي تقال للتعبير عن كل معنى منها . فتجد أبوابها مرتبة على مثل هذا الوضع : خلق الإنسان ، الحمل والولادة ، الرضاع والقطام ، الغذاء السبيء للولد ، أسنان الأولاد وتسميتها في المراحل المختلفة ، شخص الإنسان وقامته وصورته ، صفات الرأس ، قلة الشعر وتفرقه في الرأس ... وهلم جرا ، وتذكر في كل باب المفردات التي تعبر عن موضوعه ، مرتبة ترتيباً خاصاً ، ومبينة مدلولاتها ومواطن استعمال كل منها .

فالقسم الأول من المعجمات يحتاج إليه من يعرف اللفظ ويرغب في الوقوف على معناه ؛ على حين أن هذا القسم يحتاج إليه من يعرف المعنى ويرغب في الوقوف على الألفاظ الموضوعه له .

ومن أشهر ما ألف من معجمات هذا القسم خمسة كتب : أولها كتاب الألفاظ ، لابن السكيت وهو أقدم ما ألف من هذا النوع (١) ، وثانيها الألفاظ السكتانية ، للمزداني (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) ؛ وثالثها مبادئ اللغة ، للأسكافي (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ؛ ورابعها « فقه اللغة » للشعالبي في مجلد واحد صغير (٢) ؛ وخامسها « المخصص » لابن سيده (٣) في سبعة عشر جزءاً . وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقاً ، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث .

(١) هو العلامة أبو يوسف يعقوب بن اسحق السكيت ، توفى عام ٢٤٣ أو ٢٤٦ هـ في خلافة المتوكل . — وقد راجع « كتاب الألفاظ » ونقحه وشرح شواهده وكملها وعلق عليه الخطيب التبريزي شارح ديوان الحماسة ، وضمن هذا كله كتاباً سماه « كنز الحفاظ في تهذيب الألفاظ » أي في تهذيب « كتاب الألفاظ » لابن السكيت ، وقد عثر بمكتبة ليدن على نسخة خطية من هذا الكتاب الأخير ، فأشرف علي طبعها بالمطبعة السكائوليكية ببيروت جماعة من الآباء اليسوعيين على رأسهم الأب لويس شيخو ، بعد أن أضافوا إليها كثيراً من التعليقات اللغوية الهامة وذيلوها بشروح وإصلاحات وفوائد وفهارس كبيرة القيمة .

(٢) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ولد في نيسابور عام ٣٥٠ هـ وتوفى عام ٤٢٩ هـ وله مؤلفات كثيرة قيمة في مختلف فروع العلوم اللسانية . — وفي تسمية كتابه هذا ب« فقه اللغة » شيء كثير من التجوز ، وذلك أنه ليس فيه ما يصح تسميته ب« فقه اللغة » بالمعنى الذي شرحناه في الفقرة الأولى من كتابنا الا نحو خمس عشرة صفحة (الباب التاسع والعشرون) ، أما ما عدا ذلك فمن لغة مرتب حسب فصول المعاني .

(٣) هو أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي المتوفى عام ٤٥٨ هـ .

وقد تناول كلا الكتائين الأخيرين ، في أثناء دراسته لمسائله الأساسية ، بعض بحوث من فصيلة أخرى سنعرض لها عند كلامنا عن بحوث فقه اللغة (١) .
(ح) رسائل في طوائف خاصة من الألفاظ أو المعاني : ككتاب أبي حنيفة في الأنواء والنبات ؛ وكتب يعقوب في النبات والأصوات والفرق ؛ وكتب أبي حاتم في الأزمنة والحشرات والطيور ؛ وكتب الأصمعي في السلاح والإبل والخيل وكتب أبي زيد في المطر ، واللبن ، واللبن ، والغرائز والجرائم (٢) ؛ وشرح غريب الحديث للجزري ؛ وكتاب الأضداد في اللغة للأنباري (٣) ؛ وكتاب نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد (٤) . ومن هذا النوع كذلك المعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها ، ككشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، والتعريفات للجزجاني ، والكليات لأبي البقاء . . . وهلم جرا (٥) .

وهذا النوع من المعجمات كان أسبق في الظهور من النوعين السابقين . فقد ظهر بعض كتب منه في صدر العصر العباسي .

٦ — بحوث في « فقه اللغة العربية » ، وبعض مسائل من « علم اللغة العام » (٦) :
فن ذلك دراسة الأصمعي للاشتقاق في اللغة العربية ؛
ومعظم البحوث التي ضمنها ابن فارس (٧) كتابه « الصحاح » : في فقه اللغة وسنن

-
- (١) انظر من آخر هذه الصفحة إلى صفحة ٧٣ .
(٢) ذكر هذه الكتب صاحب المخصص من بين الكتب التي رجع إليها في مؤلفه (انظر الجزء الأول من المخصص صفحتي ١١ ، ١٢) .
(٣) هو محمد بن القاسم محمد بن بشار الأنباري ، جمع في كتابه هذا طائفة كبيرة من الألفاظ التي يطلق كل منها على المعنى وضده وشرحها شرحاً وافياً مستشهداً بما ورد بصدها في كلام العرب شعره ونثره .
(٤) كتاب حديث للشيخ ابراهيم اليازجي البناني ، ضمنه طائفة من الألفاظ المترادفة في مختلف الشؤون وطبع بمطبعة المعارف عام ١٩٠٤ .
(٥) انظر أمثلة أخرى من هذا النوع من المعجمات في كتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية صفحتي ١٨٨ ، ١٨٩ .
(٦) انظر المعنى الذي نقصده من « فقه اللغة العربية » و « علم اللغة العام » بصفحتي ١٤٦٣ .
(٧) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني ، من أشهر أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري .

العرب في كلامها ، : كبحثه في نشأة اللغة العربية (١) ، وخصائص اللسان العربي ، واختلاف لغات العرب ، ولغات العامة من العرب ، والقياس والاشتقاق في اللغة العربية ، وآثار الإسلام في اللغة العربية ، وأسماء الأشخاص وما أخذها ، والمترادف ، وحروف الهجاء العربية ، وحروف المعنى ، وسنن العرب في حقائق الكلام والمجاز والنحت والاشتراك وهلم جرا .

والبحوث التي ضمنها ابن جنى (٢) كتابه « الخصائص » ، : كبحثه في أصل اللغة وهل هي إلهام أم اصطلاح (٣) ، والقول في هذه اللغة أنى وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ، والاطراد والشذود ، ومقاييس العربية ، والألفاظ والمعاني في اللغة العربية ، وتعليل ظواهر اللغة ومدى قصد العرب هذه العليل ، والقياس في كلام العرب ، وتركب اللغات ، واختلاف اللهجات ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، والاشتقاق الأكبر ، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ، وإساس الألفاظ أشباه المعاني (٤) وهلم جرا ،

وبعض البحوث التي عرض لها ابن سيده في مقدمة كتابه المخصص كالبحث في نشأة اللغة العربية (٥) ، والتي عرض لها في الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب كالبحوث المتعلقة بالتضاد ، والترادف ، والاشتراك ، والاشتقاق ، والتعريب ،

(١) درس ابن فارس هذا الموضوع من وجهة نظر ضيقة ، فتساءل هل اللغة العربية توقيف أم اصطلاح ، وذهب الى أنها توقيف بدليل قوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها . وهو بذلك يظن أن اللغة العربية نشأت مع الانسان الأول . وجميع من عرضوا لهذا الموضوع من مؤلفي العرب لم يتجاوز بحتم هذا النطاق الساذج ما عدا ابن جنى ومن نهج نهجه كما سنذكر ذلك .

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ولد عام ٣٣٠ وتوفي عام ٣٩٢ هـ وهو من أشهر علماء النحو واللغة وأدقهم بحثاً وأكثرهم إنتاجاً .

(٣) عرض ابن جنى مختلف الآراء بهذا الصدد ومنها آراء ذهب الى مثلها كثير من علماء الفرنجة في العصور الحديثة وناقشها مناقشة متزنة حكيمة تشهد بسعة اطلاعه وقوة تفكيره .

(٤) عرض ابن جنى في الأبواب الثلاثة الأخيرة من الجزء الاول من كتابه لموضوعات هامة في فقه اللغة وهي دلالة الحروف في لفظ ما على أصل معنوي كيفما اختلف ترتيبها والعلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها .

(٥) انظر الجزء الاول صفحات ٣ - ٦ .

والمجاز ، والممدود والمقصور ، والتذكير والتأنيث ، وإبدال الحروف بعضها من بعض . . . وهلم جرا ؛

وبعض بحوث قليلة ضمنها الشعالبي كتابه « فقه اللغة » ، كالبحث فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية (أسماء فارسيتهامية وعريتهامية محكية مستعملة ؛ أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها ؛ أسماء قائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد ؛ أسماء تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي) ، مانسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية (١) ؛

والبحوث التي ضمنها أبو منصور الجواليقي (٢) كتابه « المعرب من الكلام الأعجمي » ، ودرس فيها نشأة التعريب وشروطه ، وذكر معظم الألفاظ المعربة مرتبة على حسب حروف الهجاء ؛

والبحوث القيمة التي ضمنها السيوطي (٣) كتابه « المزهر » ، كالبحث في نشأة اللغات ، والمصنوع والفصيح ، والحوشي والغرائب والشوارد والنوادر ، والمستعمل والمهمل ، وتداخل اللغات ، وتوافق اللغات ، والمعرب ، والمولد ، وخصائص اللغة ، والاشتقاق ، والمشارك ، والترادف ، والتضاد ، والحقيقة والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والإبدال ، والقلب ، والنحت ، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم ، والتصحيح والتعريف ، والأسماء والسكنى والألقاب . . . وهلم جرا ؛

والبحوث التي ضمنها شهاب الدين الخفاجي (٤) كتابه « شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل » ؛

(١) تشغل هذه البحوث نحو خمس عشرة صفحة فقط من الباب التاسع والعشرين كما سبقت

الإشارة إلى ذلك بالتعليق الثاني بصفحة ٦٩ .

(٢) من علماء القرن السادس الهجري .

(٣) جلال الدين السيوطي أسمى من أن يعرف به ، فهو من أشهر مؤلفي العرب في جميع العلوم ،

ولد عام ٨٤٩ هـ . وكتابه المزهر من أجل ما ألف في فقه اللغة العربية وهو في جزئين كبيرين .

(٤) من علماء القرن الحادي عشر الهجري .

والبحوث التي ضمنها أحمد فارس أنشدياق (١) كتابه «سر الليال في القلب والإبدال» وخاصة ما ورد فيه بصدد العلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها ، ودلالة الحروف في لفظ ما على أصل معنوي كيفما اختلف ترتيبها ، ورجع الكلمات إلى أصولها ... وما إلى ذلك .

والبحوث الحديثة التي قام بها طائفة من المستشرقين وغيرهم بهذا الصدد كبحوث اليازجي في كتابه «اللغة والعصر» ومباحث الكرملي والبحوث التي كتبها أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية في مجلة المجمع .

(١١) موضوعات هذا الكتاب

سنعالج في كتابنا هذا ثلاثة موضوعات تتمثل فيها أهم مشكلات اللغات وتنطوي دراستها على أهم ما تناوله البحوث في علم اللغة ، وهي : نشأة اللغة عند الإنسان ؛ ونشأة اللغة عند الطفل ؛ وحياة اللغة .

وسنعقد لكل موضوع منها بابا على حدة .

ولما كان ما يعتور اللغة في حياتها ، وهو موضوع الباب الثالث ، يتمثل في أمور كثيرة من أهمها : تفرع اللغة إلى لهجات ولغات ؛ ونشأة فصائل وشعب لغوية من جراء هذا التفرع ؛ وصراع اللغة مع لغة أو لغات أخرى ؛ وتطور اللغة العام ؛ وتطورها من ناحية أصواتها ؛ وتطورها من ناحية الدلالة — لذلك انقسم الباب الثالث إلى ستة فصول يعالج كل فصل منها أمراً خاصاً من هذه الأمور .

(١) من علماء القرن الثالث عشر الهجري .

الباب الأول

نشأة اللغة عند الانسان

(١) أنواع التعبير الإنساني

للتعبير الإنساني طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين رئيسين :
(القسم الأول) التعبير الطبيعي عن الانفعالات . - ويشمل جميع الأمور
الفطرية غير المقصودة التي تصحب مختلف الانفعالات السارة والآلية : كالصراخ
والضحك ، والبكاء ، وانبساط الأسارير وانقباضها ، واتساع الحدقة ، وإغماض
العينين ، واحمرار الوجه واصفراره ، ووقوف شعر الرأس ، وارتعاد الجسم ...
وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التي تبدو بشكل غير إرادي في حالات الفرح
والحزن والألم والخوف والحجل والاشمئزاز . . . وما إليها ، والتي تعبر عن قيام
حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه .

وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها إلى نوعين :
١ - تعبيرات بصرية ، أي تصل عن طريق حاسة النظر ، كالحمرة والصفرة
والرعشة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة وإغماض العين ووقوف
شعر الرأس والعدو . . . وما إلى ذلك من الظواهر الجسمية التي تصحب
مختلف الانفعالات .

٢ - تعبيرات سمعية ، أي تصل عن طريق حاسة السمع ، كالضحك والبكاء
والصراخ . . . وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات
الفرح والألم والحزن والسرور . . . وهلم جرا . ويتألف هذا النوع في الغالب من
أصوات مبهمه (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين
(حروف مد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة) .

وقد تكفلت بحوث علم النفس بدراسة هذا القسم بنوعيه ، وشرح مظاهره ،
ومنشأ كل منها ، والقوانين التي تشرف عليه ويخضع لها في مختلف نواحيه ، ووسائل
إدراكه ، وفهم ما يعبر عنه . . . وهلم جرا (١) .

(القسم الثاني) التعبير الوضعي الإرادى . - ويشمل جميع الوسائل الإرادية
التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعاني التي يود وقوف غيره عليها .
وتنقسم هذه الوسائل من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها إلى نوعين
مشبهين لنوعى القسم الأول : أحدهما التعبيرات الإرادية البصرية ؛ وثانيهما
التعبيرات الإرادية السمعية :

١ - أما التعبيرات الإرادية البصرية ، فهي التي تصل عن طريق حاسة النظر ،
وتشمل جميع الإشارات الحسية التي تستخدم بقصد الدلالة . وهي على ضربين :
(أحدهما) إشارات مساعدة ونائبة ، أى تساعد لغة الكلام وتنوب عنها في
حالات خاصة أو لضرورة ما : فمن هذه الطائفة الإشارات البحرية وهي التي
يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى (٢) ؛ ومنها إشارات الصيد
وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم
الحيوان المطارد ؛ ومنها الحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير
عما يجول بخواطرم ؛ ومنها الإشارات التي يلجأ إليها الفرد أحياناً للتعبير إذا كان
المخاطب لا يفهم لغته ؛ والتي جرت العادة في بعض الأمم الأولية أن يستخدمها
أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض (٣) ؛ ومنها الإشارات التي تستخدم

(١) أنظر مؤلفات علم النفس ، وبخاصة البحث الجليل الذي كتبه أستاذا العلامة دوما Dumas
في الجزء الأول من كتاب « علم النفس » Traité de Psychologie الطبعة الأولى صفحات
٦٠٦ - ٧٣٣ .

(٢) هذه الإشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس في مدارس البحرية .
(٣) عثر علماء التنوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا
وأستراليا ، وعند بعض العشائر الأفريقية . وقد روى الأستاذ كوهل Kohl أنه إذا التقى أحد
الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته ، مختلف عنه في لغته ، =

في بعض الشعوب في حالات الصيام الديني عن الكلام (١) ؛ ومنها الحركات التي يستعين بها في أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة (٢) ؛ ومنها الحركات التي تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعاني أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح ؛ والتي نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفى والاستحسان وما إلى ذلك ، كالإيماء بالرأس للتعبير عن القبول ، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفي ، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت ... وهلم جرا .

(وثانيهما) إشارات أصيلة عامة ، وهي التي تتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها في جميع الشئون والظروف . — وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملاً في بعض العشائر . فقد عثر في الأمم البدائية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم في تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية . ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا وبعض العشائر بأفريقيا الوسطى . ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم لغة

فإنهما يلجآن في تعبيرهما إلى لغة الإشارات التي تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دوائية . وقدمه الهنود الحمر في هذه اللغة أيما مهارة . ففي إمكان المتخاطبين أن يظلا يوماً كاملاً يتحدثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين ، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما يود قصة عليه . — انظر ليفي برون : « الوظائف العقلية في الأمم الأولية » ١٧٨ وتوابعها Levy Bruhl : Fonctions Mentales... etc.

(١) يوجد الصيام الديني عن الكلام عند كثير من الأمم البدائية وبخاصة عند سكان أستراليا وأمريكا . فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين في كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ، تبلغ أحياناً عاماً كاملاً ، صائمة عن الكلام . — وبظهر أن شيئاً من هذا كان موجوداً في ديانة اليهود ، بدليل قوله تعالى عن لسان مريم : « انى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسانياً ... فأشارت إليه ... الخ » .

(٢) لوحظ هذا في كثير من الأمم البدائية ، فقد روي عن البوشمان Boschimans (عشائر بدائية تسكن أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلاً يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التي تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته . — انظر ريبوت : « تطور المعاني العقلية » ص ٧٨ وتوابعها Ribot : Evolution des Idées ... etc .

الإشارات ، أو « الإشارات التحليلية » Gestes Analytiques (١) وقد عني بدراسته عدد كبير من علماء الإثنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولونل مولري Mallery (٢) وتيلور Taylor (٣) ورومان Romanes (٤) وليبوك Lubock (٥) وسبنسر وجيلين Spencer and Gillen (٦) ، وليفي برول Levy Bruhl (٧) ، وريبو Ribot (٨) ، والدكتور فيشر الألماني Fischer (٩) وروث Roth (١٠) . وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول : إذا التقيت بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون وواحد تمتط صهوة جواده ؛ فاني أشير إلى شخصه بيدي للدلالة على كلمة « أنت » ؛ ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ؛ ثم أبسط أصابع يدي اليمنى وسبابة يدي اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ؛ ثم أكون صورة دائرة بإصصاق نهايتي السبابتين والإبهامين إحداهما بالأخرى وأمسدي يدي إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربته وهي تسير للدلالة على « العربته » ؛ ثم أضع

-
- (١) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو Ribot (انظر كتابه : « تطور المعاني الكلية ») .
 - (٢) انظر بحثه بالانجليزية : « لغة الاشارات بين هنود أمريكا الشمالية » . وقد ظهر في تقرير مكتب التكنولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١ Sign-Language among the North American-Indians
 - (٣) انظر كتابه بالانجليزية : « تاريخ النوع الانساني في عصوره الأولى Early History of Mankind » .
 - (٤) انظر كتابه بالانجليزية : « التطور العقلي في الفصيلة الانسانية Mental Evolution In Man »
 - (٥) انظر كتابه بالانجليزية : « أصول المدنية The Origin of Civilisation »
 - (٦) انظر كتابيهما بالانجليزية : « العشائر الأصلية بأستراليا الوسطى » و « العشائر الشمالية بأستراليا الوسطى » .
 - (٧) أنظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم الأولية » صفحات ١٧٥ — ٣٠٤ .
 - (٨) أنظر كتابه بالفرنسية : « تطور المعاني الكلية » صفحات ٥٨ — ٦٤ .
 - (٩) عني الدكتور فيشر في بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر أفريقيا الوسطى ، وعند السكان الأصليين لأمريكا .
 - (١٠) أنظر كتابه بالانجليزية « دراسات اثنولوجية للسكان الأصليين بالقسم الشمالي الغربي بكنديسلندا » .

السكفين ممدودتين بجانبى الجبهة ممثلاً قرن حيوان للدلالة على « الثور » ، ثم أمد ثلاثة أصابع من يدي اليسرى وأضع يدي اليمنى تحت شفتى السفلى وأنحدر بها إلى صدرى ممثلاً اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ، ثم أمد مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبهتي بيدي من اليمين إلى الشمال ممثلاً وجهها شاحباً للدلالة على « ثلاثة أمريكيين » ، ثم أرفع إصبعاً واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطاها ممثلاً الراكب للدلالة على رجل واحد راكب حصاناً . . .

وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء هذه الحركات لا يزيد كثيراً عن الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر الأستاذ تيلور ، بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ؛ وأنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شئ بلغة دولية ؛ وأنه يمكن أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظمت وضرب أمثال وقصص حكايات ؛ وأنها فى جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم — البكم . فقد جمع السكولونل مولرى بين رجل أصم — أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات ، فأخذ الأصم — الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هذه القصة بتعايقات من عنده فلم يفهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية .

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهديب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت فى سبيل الارتقاء ، ولأصابها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقى العقلى ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء . . . وما إلى ذلك .

غير أنه مهما ينلها من التهديب فلن تخلو من مثالها الذاتية . فهى تستأثر باليد ، فتحول دون القيام بأى عمل آخر فى أثناء التعبير . ويتوقف إدراكها على النظر ،

فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا في الظلام . وهي قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعاني الكلية أو وصف المشاعر والوجدان . هذا إلى أنها عارية عن الدقة في كثير من مظاهرها وأنها تقتضى إسرافاً كبيراً في الوقت والمجهود .

٢ — وأما التعبيرات الإرادية السمعية ، فهي التي تصل عن طريق حاسة السمع . وهي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات .

وهذا النوع هو الذي تنصرف إليه كلمة واللغة ، إذا أطلقت . وهو وحده الذي يهمننا في بحثنا . وإنما ذكرنا الأنواع الأخرى لاستيفاء مظاهر التعبير من جهة ، ولأننا قد نحتاج إليها من جهة أخرى في بيان نشأة هذا النوع ، أو في ضرب الأمثال أو الموازنة ، أو مناقشة النظريات وتوضيحها .

ويمتاز هذا النوع بأربع خصائص : فهو مكتسب لافطري ؛ وهو إرادي أى يصدر عن قصد لا عن طريق آلي ؛ وهو يتمثل في أصوات مركبة ذات مقاطع تتألف منها كلمات وجمل لا في أصوات مبهمه ؛ وهو يعبر عن معان تجول في الذهن لا عن انفعالات تتلبس بها النفس أو يتلبس بها الجسم .

(٢) اختصاص الانسان باللغة ومراكزها

تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان في القسم الأول من قسمي التعبير السابق ذكرهما وهو التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، سواء في ذلك التعبير الطبيعي البصرى والتعبير الطبيعي السمعى . فانفعالات الحيوان جسميها ونفسيها ، كالجوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب... وما إلى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة . وهذه الحركات بعضها بصرى ، أى يصل عن طريق حاسة النظر : كاتساع الحدقة وضيقها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الثاب ، ووقوف الشعر ، وانتفاخ الجسم والأوداج ، والهرب ، والاختفاء وما إلى

ذلك ؛ وبعضها سمعى ، أى يتمثل فى صوت يصل عن طريق الأذن : كرهاة
الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس ، وقبعه (١) عند نفوره من شىء ، وجمجمته عند
الجوع أو الاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء
الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتضوره وتلعلعه عند جوعه ، ونباح الكلب
وضغاؤه إذا جاع ووقوقته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح
الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القرودة ، وصرصرة البازى ، وقعقة الصقر ،
وهدير الحمام ، وسجع القمري ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفخج
الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق
الضفدع ... وهلم جرا (٢) .

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان فى التعبير الإدارى
البصرى ، وهو التعبير بالإشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التى
تعيش جماعات كالنحل والنمل والقرودة والبقر والغنم والوعول وما إليها . - فقد
ثبت أن كثيراً من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحياناً بعض إشارات جسمية
للتعبير بها بشكل مقصود عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم
فى أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد
القطيع ؛ وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ؛ ويستحث المتخلفات
بأن ينطح كلا منها نطحاً خفيفاً . ويستخدم الأذكاء من الكلاب مع أفراد
فصيلتها ومع الأدميين بعض إشارات بالرأس وغيرها للتعبير بطريق إرادى عن
أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرهما على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا
لها ، أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء .. وهلم جرا .
وتستخدم كذلك فصائل القرودة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ،
الشمبزيه ، الجيبون ، الأورانج - أو تانج) وفصائل النحل والنمل بعض إشارات

(١) صوت يردده الفرس من منخره الى - لفته عند نفوره من شىء .

(٢) انظر فى هذه الأصوات وغيرها « فقه اللغة » لثعالبى صفحات ٢٠٩ - ٢١٢ طبعة بيروت .

من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kohler عن ظواهر كثيرة من هذا النوع عند فصائل القرود العليا ، منها ما يعمله الشمبزيه حينما يريد أن يرافقه آخر في طريقه ، أو يرغب أن يعطيه أحد زملائه شيئاً مما في يده ، أو يطلب نداءه عن بعد : فإنه في الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محققاً فيه ومتقدماً بعض خطوات في الطريق التي يود أن يسلكها معاً ؛ وفي الحالة الثانية يمد يده إلى زميله مد الاستجداء ؛ وفي الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن في مثل هذه المناسبة (١) . وقرر الأساتذة كيربي وسبنسر وبورميستر

وهو بير وفرانكلين Kirby, Spencer, Burmeister, Huber, Franklin أن كثيراً من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها ، بعضها مع بعض ، إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل في احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة لوبوك Lubbock بهذا الصدد بطائفة كبيرة من التجارب ، فتبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الأساتذة (٢) .

وقد نشر الأستاذ « ألن ديقو » ، في مجلة « نيتشر مجازين » ، مقالا تحت عنوان « لغة الحيوان في الغاب » يتضمن حالات كثيرة من هذا النوع . وفيما يلي بعض مقتطفات من هذا المقال الطريف (٣) :

(١) انظر كوهلر : « ذكاء الفصائل العليا من القرود » صفحة ٢٩٤ وتوابعها : Kohler Intelligence des Singes Supérieurs .

(٢) انظر ريبو : « تطور المعاني الكلية » صفحتي ٦٦ ، ٦٧ . وانظر كذلك لوبوك :

« النمل والنحل والزنا نير » : « Ants, Bees, and Wasps » . وانظر كذلك رومان « الذكاء الحيواني Animal Intelligence : Romanes » .

(٣) نقلا عن مجلة « المختار » الصادرة في شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وقد لخصت هذه المجلة المقال المشار إليه .

في أثر واحدة ، ثم لا يلبث الجمع أن يتدفع كله قاصداً ينبوع هذا الرحيق . —
وإذا أراد الخجل أن ينذر قومه بالخطر طار مسرعاً مسافة قصيرة متنقلاً
من شجرة إلى شجرة ، وهو يصفق بجناحيه تصفيقاً شديداً . — وأنثى الدببة إذا
أرادت أن يسرع إليها ولدها نازلاً من أعلى شجرة تسلقها ضربت بسكفها جذع
الشجرة . — وأنثى الظباء إذا أرادت أن تقول لحشفتها : « اتبعني » شالت
بذيلها السكت مرة واحدة حتى يرى بياضه الباطن . — ومن أعجب أساليب التفاهم
بين الحيوان هو أسلوب الحديث بين الطائر الذي يسمى « الهادي إلى العسل » ،
والحيوان المعروف باسم « أبو كعب » ، أو آكل العسل . فهذا الطائر يحب أكل
يرقات النحل حين تكون كالديد ، وآكل العسل منهوم بحب العسل . والطائر
الهادي إلى العسل لا قبل له بالتغلب على جماعات النحل الساخطة ؛ أما آكل
العسل فهو قصير الرجلين ، فلا يستطيع أن يقطع المسافات الطويلة بحثاً عن
خلايا النحل . فترى الهادي إلى العسل يطير مطوفاً في أنحاء الغابة باحثاً عن
شجرة فيها خلية نحل ؛ ثم يرتد مسرعاً إلى ذلك القابع الصابر فيحوم فوق رأسه ،
وهو يقول له بصوت رفيع عال : « شَر ، شَر » . ويدلف آكل العسل متثاقلاً
الخطو على أثر الطائر المرفرف بجناحيه . ولما كان هذا الحيوان في وقاه من جلده
السكشيف الشعر فلا يضره لسع النحل ؛ فهو يهجم على الخلية ويمزقها إرباً إرباً .
ثم يجتمع هو والطائر على المائدة الشهية . — ونحل الشجر في المناطق الاستوائية
يتكلم فينتقل كلامه من شجرة إلى شجرة ، وذلك بأن يدق دقا شديداً على لحاء
الشجر وورقه ، حتى يسمع لدقه صوت كأنه صوت إنهمار رذاذ من مطر . — أما
أسراب الفيلة فلا تسكف لحظة عن غمغمة تسمع من حديث وإشارة ؛ وهي لغة
أداتها الإشارة بالآذان والخراطيم (١) .

(١) وقد أنكر بعض العلماء وجود الاشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوانات . ومن هؤلاء
العلامة وامان Wasmann الذي يرى أن كل الاشارات الحيوانية التي يخيل الى الانسان أنها من
هذا النوع هي في الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شيء معين ، بل تقتصر على إثارة نشاطه =

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التي ذكرناها في الفقرة السابقة ، وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات ، فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر الفصائل الحيوانية .
حقاً أن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة في ظاهرها بهذا النوع من التعبير . ولكن بالتأمل في هذه الأصوات يتبين أنها عارضة عن خصائص

في ناحية يحددها العمل الذي سيتلو الإشارة . - وتابعه في هذا أستاذي العلامة دولاكروا (انظر دولاكروا « اللغة والفكر » صفحة ٧٥ وتوايعها) .

هذا ، وقد كشف بعض الباحثين أنواعاً أخرى عربية من التفام بين الحيوان .
فن ذلك ما يمكن تسميته التفام بالرائحة : « فقد ذكر علماء الحيوان أن الذئب إذا زاد طعامه عن حاجته دفن جزءاً منه في التراب وخلف هناك شيئاً من رائحته عالفاً بالمكان ، فيفهم سائر الذئاب فحوى رسالته حق الفهم . والذئب يفصح عن نفسه مرة بعد أخرى بأن يخلف رائحته حيث يريد ، فتفهمها الذئاب أجود الفهم ، كما يفهم الرحالة من الناس إذا قرأوا مذكرات كتبها رجل سبقه إلى هذه الرحلة . والذئب والثعلب ، وهي في الحقيقة من فصيلة الكلاب ، تعيش في عالم لا تعد أرضه أرضاً خشب ، بل هي أرض مفعمة بالرائحة المعبره . ويقول الأستاذ ف . بايندجك الهولندي الذي تولى التجارب الشهيرة في دراسة نفسية الكلاب : ان الكلب مشغول أبداً بمحدث لا ينقطع بينه وبين سائر الكلاب التي في ناحيته عن طريق الشم » .
(مجلة المختار ، عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٦) .

وأغرب أنواع التفام بين الحيوان هو ما يكون بغير صوت أو رائحة أو إشارة أو أية حركة أخرى . وفي هذا النوع يقول الأستاذ ألن ديفو : « وقد ذهب بعض علماء الحيوان إلى أنه ضرب من الاستشفاف « تلياني » وذهب آخرون إلى أنه ليس الا ضرباً من الحواس اللطيفة التي بلغ لطفها مبلغاً تعجز عن ادراكه حواس الانسان . وينكر آخرون ذلك كله انكاراً باناً . وأستطيع أنا أن أروي غير متعجب إلى فئة خبره تين عندي هما « سيم » و « سام » بينهما علاقة لا تنفصم من الأخوة والود ، وهما لا يختلفان أو يفترقان الا في شيء واحد : فان « سيم » يحب الخروج إلى الصيد ، أما « سام » فيحب الكسل ، فيقضي الساعات قابعا في البيت . ولكن بعد الشقة بينهما حين يفترقان لا يمنع فيما يظهر أن يظل بينهما ضرب من التفام والاتصال . فقد يخرج « سيم » أحياناً بتصيد ، فيغيب نصف يوم ، وإذا بي أرى « سام » يهب من مضجعه على مكثي يقظان فزحاً ، ويرفع أذنيه متلهفاً ، ويميل برأسه كالمنصت المصغى ، وما هو الا أن يعدو نحو الباب ، فإذا فتحت له الباب انطلق كأنه سهم مقذوف إلى الحقول تارة وإلى الغابة تارة أخرى . ولو بدا لي أن أخرج في أثره لما خاضرتي ريب فيما سوف أجده . فهذا الصياد « سيم » قدولى وجهه شطر البيت ومعه صيد صاده لساعته ، فمرف « سام » خبر صاحبه ، وان كنت لا أدري كيف عرف . قد تقول انه عجب لا يصدق ! نعم ربما كان كما تقول ! ولكن ما أكثر

اللغة في صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات .
وسنعرض فيما يلي لأهم ما يبدو عند الحيوان من هـذا القبيل ، معقبين على كل
مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .
يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف :
(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير
عن بعض شئونه : كالحممة التي يرددها الفرس بشكل إرادي عند روبة صاحبه
للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذي يلجأ إليه الهر لينبئ به عن جوعه
والنباح الذي يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل أو إرشادهم إلى أن شخصاً
يحوم حول البيت . . . وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست ، في الواقع ، من اللغة الصوتية في شيء ، وإن أشبهتها في
ظاهرها ووظيفتها . وذلك أنها أصوات مهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير
متميزة العناصر . — ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات
وتتميز عناصره بعضها من بعض . هذا إلى أنها في الأصل أصوات فطرية تصحب
الانفعالات ، وأن كل ما يعمله الحيوان حياها في هذه الحالة أن يرددها هي نفسها
بشكل إرادي للدلالة على الانفعالات نفسها التي تعبر عنها في شكلها الفطري أو
للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف . . . الخ) .

— ما تجهل مما بدور في طوايا حواس الحيوان ونفوسها حتى لترى أن أكثر العلماء علما وتجربة
لا يصر اصرار العنيد على انكار اللغة الصامتة التي يتفاهم بها حيوان الغاب ، أياً كانت طبيعة تلك
اللغة . (مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٨) . — ومن هذا النوع كذلك ما دونه
الأستاذ ألن ديفو عن الثعالب إذ يقول : « وقفت مستترا ببعض الشجر أرقب ثلاثة من صغار
الثعالب تلعب ، وأمن على باب الوجار تبعبن البصر راضية مطمئنة ، فإذا بصغير من الثلاثة يعدو
موغلا في المرج ، وكان أصغر من أن يلاج له أن يخرج وحيداً يطوف في أرجاء هذا العالم .
فاستوت الأم قائمة ، وسددت أنفها إلى الناحية التي ذهب فيها ، وبقيت على هذه الهيئة ساكنة
صامتة لا تنزحزح ، ولم يند عنها صوت يسمع ، ولكن لم ألبث قليلاً حتى رأيت الصغير عائداً
ادراجه ، قتلت بمنة ويسرة ، ثم سدد بصره إلى أمه ، فلم تحول بصرها عنه ، وإذا الصغير
يسرع إلى وجاره كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين » . (مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٥) .

وأصوات هذا شأنها لا يصبح عددا كلاما ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات (١) .

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القرودة في اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادى ، وأن أفراد القرودة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض . — وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح في الفصائل العليا من القرودة وبخاصة « الجيبون » (٢) .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء . وإن أشبهتها في ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعي عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد إرادى لهذا التعبير (٣) ، وبعضها من ظواهر التداعى الآلى (٤) أو العدوى الصوتية (٥) أو تقليد الحيوان بطريق فطرى غير إرادى لأصوات نفسه أو أصوات غيره (٦) . — هذا إلى أنها — على الرغم من من تنوعها ، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القرودة بأعضاء النطق الإنسانية — أصوات مهمة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الإنسانى في شهوره الأولى كما سنذكر ذلك في الفصل الثانى . وقد رأينا تسمية هذا النوع عند الطفل « الأصوات الوجدانية الإرادية » . — وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحيانا لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن المرور .

(٢) ولهذا الأمر وما شاكلها ذهب بعض العلماء إلى أن للقرود لغة تتألف من اثنتين وثلاثين كلمة . ويذهب الدكتور آرثر جرينهول المدير العام لحدائق الحيوان في ديترويت إلى أن الحيوانات الوحيدة التى تصدر عنها أصوات تشبه اللغة هي الشمبانزى (أنظر جريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٨ / ١٢ / ٤٨) .

(٣) أى من الأصوات التى سبق ذكرها فى الطائفة الأولى .

(٤) وذلك أن يرتبط الصوت بشيء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل غير إرادى كما ظهر هذا الشيء . وسيأتى بيان ذلك بتفصيل فى الطائفة الثالثة .

(٥) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات ، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد : يصوت الوليد منهم فيشير صوته أصوات الآخرين ويبيكى أحدهم فيبيكى لسكانه الباقون (أنظر تفصيل هذا بكتابى « فى التربية » الطبعة الثانية صفحة ٧٠ وتوابعها) .

(٦) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة .

العناصر . وقد تقدم (١) أن من أهم خصائص الكلام اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض (٢) .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالبيغاء وما إليها من الفصائل التي امتازت أعضائها بصوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهي تصدر عنه في ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية بتاتاً عن هذا القصد :

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبساً بانفعال جسمي أو نفسي . وهي في هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعي عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ، ويشيرها بشكل إلى الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارته مؤسسه على الروابط الطبيعية الفطرية التي تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل إلى أو منعكس وتلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهي حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليهما من مظاهر « التعبير الطبيعي السمعى » . وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعي السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى في صورة بسيطة مهمة ، ويبدو عند هذه الطيور أحياناً في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع . (والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت إنسان سمعه الطائر . وهي في هذه الحالة كذلك تصدر بشكل إلى عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها .

(١) أنظر صفحة ٧٩ .

(٢) أنظر في هذا الموضوع بحوث الاستاذ Pfungst الذي درس أكثر من مائتي قرد في حديقة الحيوان بيرلين ، وبحوث Bouton الذي لاحظ في أثناء خمس سنوات نمو قرد من فصيلة الجيبون ، وبحوث كوهلر الذي كتب كثيراً في القردة وبخاصة القردة العليا التي ألف فيها كتابه الشهير « ذكاء القردة العليا » ، وأنظر كذلك ما كتبه أستاذي العلامة دولا كروا بهذا الصدد في كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابعها .

وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثاني تتحرك أحيانا وحدها وتلفظ بشكل آليّ الأصوات نفسها التي يحسها الجهاز الأول : فكلما وصل صوت إلى سمعها في ظروف خاصة انبعث صدها من أفواهها (١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع البيغاء أحيانا كلمات أو أصواتا في مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الإسم كلما رأت الطفل أو رأت دميتها أو متاعا من أمتعته (٢) . وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة في شيء وإن التبست بها في بادئ النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، في الواقع ، التعبير عن أمر ما ؛ وإنما تصدر منه بشكل غير إرادي على الصورة التي تصدر فيها ظواهر « التداعي الآليّ » . فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة الشخص أو الشيء الذي تدل عليه ، يرتبط صوتها بصورة مدلوها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آليّ كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به (٣) .

هذا ، ولا يمتاز الإنسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التي تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز إصدار الألفاظ ، مركز حفظ الكلمات المسموعة . . . وهلم جرا) . فقد ثبت أن هذه المراكز لا يوجد لها نظير في مخ أى فصيلة حيوانية ، أخرى حتى الفصائل العليا من القرود نفسها .

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفي : « في التربية » الطبعة الثانية صفحتي ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) من أم الملاحظات بهذا الصدد ما دونه الدكتور ولكس عضو الجمعية الملكية بصحيفة العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ Dr. Wilks, Journal of Mental Science .
(٣) أنظر في هذا الموضوع كتابي الأستااذ رومان : « الذكاء الحيواني » و « الارتقاء العقلي للإنسان » . — وانظر بحثا بهذا الصدد للعلامة ولكس في المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ Revue Philosophique . — وانظر كذلك ما كتبه أستااذي المرحوم دولاكروا في كتابي « اللغة والفكر » ص ٧٨ .

فالببحث في نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين : أولها نشأة اللغة في الفصيلة الإنسانية ، وثانيهما نشأة مراكز اللغة في المخ الإنساني . — وسنعتقد لكل منهما فقرة خاصة ، ثم نكمل بحوث هذا الفصل بفقرة ثالثة في المراحل الأولى التي اجتازتها لغة الإنسان بعد نشأتها ، وما انتابها من تطور في هذه المراحل .

(٣) نشأة الكلام

لا شك أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى المجتمع نفسه وإلى الحياة الاجتماعية . فلولا اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار والتعبير عما يحول بالخواطر من معان ومدركات ما وجدت لغة ولا تعبير إرادي .

ولا شك كذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية : فتخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجمعية وما تقتضيه هذه الحياة من شؤون (١) .

فليست المشكلة إذن في البحث عن الأسباب التي دعت إلى نشأة اللغة ولا في البحث عن أنشأها . وإنما المشكلة في البحث عن العوامل التي دعت إلى ظهورها في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات ، والسكشاف عن الصورة الأولى التي ظهرت بها هذه الأصوات ، أي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وتوضيح الأسباب التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

وعلى ضوء هذه الحقائق سنناقش النظريات التي قيلت في نشأة اللغة ، فنرفض كل نظرية تذهب في ذلك مذهبا لا يتفق مع هذه الحقائق المقررة ، أو تغفل المشكلة الرئيسية التي نحاول حلها .

هذا ، وأهم ما قبل بهذا الصدد يرجع إلى أربع نظريات :

(١) انظر في ذلك كتابي في « اللغة والمجتمع » وخاصة صفحات ٦٤٣ .

(النظرية الأولى) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلبه النطق وأسماء الأشياء . وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت Héraclite (١) ، وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية كابن فارس في كتابه الصحاحي (٢) ، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامي Lami في كتابه « فن الكلام » L' Art de parler (٣) والفيلسوف دوبونالد De Bonald في كتابه التشريع القديم Législation primitive (٤) .

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلاً عقلياً يعتد به (٥) . أما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلاً عليهم لا لهم . فالمؤيدون لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قول الله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » . وهذا النص ، كما ترى ، ليس صريحاً كما يدعون . إذ يحتمل أن يكون معناه - كما ذكر ذلك ابن جنى في كتابه الخصائص وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين - أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ . وأما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة ، فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين إذ يقول : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان .

(١) فيلسوف اغريقي من المدرسة اليونانية ولد بإفيزيا عام ٥٧٦ ونوفى عام ٤٨٠ ق م . ونسبة هذا الرأي له ليست بيقينية .

(٢) انظر الصحاحي صفحات ٥ - ٧ . وقد مال إلى هذا الرأي كذلك ابن جنى في كتابه الخصائص انظر الجزء الأول ص ٤٥ ، وان كان قد رد في أول الفصل على ما يعتمد عليه القائلون به ذاهباً إلى أنه لا ينهض دليلاً لهم .

(٣) هو دوم فرانسوا لامي Dom François Lami ولد بمنتيرو Montireau من أعمال فرنسا سنة ١٦٣٦ ونوفى بسان ديني Saint Denis سنة ١٧١١ . وقد قام بتدريس الفلسفة في كثير من المعاهد الدينية . واليه يرجع الفضل في نشر آراء الفيلسوف ديكرت في هذه المعاهد .

(٤) انظر ترجمة دوبونالد في التعليق الثالث بصفحة ٥١ .

(٥) سبب فساد الأدلة العقلية التي ذكرها بعين المتعصبين لهذه النظرية عند مناقشتنا للنظرية الثلاثة التي لا تختلف كثيراً في جوهرها عن هذه النظرية .

فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول^(١) . وهذا النص ، كما ترى ، لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية ؛ بل يكاد يكون دليلاً عليهم . - ومهما يكن من شيء ، فلا صلة للدليل النقلى بمقام البحث العلمى . - وفضلاً عن هذا كله فإن هذه النظرية تغفل إغفالاً تاماً المشكلة الرئيسية التى تهمنى وحدها فى هذا البحث والتى حددناها تحديداً دقيقاً فى صدر هذه الفقرة . (النظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالاً . وقد ذهب إلى هذا الرأى فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى ديموكريت Démocrite (من فلاسفة القرن الخامس ق م) ، وفى العصور الوسطى كثير من الباحثين فى فقه اللغة العربية ، وفى العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث Adam Smith وريد Reid ودجلدستيوارت Dugald Stewart . وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو نقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التى تسيطر عليها النظم الاجتماعية . فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً ، بل تتسكون بالتدريج من تلقاء نفسها . - هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف فى كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون^(٢) . فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأً للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل^(٣) . - وفضلاً عن هذا كله فإن هذه النظرية تغفل المشكلة الرئيسية التى تهمنى وحدها فى هذا البحث والتى وضحناها فى صدر هذه الفقرة . فلسنا هنا بصدد نظرية جديدة بالمناقشة ، بل بصدد تخمين خيالى وفرض عقيم يحمل فى طيه آية بطلانه . وقد ذهب المتعصبون له فى تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول . وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد : « إن أصل اللغة لا بد فيه

(١) انظر الفقرتين ١٩ ، ٢٠ من الجزء الثانى من سفر التكوين .

(٢) سيأتى توضيح هذا فى النظرية الثالثة (انظر أول صفحة ٩١ ونوابها) .

(٣) انظر كذلك فى الرد على هذه النظرية ، رينان « أصل اللغة » صفحة ٧٦ ونوابها .

من المواضعة . وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل منها سمّة ولفظا يدل عليه ويغني عن إحضاره أمام البصر . وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلا على شخص ويومثوا إليه قائلين : إنسان ، إنسان ، إنسان ، فتصبح هذه الكلمة اسماله . وإن أرادوا سمّة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا يد ، عين ، رأس ، قدم ويسيرون على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء وفي الأفعال والحروف وفي المعاني الكلية والأمور المعنوية نفسها (١) . وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلا . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة « مرّد » بدل إنسان ، وكلمة « سرّ » بدل رأس وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية . . . (٢) .

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني ؛ وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعي عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء . . . الخ) كلها قامت به حالة انفعالية معينة (الغضب ، الخوف ، الحزن ، السرور . . . الخ) ؛ وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ؛ وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ؛ وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة فأخذت تنقرض شيئا فشيئا حتى تلاشت كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة . ومن أشهر

(١) لم يبين القائلون بهذه النظرية بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الأفعال والحروف والمعاني الكلية ، مع أن هذه الأمور ليس لها في الخارج مدلول حسي يشير إليه المتواضعون .

(٢) نقلا عن ابن جني بتصرف : الخصائص ، الجزء الأول ، صفحتي ٤٢ ، ٤٣ .

من ذهب هذا المذهب العلامة الألماني مكس مولر Max Muller^(١) والعلامة
الفرنسي رينان Renan^(٢).

وقد اعتمد مكس مولر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في
أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوروبية^(٣). فقد ظهر له أن مفردات هذه
اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك؛ وأن هذه الأصول تمثل اللغة
الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم
عهودها. وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية؛ وأنه لا تشابه
مطلقا بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة.

ففي دلالتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن
نتيجة تواضع وانفاق، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها.
لأن التواضع، فضلا عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الإشارة
إلى ذلك، يتوقف هو نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون. وهذه الوسيلة
لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول
ما نطق به الإنسان من هذه اللغة؛ ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة،
لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أي على أمور معنوية يتعذر استخدام
الإشارة الحسية فيها.

وفي عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع على أن اللغة
الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي
عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء، كما يذهب إلى ذلك أصحاب
النظرية الرابعة التي سنتكلم عنها قريبا.

(١) أنظر ترجمته في التعليق الأول بصفحة ٥١.

(٢) أنظر ترجمته في التعليق الرابع بصفحة ٥١.

(٣) هي إحدى الفصائل التي ترجع إليها اللغات الإنسانية كما سيأتي الكلام على ذلك بتفصيل

في الفصل الثاني من الباب الثالث.

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة توافق واتفاق ، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء ، لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره : وهو أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة^(١) .
وهذه النظرية — على ما فيها من دقة وطرافة وعمق في البحث — فاسدة من عدة وجوه :

١ — فهي لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصدد حلها بل تسكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً وهي مشكلة « الغريزة الكلامية » .

٢ — هذا إلى أن ما تقرره يعتبر — من بعض الوجوه — من قبيل تفسير الشيء بنفسه . فكل ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية : « إن الإنسان قد لفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات » . وهذا ، كما لا يخفى ، مجرد تقرير للمشكلة نفسها في صيغة أخرى .

٣ — على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث ؛ لأنه من المقرر أن الإنسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بلفظ هذا النوع من الأصوات ، بل إن هذا مشترك بين الإنسان وبعض الطيور كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . وإنما الذي يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنساني ، أي البحث عن الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

(١) Ribot : Evolution des idées Générales P. 110

(٢) Ribot, op. cit. 173, 174

(٣) Max Muller : Science du Langage 9e Leçon أنظر (١)

٤ - ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها تمثل اللغة الإنسانية الأولى . - فهذه الأصول ، كما تقدم ، تدل على معان كلية . ومن الواضح أن إدراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الإنسانية . وها هي ذى الأمم البدائية التي تعد أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما نقول . فقد أجمع علماء الإثنوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وأفريقيا وغيرها على ضعف عقلياتها بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير في لغاتها . فلا نكاد نجد في كثير منها لفظاً يدل على معنى كلى . ففي لغة الهنود الحمر مثلاً يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء . . . وهكذا ، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم^(١) . وفي لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم ، وثالث في حالة تعلقه بالزبد ، ورابع في حالة تعلقه بالموز . . . وهكذا ، ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما^(٢) .

ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmania (بقرب استراليا) لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجشوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلاً فلان كشجرة كذا ، إذا أرادوا وصفه بالطول^(٣) .

(١) أنظر Ribot : Evolution des Idées Cénérales P. 110

(٢) أنظر Ribot, op. cit, 173, 174

(٣) انظر Ribot. op. cit. 204 et suiv.

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها لا تمثل في شيء اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر؛ بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطاً كبيراً في سبيل الرقي والكمال ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها. ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن يوماً ما موضوع لغة إنسانية (١). (النظرية الرابعة) تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة، الأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت الضرب والقطع والكسر... الخ) وسارت في سبيل الرقي شيئاً فشيئاً تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان... وما إلى ذلك. — وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتني Whitney (٢). وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفي العرب بالعصور الوسطى. فقد تحدث عنه ابن جنى (المتوفى عام ٥٣٩٢هـ. أي من نحو ألف سنة) في كتابه الخصائص في أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله (٣).

فبحسب هذه النظرية، يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التي تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن والرعب... وما إليها، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجمعجة الرحي وقعقة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب... وهلم جرا. وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء

(١) هذا هو رأي الأستاذين سيس وبريال Sayce, Bréal انظر في ذلك Ribot, op. cit. 81, 82

(٢) انظر بعض مظاهر نشاطه العلمي ومؤلفاته، بصفحة ٦٠ والتعليق الأول من تعليقاتها.

(٣) انظر الجزء الأول من الخصائص صفحتي ٤٤، ٤٥: « وذهب بعضهم إلى أن أصل

اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشجيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس وتزيب الظبي، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل ».

الذي يصدر عنه الصوت المحاكي أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون .
واستخدم في هذه المحاكاة ما زود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات
مقاطع . وكانت لغته في مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع ، قريبة الشبه
بالأصوات الطبيعية التي أخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود . ولذلك
كان لا بد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويبين على ادراك ما ترمي
إليه . وقد وجد الإنسان خير مساعد لها في الإشارات اليدوية والحركات الجسمية .
وهذا المساعد الإرادي قد نشأ هو نفسه عن الحركات الفطرية التي تصحب
الانفعالات ؛ فكان في مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات ، ثم توسع
الإنسان في استخدامه فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها . . . وما إلى
ذلك ، فازدادت أهميته في الحديث ، وسد فراغاً كبيراً في اللغة الصوتية . ثم
أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير واتساع حاجات الإنسان
ومظاهر حضارته ، وتستغني شيئاً فشيئاً عن مساعدة الإشارات ، وتبعد عن
أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التي تعتور الصوت
وأعضاء النطق الإنساني وكعلاقات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات . . .
وما إلى ذلك من الأمور التي سنعرض لها بتفصيل في الباب الأخير من هذا الكتاب .

وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة وأقربها إلى المعقول ،
وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات
وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية . وهي إلى هذا وذاك تفسر المشكلة التي نحن
بصددها ، وهي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات
معينة لمسميات خاصة والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره . ولم يبق
أى دليل يقيني على خطئها . ولسكن لم يبق كذلك أى دليل يقيني على صحتها . وكل
ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها .

ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررنا بصدد اللغة الانسانية تتفق في
كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل

في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ في تعبيره الارادى إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء . . . الخ) فيحاكى الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به ؛ وثبت كذلك أنه ، في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام ، يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتى على الإشارات اليدوية والجسمية . - ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر (١) .

ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم البدائية . ففي هذه اللغات تسكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه ؛ ولتقص هذه اللغات وسذاجتها وإبهامها وعدم كفايتها للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصاً من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية في أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر إليه من عناصر وما يعوزه من دلالة (٢) . - ومن المقرر أن هذه الأمم ، لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية ، تمثل إلى حد كبير النظم الإنسانية في عهودها الأولى .

(٤) نشأة مراكز اللغة

تقدم أن الإنسان لا يمتاز عن الفصائل الحيوانية الأخرى باللغة الصوتية فحسب، بل يمتاز عنها كذلك باشتغال مخه على مراكز تشرف على مختلف مظاهر هذه

(١) يطلق على هذه النظرية اسم « نظرية هيكل Haeckel » أو « نظرية التلخيص العام » وقد تكلمنا عنها بتفصيل في كتابنا : « في التريية » الطبعة الثانية صفحة ١٥ وتوابعها . هذا ، وسندرس بتفصيل في الباب الثانى نشأة اللغة عند الطفل وتطورها ومبلغ تمثيلها لمراحل اللغة الانسانية .

(٢) انظر أول صفحة ٧٦ والتعليق الثانى من تعليقاتها .

اللغة (مركز الكلام ، مركز حفظ الأصوات ، مركز الكلمات المرئية .. الخ) (١).
وقد اختلف الباحثون اختلافا كبيرا في نشأة هذه المراكز في الفصيلة الإنسانية.
فالقائلون باستقلال النوع الإنساني في نشأته عن الأنواع الحيوانية الأخرى
يذهبون إلى أنه قد خلق مزوداً بهذه المراكز كما خلق مزوداً بخصائصه الأخرى
كاعتدال القامة وإدراك المعاني الكلية . . وما إلى ذلك . ويرون أن هذه المراكز
كانت في مبدأ الخلق ساذجة قاصرة ؛ ثم ارتقت في بعض الشعوب حتى وصلت
إلى شأو كبير في الدقة والنضج ؛ على حين أنها جمدت في شعوب أخرى فلم
تتحرز كثيراً عن الحالة الساذجة التي خلقت عليها . ويرجع الفضل في ارتقائها
إلى عوامل كثيرة منها كثرة استخداماتها في وظائفها وما تمرن عليه من عادات
مكتسبة واتساع الحضارة الإنسانية وارتقاء التفكير . . . وهلم جرا . فمراكز اللغة
شأنها في ذلك شأن أعضاء الحس وأعضاء الحركة في الجسم الإنساني : تخلق مزودة
بالقدرة على القيام بوظائفها ، وتظل قابلة للارتقاء في هذه الناحية ما أتيحت
لها الوسائل المواتية . فان لم يتح لها ذلك قصرت عن القيام بوظائفها أو جمدت
على الحالة التي كانت عليها في نشأتها الأولى .

وأما القائلون بمذهب الارتقاء وتفرع الإنسان عن غيره من الفصائل
الحيوانية ، فيرون أن الفضل في نشأة هذه المراكز عند الإنسان يرجع إلى الظروف
التي أحاطت به في مبدأ نشأته وإلى الأمور التي أوجأتها إليها مقتضيات حياته وبخاصة
ما يتصل منها بشئون دفاعه عن نفسه . وقد اختلفوا في تصوير هذه النشأة على
الرغم من اتفاقهم على الأسس السابق ذكرها . وأشهر نظرياتهم بهذا الصدد نظرية
دارون التي تتلخص في أن الإنسان كان في الأصل من الفصائل المتسلقة الأشجار ؛
ثم اضطرت ظروف قاهرة إلى العيش على الأرض حيث تعرض لإغارة الحيوانات
القوية وسطوها عليه . فاستخدم في مبدأ الأمر في مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه

(١) انظر آخر ص ٨٧ . — هذا ولا يتسع المقام للكلام عن هذه المراكز ووظائفها وطريقة
أدائها لها ، على أن هذا من بحوث علم النفس والفيزيولوجيا لا من بحوث علم اللغة .

كما كان يفعل من قبل وكما تفعل أفراد فصيلته . ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره إلى الارتقاء في أحضان عدوه فتعرض حياته للخطر . فهدته غريزة المحافظة على الحياة إلى وسيلة أخرى تدفع عنه عدوان الحيوان بدون أن تضطره إلى الاصطدام به . وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعاً من حجارة أو خشب أو معدن . . . ، أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنه أو يضربه بطرفها الآخر . وقد كان لهذا الأسلوب الجديد أثران كبيران في حياة الإنسان .

أحدهما أنه يضطره إلى الوقوف على رجلين اثنين في أثناء دفاعه عن نفسه . ومن تكرر هذه الوقفة أخذت قامته تعتدل شيئاً فشيئاً حتى استوى القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى ، وأخذت عادة المشي على أربع تضعف بالتدريج حتى انقرضت (وإن كانت تظهر في بعض مراحل الطفولة الإنسانية وفقاً لقوانين الوراثة النوعية التي تقضى بأن يجتاز الطفل في سبيله من الطفولة إلى الرجولة المراحل نفسها التي اجتازها النوع في سبيله من الحيوانية إلى الإنسانية ومن الوحشية إلى الحضارة) .

وثانيهما (وهو الذي يهمننا في موضوعنا) أن هذا الأسلوب الدفاعي قد أعفى الإنسان من استخدام فكّه وأسنانه في الدفاع عن نفسه ؛ فتعطلت هذه الأعضاء عن القيام بجزء كبير من وظيفتها ؛ ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام الصدغية التي تتحرك مع الفم ؛ وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للجمجمة فزاد حجمها عما كان عليه ؛ وبتأسيح حجم الجمجمة اتسع مجال النمو للبخ فزاد حجمه ونشأت به مراكز جديدة لم تكن به من قبل ، من أهمها مراكز اللغة التي نحن بصدد الكلام عنها .

ولتأييد هذا الأثر الأخير ، قام العلامة أنتوني Anthony بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة) . وذلك بأن استأصل جزءاً من عضلاتها وعظامها الصدغية ، وتتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية ؛ فتبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد .

وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتحري عن هذه الحقائق ، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهمننا منها الآن إلا الناحية المتعلقة بنشأة مراكز اللغة . فقد ظهر لهم بهذا الصدد أن تعطيل الفك والأسنان ، وإن نجم عنه اتساع في الجمجمة ، لا يترتب عليه مطلقاً اتساع في حجم المخ أو اختلاف في تعاريفه وشكل تكوينه . والتجربة التي قام بها أنتوني تدل هي نفسها على صحة ذلك . فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت عن أمخاخها ، بدليل أن الآثار التي تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد انمحت . فاتساع الجمجمة الناجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه لا يتبعه إذن اتساع في حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون . وكثيراً ما تتسع الجمجمة عند بعض الناس اتساعاً غير عادي لسبب آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه . ولكن لم يحدث مطلقاً في حالة من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت صورته . وعلى العكس من ذلك نمو المخ نفسه . فإنه يرغم الجمجمة على الاتساع ويشكلها بالشكل الذي يتفق مع نموه . فإن قامته ، بأن كان عظم اليافوخ ^(١) قد اشتد قبل أوانه ، تغلب على مقاومتها ، وشق لنفسه طريقاً على أي وجه : فأحياناً يدفعها إلى الأمام فينشأ الشخص بارز الجبهة ؛ وأحياناً يدفعها إلى الخلف فينشأ الشخص أحدب الرأس ؛ وأحياناً يدفعها إلى أعلى فينشأ مسنم الرأس ؛ وأحياناً يدفعها من ناحيتين أو أكثر فينشأ مدنخ الرأس ^(٢) . وهكذا . — فالطريق الطبيعي للارتقاء ، إن كان ثمة ارتقاء ، هو أن يتسع المخ أولاً وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل ويتبع ذلك اتساع في الجمجمة ، لا أن تتسع الجمجمة أولاً ويتبعها اتساع المخ كما يقول دارون ومن نحائمه . على أن الارتقائين لم يكونوا في حاجة إلى هذه الفروض التعسفية لتعليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم . فقد كان في إمكانهم أن يذهبوا إلى أن هذه المراكز لم تنشأ من العدم ، بل كانت نتيجة تطور لمراكز قديمة أو لأجزاء

(١) حيث يلتقي عظم مقدم الرأس بعظم مؤخره وهو الذي يكون لنا في الصبي .

(٢) « رجل مدنخ الرأس أي في رأسه ارتفاع وانخفاض » المحصن لابن سيده جزء أول

ص ٦٢ . والعامية تقول شخص برأسين ، أو برءوس .

من مراكز قديمة . كان في إمكانهم مثلاً أن يذهبوا إلى أن جزءاً من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه Centres des mouvements des muscles de la Face قد تخصص في حركة أعضاء النطق . ومع تقادم الزمن وكثرة مزاولته لهذه الوظيفة تشكل بالشكل الذي يتفق معها واستقل عن غيره وأخذ يسير في سبيل الارتقاء حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن . كان في إمكانهم أن يقولوا هذا بصدد مراكز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز اللغوية الأخرى ، فيتقوا معظم ما وجه إلى فروضهم السابقة من اعتراضات ، ويكون مذهبهم أدنى إلى القبول وأكثر اتفاقاً مع حقائق الأمور . وذلك أنه بالموازنة بين مخ الإنسان وأخاخ الحيوانات القريبة منه ، يظهر أن مراكزه اللغوية - على فرض أنها لم تكن موجودة في أصل خلقه - كانت نتيجة تشكيل جديد لبعض المراكز الموجودة في أخاخ هذه الحيوانات .

(٥) المراحل الأولى التي اجتارتها اللغة الانسانية

تقدم أن اللغة الإنسانية قد نشأت ناقصة ساذجة مهمة في نواحي أصواتها ومدلولاتها وقواعدها ، ثم سارت بالتدرج في سبيل الارتقاء (١) . وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في بيان المراحل التي اجتازتها في هذا السبيل .

فبعضهم نظر إلى الموضوع من الناحية الصوتية ، فحاول أن يكشف عما كانت عليه أصوات اللغة الإنسانية في مبدأ نشأتها وعن مراحل ارتقائها . - وقد ذهب معظم هؤلاء إلى أن اللغة قد سارت بهذا الصدد في ثلاث مراحل :

(المرحلة الأولى) مرحلة الصراخ Le Cri - وفي هذه المرحلة لم يسكن في أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (وهي الأصوات التي نرمر إليها بحروف اللين) ولا أصوات ساكنة (وهي الأصوات التي نرمر إليها بالحروف الساكنة) ؛

(١) أنظر صفحات ٩٥ - ٩٧ .

وإنما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ ، وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجمعجة الرحي وصوت القطع والضرب . . . وهلم جرا .

(والمرحلة الثانية) مرحلة المد Vocalisation ، وفيها ظهرت أصوات اللين في اللغة الإنسانية .

(والمرحلة الثالثة) مرحلة المقاطع Articulation ، وفيها ظهرت الأصوات الساكنة في اللغة الإنسانية (الباء ، التاء ، الثاء ... الخ) .

ويعتمد أصحاب هذه النظرية في تأييدها على أمور مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم البدائية .

أما فيما يتعلق بالطفل فقد ظهر أن أصواته تجتاز المراحل نفسها التي ذكرها أصحاب هذه النظرية . فأصواته في المبدأ يتألف معظمها من الصراخ والأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ؛ ثم تكثر لديه في المرحلة التالية أصوات المد ؛ وفي آخر مرحلة يجتازها قبل أن يظهر لديه التقليد اللغوي ، وهي المرحلة التي يسميها علماء النفس بمرحلة « التمرينات النطقية » ، تكثر في نطقه الأصوات الساكنة (١) . - وقد أشرنا فيما سبق إلى أن كثيراً من العلماء يرى أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر (٢) .

وأما فيما يتعلق بلغات الأمم البدائية فقد لوحظ في كثير منها أن الأصوات المبهمة وأصوات المد تفوق كثيراً الأصوات الساكنة في كميتها وأهميتها في

(١) سنتكلم عن هذا الموضوع بتفصيل في الباب الثاني .

(٢) انظر أول صفحة ٩٧ وتعليقها الأول .

الدلالة (١). وقد تقدم أن هذه الأمم - لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية - تمثل إلى حد كبير الأساليب الإنسانية في عهودها الأولى (٢).

وليس من بين هذه الأدلة ما يمكن عده برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية . بل إن معظم المحدثين من علماء اللغة يقطعون بفسادها . ووجهتهم في ذلك أنه لا يوجد من بين اللغات الإنسانية المعروفة - سواء في ذلك اللغات الحية والميتة ، والراقية والساذجة - لغة خالية من أصوات اللين أو من الأصوات الساكنة ، وأنه من المتعذر تصور لغة إنسانية عارية عن أحد هذين التوعين . هذا إلى أن ظهور الأصوات ذات المقاطع (الأصوات الساكنة) في لغة الإنسان لم يكن ليتوقف على ارتقاء في لغته أو على تطور صوتي أو على مراحل يجتازها في هذا السبيل كما يزعم أصحاب هذه النظرية . لأن الأصوات ذات المقاطع توجد عند كثير من فصائل الحيوانات نفسها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) .

وبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية مفردات اللغة ودلالة بعضها على معان جزئية وبعضها الآخر على معان كلية ، وحاول أن يبين أي القسمين كان أسبق ظهوراً من الآخر .

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وانقسموا إلى فريقين :
الفريق الأول - وعلى رأسه مكس مولر - يرى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بالفاظ دالة على معان كلية ، ثم انشعبت عن هذه الألفاظ الكلمات الدالة

(١) في لغات الفيجيين والهنوتوتوت وقبائل أخرى من السكان الأصليين لأمریکا الشمالية تكثر الأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة . وفي لغات السياميين والصينيين مثلاً يرى أن معظم ظواهر الدلالة تنصل بحروف المد . فكلمة « ها » مثلاً معناها البحث في لغة السياميين ، فإذا مدت ألفها قليلاً وفتح الفم في نطقها h أصبح معناها الوباء ، وإذا مدت قليلاً بدون

فتح الفم أصبح معناها خمسة V . Ribot, op. cit. p. 78 .

(٢) انظر صفحة ٩٧ .

(٣) انظر صفحة ٨٦ وتوابعها .

على المعاني الجزئية . - ودليلهم على هذا أن الأصول المشتركة التي ترجع إليها المفردات في جميع اللغات الهندية - الأوروبية ، والتي تمثل في نظرهم اللغة الإنسانية في أقدم عصورها ، تدل على معان كلية كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) .

وقد ناقشنا هذه النظرية فيما تقدم فتبين فسادها ، وظهر أن هذه الأصول لا تمثل اللغة الإنسانية في عهدها الأولى ، وأنها بقايا من لغة راقية لم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن اجتازت في حياتها اللغوية مراحل طويلة ، وأن بعض الباحثين يذهب إلى أبعد من هذا فيقرر أننا بصدد أصول نظرية لم تسكن يوماً ما لغة كلام (٢) .

والفريق الثاني يرى أن اللغة الإنسانية بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية . - وهذا الرأي أدنى إلى الصحة ، وأقرب إلى المعقول . وتؤيده حالة اللغة عند الطفل وعند الأمم البدائية كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) .

وبعضهم يبحث في هذا التطور من ناحية ثلاثة قريبة من بعض الوجوه من الناحية السابقة ، فيتسامل عن المراحل التي ظهر فيها كل من الاسم والصفة والفعل والحرف في الكلام الإنساني . وأشهر نظرية بهذا الصدد هي نظرية العلامة ريبوت التي تقرر أن الصفة هي أول ما ظهر في اللغة الإنسانية ، ثم تلتها أسماء المعاني وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال (وبظهور الأفعال دخلت اللغة الإنسانية في أهم مرحلة من مراحل رقيها ؛ فلا يخفى أهمية الأفعال في الحديث وكثرة وظائفها في الدلالة) ، ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٤) .

وقد اعتمد في تأييد نظريته هذه على أدلة كثيرة بعضها يرجع إلى لغة الطفل ولغات الأمم البدائية ، وبعضها يرجع إلى بحوث إيتيمولوجية (دراسة أصول

(١) انظر أول صفحة ٩٢ .

(٢) انظر صفحتي ٩٤ ، ٩٥ . Ribot. op. cit. p. 78 .

(٣) انظر صفحتي ٩٤ ، ٩٥ .

(٤) انظر Ribot. op. cit, 88-96 .

الكلمات) أو نفسية . فمن ذلك أن الأصول الهندية الأوربية التي كشفها مكس مولر، يتألف معظمها من كلمات دالة على صفات ، وفي هذا دليل على أن الصفات كانت أسبق الكلمات ظهوراً في اللغة الإنسانية ، - وأن معظم أسماء المعاني وأسماء الذوات مشتقة في كثير من اللغات من كلمات دالة على صفات (grand, grandeur; free, freedom . . . etc) ، وفي هذا دليل على أن الأسماء لم تظهر في اللغة الإنسانية إلا بعد ظهور الصفات ، - وأن معظم الأفعال في اللغات الهندية الأوربية مأخوذة من كلمات دالة على صفات أو أسماء مضاف إليها بعض أصوات من ضمائر ، وفي هذا دليل على أن الأفعال قد ظهرت بعد ظهور الصفات والأسماء ، - وأن كثيراً من لغات الأمم البدائية مجردة من الحروف (١) ، وأن لغة الطفل لا تظهر فيها الحروف إلا في آخر مرحلة من مراحلها ، ففي المراحل الأولى ينطق الطفل بأجزاء الجملة عارية عن الحروف وعن علامات الربط (٢) ، وفي خلو اللغات البدائية ولغة الطفل في مراحلها الأولى من الكلمات الدالة على الحروف دليل على أنها كانت آخر ما ظهر في اللغات الإنسانية .

وليس من بين هذه الأدلة ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية ، بل إنها ظاهرة الخطأ في بعض نواحيها ، وخاصة إذ تقرر أن الصفات كانت أسبق ظهوراً في اللغة الإنسانية من أسماء الذوات . ففي هذه الناحية يوجه إليها المأخذ نفسها التي وجهناها إلى نظرية مكس مولر (٣) .

وبعضهم يبحث في هذا التطور من ناحية رابعة تتعلق بقواعد الصرف والتنظيم (المورفولوجيا والسنتكس (٤) .

وأشهر نظرية بهذا الصدد هي النظرية التي قال بها العلامة شليجل Schlegel

(١) سيأتي الكلام عن ذلك في اللغات غير المتصرفية (انظر آخر صفحة ١٠٧ و صفحة ١٠٨) .

(٢) سيأتي الكلام على ذلك بتفصيل في الباب الثاني .

(٣) انظر صفحتي ٤٤ ، ٩٥ .

(٤) انظر صفحتي ٧ ، ٨ .

وتابعة فيها جمهرة كبيرة من علماء اللغة . وهي تقسم اللغات الإنسانية من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) « اللغات المتصرفة » Flexionnelles, ou à Flexion
أو التحليلية Analytiques . - ويمتاز هذا القسم من ناحية « المورفولوجيا »
بأن كلماته تتغير معانيها بتغير أبنيتها ، ومن ناحية « السنتكس » ، بأن أجزاء الجملة
يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة ^(١) تدل على مختلف العلاقات . - وذلك كاللغة
العربية . فإن كلماتها تتغير معانيها بتغير بنيتها : فتقول علم للدلالة على المصدر ،
وعلم للدلالة على الفعل في الماضي وعلم للدلالة على تعدى الفعل ، واعلم للدلالة
على الأمر ، والعلوم للدلالة على جمع العلم ، والمعلوم للدلالة على ما وقع عليه العلم ،
والعلامة للدلالة على وسيلة العلم ... وهلم جرا . هذا من ناحية الصرف . وأما من
ناحية التنظيم فإن عناصر جملها يتصل بعضها ببعض عن طريق روابط مستقلة تشير
إلى مختلف العلاقات : فتقول مثلاً ذهب محمد وعلى من المنزل إلى الجامعة ، فتأتي
بواو قصيرة ونون زائدتين بعد دال محمد للدلالة على أنه أحدث الحدث ،
وتأتي بالواو العاطفة بين محمد وعلى للدلالة على عطف عنصر من عناصر
الجملة على آخر ، وبمن للدلالة على الابتداء ، ويالى للدلالة على الانتهاء . - وما قيل
في اللغة العربية يقال مثله في بقية اللغات السامية وفي اللغات الهندية - الأوروبية .
وسميت هذه الطائفة من اللغات « بالمتصرفة » لتغير أبنيتها بتغير المعاني ؛
و « بالتحليلية » لما تتخذة حيال الجملة من تحليل أجزائها وربطها ببعض
بروابط تدل على العلاقات .

(القسم الثاني) اللغات (اللصقية) أو « الوصلية » Agglutinantes, ou,
Agglomérantes, ou, Syntétiques . - ويمتاز هذا القسم من ناحية
المورفولوجيا والسنتكس بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بما عداه من أجزاء الجملة

(١) نقصد باستقلال الروابط زيادتها عن أصوات الكلمة . فالواو القصيرة (الضمة) والنون
الساكنة الملحقان بكلمة « محمد » في جاء محمد « محمدن » تعتبران من الروابط المستقلة . وهما تشيران
في هذا التركيب إلى أن مدلول محمد هو الذي أحدث الحدث .

يشار إليهما بحروف تلتصق به . وتوضع هذه الحروف أحيانا قبل الأصل فتسمى « سابقة Préfixes » وأحيانا بعده فتسمى « لاحقة Suffixes »^(١) . وبعض هذه الحروف ليس له دلالة مستقلة ، ولكن معظمها كان في الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها وأصبحت لا تستخدم إلا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذي تلتصق به أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة . ومن أشهر لغات هذه الفصيلة اللغة اليابانية واللغة التركية وبعض لغات الأمم البدائية كالغة الأيروكويين Iroquois^(٢) والبنطويين Bantous^(٣) .

وسميت هذه اللغات « باللتصقية » أو « الوصلية » للطريقة التي تتبعها حيال الأصل إذ تلتصق به حروفا زائدة عن حروفه لتوضيح المعنى المقصود منه أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة .

(القسم الثالث) اللغات « غير المتصرفة » Mono-syllabiques أو « العازلة » Isolantes . - ويمتاز هذا القسم من ناحية « المورفولوجيا » بأن كلماته غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل . فكل

(١) يختلف هذا الأسلوب باختلاف اللغات . فبعض اللغات اللصقية تستخدم الحروف « السابقة » كاللغة البنوية ، وبعضها يستخدم الحروف « اللاحقة » كالتركية . فنزل في التركية مثلا يقال له او Ew فإذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بآخره دالا مكسورة ونونا للدلالة على المجاوزة فتقول اودن Ewden ، وإذا أردت جمعه ألصقت بآخره لاما مكسورة وراء فتقول اولر Ewler وإذا أردت أن تقول خارج المنازل ألصقت بالجمع الدال والنون الدالتين على المجاوزة فتقول اولردن Ewlerden

وقد يجتمع الطريقتان في لغة واحدة فتستخدم أحيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللاحقة .
(٢) عشار من الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) . - وقد يلحق بالأصل الواحد في لغتهم عدد كبير من هذه الحروف للدلالة على كثير من العلاقات والمعاني ، فتصبح الكلمة الواحدة كثيرة الاصوات كبيرة المدلول . فقد روي العلامة ريبو أنه توحد في لغتهم كلمة واحدة تدل على ما يأتي : « أطلب نقوداً من هؤلاء الذين جاءوا ليشتروا مني الاقشة » . ويكثر كذلك هذا النوع من الكلمات الطويلة بلغة الاسكيمو V. Ribot, op. cit. 86 .

(٣) يطلق هذا الاسم على سكان القسم الجنوبي بأفريقيا الاستوائية (ماعد قبيلتي الهوتانتوت والبوشيمان Hottentots, Bochimans) . وترجع لغاتهم الى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية .

كلمة تلازم صورة واحدة وتدل على معنى ثابت لا يتغير . ويمتاز من ناحية « السنسكس » بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بماعدها ، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض ، وتستفاد وظائفها وعلاقتها من ترتيبها أو من سياق الكلام . - ويدخل في هذا القسم اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم البدائية .

وسميت هذه اللغات « بغير المتصرفة » لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها ، و « بالعايزة » لأنها تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية في مبدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (اللغات غير المتصرفة) ؛ ثم ارتقت إلى النوع الثاني (اللغات اللصقية) ؛ ولم تصل إلى حالة النوع الأول (اللغات المتصرفة) إلا في آخر مرحلة قطعها في هذا السيل . - غير أن بعض اللغات الإنسانية قد وقفت في نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى كاللغة الصينية ، أو لم تتجاوز المرحلة الثانية كاليابانية والتركية . ويستدلون على صحة هذه النظرية بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم البدائية على النحو الذي تقدم شرحه في النظريات السابقة .

ولكن ليس من بين أدلتها ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحتها . بل قامت أدلة كثيرة على خطئها . فمن ذلك أن الأساليب الثلاثة التي تعرض لها (التصرف والالصق والعزل) توجد مجتمعة في كل لغة إنسانية ، وأنه من المتعذر أن نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها .

فاللغة العربية ، كما يوجد بها مظاهر من أسلوب التصرف والتحليل كما تقدم ، يوجد بها مظاهر كثيرة من الأسلوبين الآخرين . فهي تسير على طريقة اللصق بالحروف « اللاحقة » ، و « السابقة » ، في حالات كثيرة كجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم والتعدي بالهمزة (قائم ، قائمون - زينب زينبات - قام على ، وأقام على الصلاة) ... وهلم جرا . وتسير كذلك على طريقة العزل في كثير من التراكيب :

ببعض أصوات ذات مقاطع (وهي التي نرسم إليها بالحروف الساكنة) .
وقد حاول العلامة شترن Stern ، على ضوء ما قام به في هذا الصدد من ملاحظات وتجارب ، أن يعين نوع الصوت الذي يظهر في كل حالة من الحالات الانفعالية المشار إليها ؛ فانهى بحثه إلى نتائج كثيرة منها أن حروف اللين مكررة تعبر عن السرور والحزن ، وإن الميم والنون تعبران عن كل ما له علاقة بالأمور الداخلية (الجوع الرغبة . الخ) ، وأن الباء والداد والتاء تعبر عن كل ما له علاقة بالعالم الخارجي . - غير أن التحقق من صحة هذه النتائج يحتاج إلى استقرار كبير يتعذر إجراؤه . هذا إلى أن كل ما يقال بهذا الشأن تقريبي ؛ لأن الأصوات التي نحن بصدد الكلام عليها يتألف معظمها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، من أصوات مهمة يصعب تحديد ما يشبهها من أصوات اللغة .

هذا ، ويصحب انفعالات الطفل كذلك طائفة من المظاهر الجسمية المرئية كصفرة الوجه وحمرة ووقوف شعر الرأس وضيق الحديقة واتساعها وفتح الفم وانقباض عضلات الوجه وانبساطها وتفتح الأسارير وانكاشها . . . وهلم جرا . وهذه المظاهر قائمة على الأسس الطبيعية نفسها القائمة عليها الأصوات الوجدانية ، وتصدر دائماً مصاحبة لهذه الأصوات . فهي فطرية غريزية تصدر من الطفل بدون سابق تجربة ولا تعلم ويشيرها بطريقة آلية ما يتلبس به الطفل من انفعال .

٢- « الأصوات الوجدانية الإرادية » . - وهي أصوات النوع السابق حينما يستعملها الطفل استعمالاً إرادياً . وذلك أن الأصوات الوجدانية الفطرية التي تقدمت الإشارة إليها يدرك المحيطون بالطفل مصادرها ومثيراتها فيعملون على وقفها بتحقيق ما يعوز الطفل وقضاء ما يحتاج إليه . ومن تكرار سلوكهم هذا ، يدرك الطفل أن هذه الأصوات من شأنها أن ترغم الكبار على تحقيق رغباته ، فيلفظها أحياناً بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عن حالة قائمة به أو عن مطلب من مطالبه . فتراه مثلاً يتعمد البكاء أو الصراخ أو يتماهى فيهما بشكل إرادى حتى تحمله مربيته أو ترضعه أو تبعد عنه هنة لا يريدتها . . .

الباب الثاني

نشأة اللغة عند الطفل

(١) أنواع الأصوات في الطفولة وأساس كل منها

يرجع أهم ما يلفظه الطفل من أصوات إلى الأنواع الآتية :

١ - « الأصوات الوجدانية » ، أو « أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات » .
وهي الأصوات الفطرية التي تصدر من الطفل في أثناء تلبسه بحالة انفعالية ،
كالأصوات التي تصدر منه في حالات الخوف والألم والجوع والفرح والغضب
والسرور والدهشة ، كالبيكاء والضحك ومختلف أنواع الصراخ الوجداني .

وهذا النوع فطري عند الطفل ، يصدر منه بشكل غير إرادي وبدون سابق
تجربة ولا تعليم ولا تقليد^(١) ، وتثيره الحالات الجسمية والنفسية أليها وسارها .
وهذه الإثارة قائمة على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بالحالات الجسمية
والنفسية بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلي وتلفظ أصواتاً معينة
عند وجود حالة من هذه الحالات . فالطفل إذ يلفظ هذه الأصوات تحت تأثير
الحالة الجسمية أو النفسية أشبه بشيء بساعة الحائط إذ تدق أجراسها بصوت آلي
حينما تصل مشيراتها (عقاربها) إلى نقط خاصة ، وتختلف دقاتها نوعاً وكمية
باختلاف هذه النقط .

ويتألف هذا النوع من أصوات مهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات
مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهي التي نرزم إليها بحروف المد) مختلطة أحياناً

(١) ليس أدل على أن هذا النوع فطري وعلى عدم توقفه على المحاكاة أنه يظهر حتى عند
الطفل الذي يولد أصم .

ببعض أصوات ذات مقاطع (وهي التي نرمن إليها بالحروف الساكنة) .
وقد حاول العلامة شترن Stern ، على ضوء ما قام به في هذا الصدد من ملاحظات وتجارب ، أن يعين نوع الصوت الذي يظهر في كل حالة من الحالات الانفعالية المشار إليها ؛ فانهى بحثه إلى نتائج كثيرة منها أن حروف اللين مكررة تعبر عن السرور والحزن ، وإن الميم والنون تعبران عن كل ما له علاقة بالأمور الداخلية (الجوع الرغبة الخ) ، وأن الباء والذال والتاء تعبر عن كل ما له علاقة بالعالم الخارجي . — غير أن التحقق من صحة هذه النتائج يحتاج إلى استقرار كبير يتعذر إجراؤه . هذا إلى أن كل ما يقال بهذا الشأن تقريبي ؛ لأن الأصوات التي نحن بصدد الكلام عليها يتألف معظمها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، من أصوات مهمة يصعب تحديد ما يشبهها من أصوات اللغة .

هذا ، ويصحب انفعالات الطفل كذلك طائفة من المظاهر الجسمية المرئية كصفرة الوجه وحمرة ووقوف شعر الرأس وضيق الحذقة واتساعها وفتح الفم وانقباض عضلات الوجه وانبساطها وتفتح الأسارير وانكماشها . . . وهلم جراً . وهذه المظاهر قائمة على الأسس الطبيعية نفسها القائمة عليها الأصوات الوجدانية ، وتصدر دائماً مصاحبة لهذه الأصوات . فهي فطرية غريزية تصدر من الطفل بدون سابق تجربة ولا تعليم ويشيرها بطريقة آلية ما يتلبس به الطفل من انفعال .

٢ - « الأصوات الوجدانية الإرادية » . — وهي أصوات النوع السابق حينما يستعملها الطفل استعمالاً إرادياً . وذلك أن الأصوات الوجدانية الفطرية التي تقدمت الإشارة إليها يدرك المحيطون بالطفل مصادرها ومثيراتها فيعملون على وقفها بتحقيق ما يعوز الطفل وقضاء ما يحتاج إليه . ومن تكرار سلوكهم هذا ، يدرك الطفل أن هذه الأصوات من شأنها أن ترغم الكبار على تحقيق رغباته ، فيلفظها أحياناً بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عن حالة قائمة به أو عن مطلب من مطالبه . فتراه مثلاً يتعمد البكاء أو الصراخ أو يتهادى فيهما بشكل إرادى حتى تحمله مربيته أو ترضعه أو تبعد عنه هنة لا يريدتها . . .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
CAIRO UNIVERSITY LIBRARY

وهلم جرا . — وتسمى حينئذ هذه الأصوات « بالأصوات الوجدانية الإرادية » .
وما يتخذها حيال الأصوات يتخذها أحياناً حيال الحركات الجسمية المعبرة
عن الانفعالات . فقد يقوم ببعض هذه الحركات بشكل إرادى قاصداً بها التعبير
عما يساوره من انفعال أو يبغي تحقيقه من رغبة . فقد يتعمد مثلاً تقطيب وجهه
أو تحريك يديه حركات عنيفة للتعبير بشكل إرادى عن غضبه ، وقد يتعمد قبض
عضلات الوجه للتعبير عن كراهته لشيء أو اشمئزازه منه . . . وهلم جرا .
وهو في الحالين (حالة الصوت الإرادى وحالة الحركات الإرادية) يحاكي
نفسه في حالتها الطبيعية الفطرية ، فيمثل بشكل إرادى ما يصدر عنه عادة بشكل
آلى فطرى .

٣ — « أصوات الإثارة السمعية » . — وهى أصوات فطرية غير تقليدية
تصدر من الطفل في شهوره الأولى حينما يسمع بعض الأصوات . ففي هذه المرحلة
نرى أن سماع الطفل لبعض الأصوات (وبخاصة الأصوات المرتفعة) يثير أعضاء
صوته ويجعلها تلفظ بشكل آلى أصواتاً غير تقليدية (أى لا تحاكي الأصوات
المسموعة) شبيهة بأصواته الوجدانية التى أشرنا إليها فيما سبق . — ويحدث هذا
عند سماعه أحد المحيطين به يناغيه أو يتحدث بصوت مرتفع أو عند سماعه صوت
حيوان أو آلة موسيقية . . . وهلم جرا .

ويظهر هذا النوع من الأصوات لدى الطفل فى سن مبكرة . فقد لاحظ
الأستاذ « جو يوم Guillaume » أن ابنه « بول » ، ولما يتجاوز الشهر الثانى ،
تصدر منه هذه الأصوات عندها تكلمه أمه أو يكلمه هو بعبارات طويلة ، وأنه
عندما بلغ الشهر الثالث كان صوت « البيانو » يثير أعضاء نطقه فتلفظ أصواتاً
مبهمة لا تحاكي فى شيء النغم الموسيقى الذى يسمعه ؛ وأن بنته « لوز » ، وسنها
شهران ونصف ، كانت الأصوات التى تلفظها فى أثناء مناغاته لها أشبه شيء
بإجابات على حديثه ، فكانت تلفظ هذه الأصوات كلها توقف هو عن الحديث
أو انتهت عبارة من عباراته ؛ وأن حالتها كانت شبيهة بحالة شخصين يتحادثان

محادثة منظمة . - وقد لاحظت هذه الظاهرة نفسها على ابنتي عفاف في سن مبكرة ، ففي اليوم الثاني من شهرها الثالث (٢٧ / ٣ / ٣٤) أثارَت مناغاة لها أعضاء نطقها فأخذت تلفظ أصواتاً مبهمه مصحوبة بالابتسام وحركات الأطراف .

ومن هذا النوع من الأصوات ما يسمونه « العدوى الصوتية » التي تبدو عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد والتي تلازمهم في معظم مراحل طفولتهم : يصوت الوليد منهم فيشير صوته أصوات زملائه ؛ ويكي أحدهم فيكي لبكائه الآخرون (١) .

ويتألف هذا النوع ، كما يتألف النوعان السابقان ، من أصوات مبهمه (تشبه أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهي التي نرمن إليها بحروف المد) مختاطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع (وهي التي نرمن إليها بالحروف الساكنة) .

وقد ثبت أن هذه الأصوات ليست إرادية ولا تقليدية ، بل فطرية آلية تصدر بدون تدخل إرادة الطفل ولا تتجه إلى محاكاة أمر ما . وهي قائمة على أسس طبيعية شبيهة بالأسس القائمة عليها الأصوات الوجدانية . فكما أن تلبس الطفل بحالة انفعالية يثير أعضاء صوته ، فتتحرك بشكل آلي وتلفظ الأصوات الوجدانية السابق ذكرها ؛ كذلك سماع الطفل في هذه المرحلة لبعض الأصوات ، فإنه يثير أعضاء نطقه فتتحرك بشكل آلي وتلفظ الأصوات التي نحن بصدد الكلام عنها . فكلا النوعين فطري آلي قائم على روابط طبيعية . وكل ما بينهما من فرق ينحصر في أن الأول مؤسس على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلي وتلفظ أصواتاً خاصة عند وجود حالة من هذه الحالات ؛ على حين أن الثاني قائم على

(١) وقد لاحظ الأستاذ « بلاتون » أن هذه العدوى الصوتية لا تظهر قبل نهاية الشهر الأول .

روابط طبيعية تربط جهاز السمع بجهاز الصوت بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثاني تتحرك بشكل آلي وتلفظ أصواتاً مهمة عند وصول أصوات إلى الجهاز الأول.

٤ - « أصوات التمرينات النطقية » Exercices vocaux أو « اللعب اللفظي » Jeu vocal أو « اللغظ » Babillage .

يظهر لدى الطفل حوالى الشهر الخامس ميل فطرى إلى اللعب بالأصوات وتمارين أعضاء النطق . فيقضى فترات طويلة من وقته فى إخراج أصوات مركبة متنوعة عارية عن الدلالة وعن قصد التعبير . وقد سمي الباحثون هذا النوع من الأصوات بالتمرينات النطقية أو اللعب اللفظي أو اللغظ (١) .

وينتظم هذا النوع جميع الأصوات المدية والمقطعية (حروف اللين والحروف الساكنة) التى يمكن أن تلفظها أعضاء النطق الإنسانى . ولذلك كثيراً ما نجد من بينها أصواتاً غريبة عن اللغة التى ينطق بها آباء الطفل . فكثيراً ما يرد فيما يلفظه أطفالنا المصريون من هذا النوع أصوات لا وجود لها فى لغتنا ، كالأصوات التى يرمز إليها فى الفرنسية بهذه الحروف v, p, g, eu .

وقد لاحظ الأساتذة رونجات وميرينجير وجوتمان Ronjat, Meringer و Gutzman أن من بين الأصوات التى يلفظها أطفال الأوربيين فى هذه المرحلة أصواتاً لا يوجد لها نظير إلا فى لغات الصين ، أو اليابان ، أو فى رطانات زنج أفريقيا ، أو فى لهجات السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا . ومن ثم يظهر فساد ماذهب إليه فونت وبرير ومور Wundt, Preyer, Moor إذ زعموا أن أصوات هذه المرحلة تختلف باختلاف الشعوب ، وأن أطفال كل أمة لا يلفظون فى أثنائها إلا الأصوات الخاصة بلغة بلادهم ، أى التى سيستخدمونها

(١) قد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس ، فقد لاحظته عند ابنتى عفاف فى أوائل الشهر الثالث (ابتداء ظهوره لديها يوم ٢٧ - ٣ - ٢٤) ، وظهر عند ابنى لإقدام فى أوائل الرابع (ابتداء ظهوره لديه يوم ٧ - ١٢ - ٤٠) وقد ولد يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٠ .

في المرحلة التالية ، فكأنهم بذلك يدربون أعضاء نطقهم على ما ستواجهه في المستقبل من مشكلات لغوية خاصة بأمهم .
ويلاحظ أن الطفل في هذه المرحلة يولع بتكرار الصوت الذي يلفظه من هذا النوع عدة مرات : بابا - تاتاتا أتيتا . . الخ . ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة . منها أن النشاط الحركي يتجه دائماً إلى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة . ومنها أن وقف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذي يتطلبه استمرارها ؛ فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين (وإلى هذا يرجع السبب في حدوث هذه الظاهرة نفسها عند السكبار أحياناً وخاصة حينما يسرعون في كلامهم) . ومنها أن الطفل عند ما يلفظ صوتاً ما يحدث لديه هذا الصوت إحساساً سمعياً يرتاح إليه ويتلذذ بوقعه ، فيكرر الصوت ليتكرر إحساسه هذا ؛ كما أن إحساسه صوت طبلة دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه إلى تكرار الدق والرمي ليتكرر الصوت نفسه ؛ وهذا مظهر من المظاهر التي أطلق عليها العلامة بلدوين « تقليد الطفل لنفسه » ، أو « التفاعل الدائري عند الطفل » . وتبقى هذه العادة عند الطفل في أوائل المرحلة التالية كما سنذكر ذلك في موطنه (١) . ولا يرمى الطفل من وراء هذه الأصوات إلى محاكاة أو تعبير ، وإنما تدفعه إليها غرائزه دفعاً كما تدفعه إلى سائر ألعابه ، ويجد لذة كبيرة في مجرد لفظها كما يجد لذة في القيام بألعابه الأخرى .

ويظهر أن الغرض الذي ترمى إليه الطبيعة من دفع الطفل إلى هذا النوع من الألعاب هو تدريب أعضاء نطقه على القيام بوظائفها العامة وإعداده إعداداً تاماً للمرحلة التالية ، وهي المرحلة التي يأخذ فيها اللغة عن طريق محاكاته لما يسمعه من المحيطين به (٢) .

(١) انظر المرحلة الثالثة في انقرة الثالثة من هذا الباب .

(٢) انظر تفصيل هذا بكتابتنا « في القرية » الطبعة الثانية صفحات ٣١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

والغرض الذي أشرنا إليه وهو الإعداد للحياة المستقبلية ليس مقصوراً على الألعاب اللفظية بل مشتركاً في جميع الألعاب الانسانية .

غير أنه يظهر كذلك أن بعض الأصوات التي يلفظها الطفل في أواخر هذه المرحلة والتي تبدو من نوع « التمرينات النطقية » هي في الحقيقة أصوات تقليدية يحاول بها الطفل أن يحاكي ما يسمعه من كلمات فيلفظها لفظاً خاطئاً بعيداً كل البعد عن الأصل ، أو يحاول بها محاكاة النبرات العامة التي تتألف منها الصورة الموسيقية لبعض ما يسمعه من عبارات . ولا أدل على ذلك مما لاحظته الأستاذ جر امون Gramont الفرنسي . فقد اختار لابنه مربية إيطالية ظلت ملازمة له حتى قبيل انتهاء هذه المرحلة ، وبعد شهر تقريباً من انقطاعها عنه ، دخل الطفل في مرحلة التقليد اللغوي . فلاحظ والده حينئذ أنه يلفظ الكلمات الفرنسية ب لهجة إيطالية ، وأن هذه العادة لم يتخلص منها إلا بعد أمد طويل . وهذا يدل على أن بعض الأصوات التي كان يلفظها في مرحلة « التمرينات النطقية » ، إذ كانت مربيته الإيطالية تناغيه ب لهجتها ، كان يحاول بها تقليد النبرات العامة لحديثها ، وأن هذه المحاولات قد مكنت أسلوب الصوت الإيطالي من لسانه ، وظهرت آثار ذلك في حديثه فيما بعد .

هـ - الأصوات التي يحاكي بها الطفل أصوات الأشياء والحيوانات (هزير الريح ، حفيف الشجر ، خرير الماء ، جمعجة الرحي ، صرير الباب ، درداب الطبل ، طنطنة الأوتار ، دقات الساعة ، نفير السيارة ، صهيل الفرس ، نهيق الحمار ، خوار البقر ، نغاء الغنم ، نباح الكلب ، مواء الهر ، صياح الديك ، هديل الحمام ، نعيق الغراب . . . وهلم جرا) .

وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطري عند الطفل ، وهو غريزة المحاكاة . ولسكنها ، مع ذلك ، تصدر بشكل إرادي . ويرمي الطفل من ورائها إلى غايات معينة . فهو يرمي أحياناً إلى مجرد التلذذ بالمحاكاة أو إثبات قدرته على التقليد ، وأحياناً إلى التعبير عن أمور تتصل بالشئ أو الحيوان الذي يحاكي صوته ، كأن يحاكي صوت الكلب للتعبير عن رغبته في رؤيته أو عن قدومه . . . وما إلى ذلك . وهو يحاكي أحياناً هذه الأصوات المهمة في صورتها الطبيعية ، وأحياناً

يحاكيها بوضعها في أصوات ذات مقاطع ، فيعبر عن صوت الدجاجة مثلاً بكلمة « كاك » وعن صوت الكلب بكلمة « هو » وهلم جرا .
٦ - الأصوات المركبة ذات المقاطع والدلالات الوضعية التي تتألف منها الكلمات وتتكون منها اللغة .

وهذا النوع من الأصوات يأخذه الطفل عن المحيطين به بطريق التقليد ، ويندفع إليه تحت تأثير ميله الفطري إلى المحاكاة . ولكنه ، مع ذلك ، إرادى فى تسكونه وفى استخدامه . أما فيما يتعلق بتسكونه ، فهو لا يصدر من الطفل بشكل آلى كما تصدر أصواته الوجدانية مثلاً ؛ بل يبذل الطفل فى إصداره وإصلاح خاطئه وتكملة نقصه وجعله مطابقاً للصوت الذى يحاكيه بمجهود إرادى ، ويشرف على جميع هذه الأمور إشرافاً مقصوداً . وأما فيما يتعلق باستخدامه ، فإن الطفل يلفظه مریداً به التعبير عن المعانى والحقائق التى يدل عليها . وذلك أن هذه الطائفة من الأصوات لا تنتقل إلى الطفل مجردة ، بل تنتقل إليه حاملة معها معانيها . فهو يدرك ما تدل عليه من سياق أعمال المتكلمين بها ، ومن الحركات اليدوية والجسمية التى تصحبها ، ومن الإشارة الحسية إلى مدلولاتها وهلم جرا . فيحاكيها متصوراً معانيها تصوراً كاملاً أو ناقصاً تبعاً لمبلغ الدقة فى ملاحظته . وكلما اكتسب لفظاً منها عن هذا الطريق احتفظ به إلى حين الحاجة إليه ؛ فيلفظه كلما أراد التعبير عن مدلوله (١) .

(٢) أنواع التعبير فى الطفولة

عرضنا فى الفقرة السابقة لجميع أنواع التعبير فى الطفولة ماعدا نوعاً واحداً لم تدع إلى الكلام عنه مناسبة ما فى الموضوع السابق ، وهو التعبير الإرادى عن المعانى عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية . وإلى هذا النوع من التعبير يلجأ

(١) هناك نظريات أخرى كثيرة فى الأساس القائم عليه هذا النوع من الأصوات . وسنعرض لها فى الفقرة السادسة من هذا الباب .

الطفل في جميع مراحل طفولته ؛ فيستخدمه أحياناً مستقلاً عن غيره (كأن يمد يده ويفتح كفه للتعبير عن رغبته في الحصول على شيء ما ، أو يمد يده نحو شخص ويقبض أصابعه ويبسطها للتعبير عن رغبته في مجيئه بجانبه ، أو يقبض أصابعه ويقربها من شفثيه محاكياً حركة الشرب للتعبير عن حاجته إلى الماء . أو يهوى يده بحركة عنيفة للتعبير عن الضرب ... وهلم جرا) ؛ وأحياناً يستخدمه مع الكلام لتكملة ما ينقص حديثه ويعوزه من دلالة أو لتوكيد المعاني وتمثيل الحقائق وزيادة التوضيح .

وبإضافة هذا النوع إلى الأنواع التي عرضنا لها في الفقرة السابقة ، يتبين أن مظاهر التعبير في الطفولة ترجع إلى سبعة أقسام :

- ١ — التعبير الطبيعي عن الانفعال عن طريق الأصوات ؛
- ٢ — التعبير الطبيعي عن الانفعال عن طريق الحركات الجسمية ؛
- ٣ — التعبير الإرادي عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الأول ؛
- ٤ — التعبير الإرادي عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الثاني ؛
- ٥ — التعبير عن المعاني عن طريق محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ؛
- ٦ — التعبير عن المعاني عن طريق اللغة (الجمل والكلمات) ؛
- ٧ — التعبير عن المعاني عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية .

وبمحل هذا أن التعبير في الطفولة لا يخرج عن طائفتين : تعبير عن الانفعالات ، وتعبير عن المعاني .

أما التعبير عن الانفعالات فيكون أحياناً طبيعياً وأحياناً إرادياً يحاكي فيه التعبير الطبيعي ؛ وكلاهما يكون عن طريق الصوت أو عن طريق الحركة . فهذه أربعة . وأما التعبير عن المعاني فلا يكون إلا إرادياً : ويحدث أحياناً عن طريق الإشارة اليدوية أو الجسمية ؛ وأحياناً عن طريق محاكاة أصوات الحيوانات والأشياء ؛ وأحياناً عن طريق اللغة . وهذه ثلاثة أنواع .

(٣) المراحل التي يجتازها الطفل في أصواته وتعبيراته

يجتاز الطفل في هذه السبيل أربع مراحل تمتاز كل مرحلة منها بمميزات خاصة في أصواته وتعبيراته :

المرحلة الأولى ، من الولادة إلى الشهر الخامس :

وفي هذه المرحلة لا يظهر من أنواع الأصوات الستة السابق ذكرها إلا الأنواع الثلاثة الأولى : الأصوات الوجدانية ، و الأصوات الوجدانية الإرادية ، و أصوات الإثارة السمعية ، (١) .

أما تعبيرات الطفل في هذه المرحلة فتتنظم جميع أنواع التعبير السابق (٢) ذكرها ما عدا النوعين الخامس والسادس (التعبير عن المعاني عن طريق اللغة ، والتعبير عن المعاني عن طريق محاكاة أصوات الحيوان والأشياء) .

فيبدو لديه في هذه المرحلة التعبير الطبيعي عن الانفعال في مظهره الصوتي والحركي (البكاء ، الصراخ ، الضحك - الابتسام ، انقباض الأسارير وانبساطها ، احمرار الوجه ، اصفراره ، ارتعاش الجسم ، وقوف شعر الرأس .. وهلم جرا) . وتختلف هذه التعبيرات في موعد ظهورها . فأول ما يظهر من أنواعها الصوتية الأصوات الدالة على الألم الجسمي وعلى الجوع . . . وما إلى ذلك ؛ ثم تظهر بعد ذلك (في أواخر الشهر الثاني تقريباً) الأصوات المعبرة عن الألم النفسي كأصوات الحزن والإخفاق وضيق الصدر . . . ؛ أما الأصوات المعبرة عن الحالات السارة جسمياً ونفسياً كالفرح والطمأنينة والارتواء والشبع فلا تبدو إلا في منتصف هذه المرحلة أو في أواخرها . وتسير التعبيرات الحركية في مواقيت ظهورها على سنن قريب من سنن التعبيرات الصوتية .

(١) أنظر صفحات ١١٠ - ١١٤ .

(٢) أنظر صفحتي ١١٧ - ١١٨ .

وتبدو لدى الطفل كذلك في هذه المرحلة مظاهر التعبير الوجداني الإرادي، فكثيراً ما يعتمد الصبي في شهوره الأولى محاكاة تعبيره الطبيعي ليقف المحيطين به على حالة وجدانية متلبس بها، أو ليحملهم على تحقيق رغبة من رغباته (يعتمد مثلاً الصراخ أو البكاء ليقضى له مطلب ما) .

ويبدو لديه كذلك في أواخر هذه المرحلة بعض مظاهر من التعبير عن المعاني عن طريق الإشارة . فكثيراً ما يلجأ إلى الإشارات اليدوية والجسمية للتعبير عما يهيمه التعبير عنه ، كأن يمد يده ويضم أصابع كفه للإشارة إلى شخص بالدنو منه ، و كأن يدفع شخصاً بيده للتعبير عن رغبته في أن يبعد عنه وهلم جرا .

المرحلة الثانية ، من الشهر الخامس إلى أواخر السنة الأولى :

وتمتاز هذه المرحلة عن المرحلة السابقة من الناحية الصوتية بظهور نوع رابع من الأصوات وهي أصوات « التمرينات النطقية » ، أو « اللعب اللفظي » ، أو « اللغظ » ، التي تكلمنا فيما سبق عن طبيعتها ووظائفها وأسسها (١) . ويتألف معظمها في المبدأ من أصوات لينة (حروف مد) ، ثم تسكث فيها بعد ذلك الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) . وقد تظهر لديه في هذه المرحلة بعض أصوات يحاول بها محاكاة ما يسمعه في صورة ما كما تقدم بيان ذلك (٢) .

وأما فيما يتعلق بأنواع التعبير ، فلا يظهر منها لدى الطفل في هذه المرحلة أي نوع جديد . ولكن ترقى لديه الأنواع القديمة التي تكلمنا عليها في المرحلة السابقة ، وبخاصة الإرادي منها ، فتكثُر محاكاته الإرادية لوسائل التعبير الفطري ، وتهذب طرق تعبيره بالإشارة ، ويتسع نطاقه ، وتضبط دلالاته .

(١) انظر صفحات ١١٤ - ١١٦ . وقد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل

الشهر الخامس كما سبقت الإشارة إلى ذلك بال تعليق الأول ص ١١٤ .

(٢) انظر صفحة ١١٦ .

وفي هذه المرحلة ، بل من قبل هذه المرحلة ، يختزن الطفل في ذاكرته كثيراً من الكلمات والجمل التي ينطق بها المحيطون به ويفهم مدلولها بدون أن يستطيع محاكاتها . ويساعده على فهمها سياق أعمال المتكلمين وما يصدر عنهم في أثناء النطق بها من حركات يدوية وجسمية وإشارات إلى ما تدل عليه . فإذا كلف الطفل في هذه المرحلة أمراً ما (اقبل الباب ، هات الكوب ، ضع لعبتك في العربة ... الخ) أو طلب إليه الإشارة إلى أحد أعضائه أو أعضاء غيره أو إلى هنة ما (أين أنفك ، فك ، أذنك ، أبوك ، أمك ، عمك ، سريرك ، لعبتك ...) أدى ما كلفه وأشار إلى ما يطلب إليه تعيينه من أعضاء وأشياء في صورة تدل دلالة قاطعة على فهمه لما سمع .

وقد ذكر الأستاذ بريير Preyer أن النطق الواضح بالكلام لم يبدأ عند ابنه إلا في الشهر الثامن عشر ؛ مع أنه ، منذ الشهور الأخيرة من السنة الأولى ، كان يفهم معظم ما يقال له وما يسمعه .

وذكر الأستاذ جويوم أن ابنته « لوز » كانت تفهم معنى كلمة « بابا » منذ الشهر الثالث ، مع أنها لم تستطع النطق بها إلا في الشهر السابع ؛ وأن ابنه بول كان في شهره الرابع يفهم معاني الكلمات الآتية : « بابا ؛ بول (اسمه) ؛ ثدى » ؛ وفي شهره الخامس كان يفهم كذلك معاني كلمتي « ماما » و « أخيه الأكبر » ، مع أنه في هذه المرحلة ما كان يستطيع النطق بأية كلمة من هذه الكلمات ؛ وأن نطاق الفهم عند ولديه هذين قد اتسع اتساعاً كبيراً في الشهور الأولى من مرحلة « التمرينات النطقية » ؛ فكان الولد منهما يلوح بيديه تلويح الوداع عند ما يقال له Adieu (مع السلامة) كما يلوح السكبار بأيديهم عند ما يسمعون هذه الصيغة من مودعهم ؛ ويحاول أن يلبي ما يطلب إليه أداؤه بالقدر الذي تسمح به قواه الجسمية وقدرته على الحركة عند ما يطلب إليه أن يرقص أو يجلس أو يقف أو يجيء وهلم جرا ؛ ويلبي تلبية صحيحة ما يؤمر به إذا طلب إليه تقبيل أحد أبويه أو الأخذ بلحية والده أو شد شعر رأسه ؛ ويشير إلى الشخص أو الهنة التي

يطلب إليه الإشارة إليها إذا قيل له : أين أبوك أو ريموند (أخوه) أو الهرة أو الدجاجة أو الثدي أو المدفأة أو السرير . . . وما إلى ذلك ؛ مع أنهما في هذه المرحلة ما كانا ليستطيعا النطق بأية بكلمة ولا عبارة من هذه الكلمات والعبارات . وقد لاحظت على ابنتي عفاف ، وهي في أوائل شهرها السادس ، أنها كانت تفهم معنى كلمة « بوبول » (اسم كنا نطلقه على هرة بالمنزل) ، فكانت كلما ذكر أمامها هذا الاسم صوبت نظرها نحو الأرض وأدارته في نواح كثيرة لتبحث عنها ، فإن عثرت عليها حدقت فيها وتابعت حركاتها بنظرها ، مع أنها في هذا الدور ما كانت لتستطيع النطق بكلمة ما .

هذا ، وفهم الطفل للكلمات والجمل يظهر على صورة تدريجية . وأول كلمات يفهم مدلولها هي الكلمات الدالة على أكثر الأشخاص ملازمة له وأحبهم إليه (بابا ، ماما ، دادة . . . الخ) وعلى الأمور الضرورية له (أمبو = الماء ؛ مم = الطعام . . . الخ) وعلى الأشياء التي تستأثر بانتباهه لغرابتها مثلاً . فقد كانت كلمة طيارة من الفوج الأول من الكلمات التي لاحظت أن ابني إقداما يفهم مدلولها (ظهر فهمه لمدلولها في أوائل شهره العاشر) . فقد كنا نجلس به في حديقة المنزل ، فتحلق بعض الطائرات فوق رموسنا محدثة دويًا مزعجاً ؛ فاستأثر هذا بقسط كبير من انتباهه وتمكن معنى الكلمة في ذهنه ؛ فكنا إذا سألناه في وقت لا طائرة فيه فوق رموسنا : « فين الطيارة ياميمي » ، = « أين الطائرة يا إقدام » ، رفع بصره إلى السماء كمن يبحث عنها .

المرحلة الثالثة ، مرحلة التقليد اللغوي :

تبدأ هذه المرحلة عند العاديين من الأطفال في أواخر السنة الأولى أو أوائل الثانية ؛ وتنتهي في الخامسة أو السادسة أو السابعة . وأما غير العاديين من الناحية اللغوية فقد لا تبدأ لديهم إلا في أواخر الثانية أو أوائل الثالثة ، ويتأخر تبعاً لذلك موعد انتهائها . وعند بعض الشواذ من الأطفال لا تبدأ إلا في سن متأخرة جداً ، كما سنذكر ذلك فيما بعد . وقد تبدأ في حالات نادرة في سن مبكرة جداً . فقد سجل

سكوبن Scupin بعض شواهد لها حدثت في الشهر الثاني، ولاحظ مثلها جو يوم
وشرن في الشهر الثالث، ودارون في الشهر الرابع. ولكن ظهورها في مثل هذه
السن نادر جداً؛ والشواهد التي تذكر من هذا القبيل غير موثوق بصحتها كل
الوثوق ويمكن تأويلها على وجه آخر.

وفي هذه المرحلة يظهر النوعان الخامس والسادس من أنواع
الأصوات السابق ذكرها (محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة بقصد
التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها، ومحاكاة الكلمات بقصد التعبير
عن مدلولاتها).

وبظهور هذين النوعين من الأصوات يظهر نوعان جديان في تعبير
الطفل: التعبير عن المعاني عن طريق محاكاة الأصوات الحيوانية
وأصوات الأشياء، والتعبير عن المعاني عن طريق محاكاة الأصوات اللغوية
(أى عن طريق اللغة).

وتسير المحاكاة في هذه المرحلة على أساليب خاصة بعضها يتعلق بالأصوات
وبعضها يتعلق بالدلالة. وسنتكلم على كل منهما على حدة:

(أولاً) الأساليب المتعلقة بالأصوات، ومن أهمها ما يلي:

١- أن الطفل يحاكي في مبدأ الأمر الكلمات التي يسمعها محاكاة خاطئة،
ولا يزال يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً، مستعيناً بالتكرار ومعتمداً على مجهوده
الإرادى ومستفيداً من تجاربه، حتى تستقيم له اللغة.

ومظاهر أخطائه في هذه الناحية كثيرة من أهمها ما يلي:

(١) أنه يغير الأصوات فيحل محل الصوت الاصلى صوتاً آخر قريباً منه
في المخرج أو بعيداً عنه (ويغلب أن يكون قريباً منه)؛ فينطق مثلاً الكاف تاء
(تتاب = كتاب؛ الستينه = السكينة .. الخ)، والشين سيناً (سعر = شعر الخ)،
والفاء باء (بيبي = فيفي .. الخ)، والعين أو الحاء همزة (ننناة = نعناعة؛
نأم = نعم؛ أد = خد)، واللام نونا (نمنة = نملة) ... وهلم جرا. وقد ينال

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

هذا التغيير معظم حروف الكلمة ، فلا يكاد يبق فيها شيء من أصواتها الأصلية (ساساته = شو كولاته (١)).

ويظل هذا النوع من الخطأ ملازماً للطفل حتى أواخر هذه المرحلة ، فقد لازم ابنتي عفاف حتى أواخر سنتها الخامسة ؛ فظلت في أثناء هذه السنة تجد بعض الصعوبة في النطق بالشين وتميل إلى قلبها سيناً (وكان هذا آخر مظهر لديها من مظاهر الخطأ الذي نحن بصددده). وقد ظلت مظاهره كثيرة جداً في لغة ابني إقدام وابنتي حزم حتى السنة السادسة .

غير أن نوع الحروف التي ينالها التغيير وكميتها . . كل ذلك يختلف باختلاف السن .

(ب) أنه يحرف أصوات الكلمة عن مواضعها ، فيجعل اللاحق منها سابقاً والسابق لاحقاً .

ويلازمه هذا النوع من الخطأ مدة طويلة . فلم تتحرر منه ابنتي عفاف إلا في أواسط السنة الرابعة ؛ ففي الشهر الخامس من سنتها الرابعة كانت لا تزال تقول « إمسو » بدل إسمو (اسمه) ، و « جمزة » بدل جزمة (حذاء) ، و « أحبسوا » بدل أحسبوا (أحسبه) . . . وهلم جرا . ولم يتحرر منه ابني إقدام إلا بعد أن أتم سنته الرابعة ، وكان من مظاهره لديه « امسو » بدل اسمه ، و « جمزة » بدل جزمة ، و « حمز » بدل حزم (اسم أخته الصغيرة) .

(ح) لا ينطق بجميع أصوات الكلمة ، بل يكتفي بلفظ بعضها (تت = تحت ، دي = منديل . . . الخ) .

وترجع هذه الأخطاء الصوتية جميعها إلى ضعف أعضاء النطق عند الطفل في مبدأ هذه المرحلة ، وضعف إدراكه السمعي وذاكرته السمعية ، وقلة المراقبة ، وتأثر عناصر الكلمة بعضها ببعض . . . وهلم جرا .

(١) كل هذه الكلمات مأخوذة من لغة ابنتي عفاف في هذا الدور ، وفيه هو الاسم الذي كنا نناديها به في المنزل .

وكلمات تقدمت به السن واشتدت أعضاء صوته ودقت حاسة سمعه وقويت ذاكرته
حسن نطقه وقلت أخطاؤه . ويعينه في هذا السبيل ما يبذله المحيطون به من جهود
لإصلاح نطقه ، إذ يكررون له الكلمة عدة مرات ، أو ينطقونها على مهل متميزة
الحروف ، أو ينطقونها بصوت مرتفع . . . وما إلى ذلك .

وإلى الأخطاء السابقة وما إليها يرجع السبب في صعوبة فهم حديثه على غير
المحيطين به . وقد خيل إلى بعض الباحثين أن الطفل يخترع اختراعاً بعض كلمات
في مبدأ هذا الدور . والحق أن الطفل لا يأتي بجديد من عنده ، وأن الكلمات التي
يظن أنها من اختراعه ترجع جميعها إلى كلمات تقليدية : فبعضها محاكاة محرقة كثرت
فيها الأخطاء السابق ذكرها حتى بعدت عن أصلها بعداً كبيراً ؛ وبعضها محاكاة
صحيحة لكلمات يتعمد بعض الملازمين للطفل أن ينطقوا بها نطقاً محرراً يتفق مع
طريقة نطقه ؛ فهذه الكلمات الأخيرة هي من اختراع الكبار لا من اختراع الطفل .

٢ - يولع الطفل في مبدأ هذه المرحلة بما كان مولعاً به في المرحلة السابقة
من تكرار المقاطع والكلمات عدة مرات (بابابابا = بابا أي الوالد ، ماماماما =
ماما أي الأم . . . وهكذا معظم الكلمات) . وهذا راجع إلى أسباب كثيرة : منها
أن الطفل يحاول بذلك أن يثبت الكلمة في ذاكرته ويمكن لها من أعضاء نطقه
حتى يسهل عليه حفظها والنطق بها فيما بعد عند الحاجة إليها ؛ ومنها أن النشاط
الحركي يتجه دائماً إلى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة ؛ ومنها أن وقف الحركة
بجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذي يتطلبه استمرارها ؛ فالطفل بتكراره
هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين ، وإلى هذا يرجع السبب في حدوث هذه
الظاهرة نفسها عند الكبار أحياناً وخاصة حينما يسرعون في كلامهم ؛ ومنها أن
الطفل المبتدئ في الكلام عند ما يلفظ كلمة ما ، يحدث لديه صوتها إحساساً سمعياً
يرتاح إليه ويتلذذ بوقعه ، فيكرر الصوت ليتكرر إحساسه هذا ؛ كما أن إحساسه
صوت طبله دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه إلى تكرار الدق والرمي ليتكرر
الصوت نفسه فيتكرر إحساسه به ؛ وهذا مظهر من المظاهر التي أطلق عليها العلامة

بلدين « تقليد الطفل لنفسه ، أو « التفاعل الدائري عند الطفل » .

٣ - وفي مبدأ هذه المرحلة يضع الطفل ، في معظم الكلمات التي يقلدها ، الأصوات نفسها التي كان يغلب عليه تكرارها في مرحلة « التمرينات النطقية » . فإذا كان في تمريناته النطقية يغلب عليه تكرار مقطع « با ، مثلاً ، فإنه يضعه في معظم الكلمات التي يحاول محاكاتها في فاتحة تقليده اللغوي . فيقول مثلاً : « باد ، (قاصداً « أحمد ») و « باب ، (قاصداً « كتاب ») و « باية ، (قاصداً « طاقة ») و « باسي ، (قاصداً « كرسى ») و « باويت ، (قاصداً « بسكويت ») ... وهلم جرا . وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس « مقاومة القديم للجديد » أو « آثار العادات اللغوية » ، ويبدو في صورة أشد وضوحاً عند السكبار إذ يتعلمون لغة أجنبية أو يحاكون ألفاظها فيستبدلون بما تشتمل عليه هذه اللغة من أصوات لا عهد لهم بها أصواتاً شبيهة بها من أصوات لغتهم .

٤ - وفي مبدأ هذه المرحلة تكثر في لغة الطفل أصوات اللين (حروف المد) وتقل الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) ، فيحذف بعض الأصوات الساكنة من الكلمة ويقحم عليها أصواتاً لينة غريبة عنها (كبا = كلب ؛ بائي = برنيطة أي قبعة ... الخ) .

٥ - وفي أوائل هذه المرحلة (في أواخر السنة الثانية تقريباً) يظهر لدى الطفل ما يصح أن أسميه « بالمحاكاة الموسيقية للعبارات » ، فيحاكي الطفل أحياناً بعض العبارات التي يسمعها مجرد محاكاة موسيقية ؛ بأن يلفظ أصواتاً مبهمة تمثل في توقيتها الموسيقى أصوات العبارة التي يريد محاكاتها بدون أن تشتمل على كلماتها ؛ كما تحول قطعة شعرية إلى قطعة موسيقية . وقد لاحظت هذا على أولادى عفاف وإقدام وحزم ونائل ووفاء ، ولم أعثر على أحد قد لاحظته من قبلى على ما أعلم .

٦ - وفي مبدأ هذه المرحلة يسير الطفل ببطء كبير في محاكاته ، فقد تضى أشهر بدون أن يستطيع النطق بأكثر من بضع كلمات مع أنه يكون فاعماً لمعظم

ما يسمعه وما يقال له كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) ، ثم تنحل عقدة لسانه مرة واحدة ، وحينئذ يسير في هذه السبيل بخطى حثيثة لدرجة يصعب معها على من يلاحظه أن يحصى ما يدخل في متن لغته كل يوم من كلمات جديدة . فمن مبدأ هذه المرحلة إلى أوائل الشهر الرابع من السنة الثانية ، لم تكن ابنتي عفاف لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة هي « بابا » ؛ ثم زاد متن لغتها كلمتين أخريين هما : « بو » = « أمبو » (أى طلب الشرب) ؛ و « كافي » = تانى (تطلب بذلك تكرار الشيء مرة ثانية) . وفي أوائل الشهر الخامس من السنة الثانية زاد متن لغتها كلمة رابعة وهي « ماما » ، وفي أوائل السادس كلمتين وهما « كا كا » (كانت تطلقها على الدجاجة والحمامة سواء أكانتا حيتين أم مطهيتين) و « نا » = « لا » (علامة النفي) ؛ وفي أواخر التاسع كلمتين وهما « نساء » (أى النوم) و « إاث » = « إرش » (أى قرش) ؛ وفي أواخر العاشر ثلاث كلمات وهي « أنسناه » = الله ! (ما أحسن هذا !) و « توتو » (أى الكلب) و « ونمنة » = نملة ؛ ومن أواخر الحادى عشر من السنة نفسها (السنة الثانية) انحلت عقدة لسانها وأصبح من الصعب متابعتها وإحصاء ما يجدد في متن لغتها من كلمات . وفي أواخر الشهر الحادى عشر لم يكن ابني إقدام ليستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهي « بو » = « أمبو » = الماء أو الشرب ؛ ثم زاد متن لغته كلمة ثانية وهو « بابا » ؛ ثم كلمة ثالثة وهي « تاته » بمعنى المشى (كنا نكرر له هذه الكلمة في أثناء تدريبيه على المشى) ؛ ثم كلمة رابعة في الشهر الثانى من سنته الثانية وهي « ماما » ؛ ثم كلمتين أخريين في الشهر السادس من سنته الثانية ، وهما « مم » = الطعام أو الأكل ، و « كخ » (الشيء الردى الذى لا يصح لمسه أو العمل القبيح الذى لا يصح الإتيان به) ؛ وفي أوائل السنة

(١) أنظر صفحتى ١٢١ ، ١٢٢ . وقد ذكر العلامة شترن أن أحد أبنائه ، وسنه خمسة عشر شهراً ، كان عدد الكلمات التى يفهمها ثلاثة أضماف الكلمات التى يستطيع النطق بها ، وأنه لما بلغ العشرين شهراً ما كان يستطيع حصر الكلمات التى يفهمها ، على حين أن الكلمات التى كان ينطق بها حينئذ كانت محدودة .

الثالثة كان متن لغته يتألف من نحو خمس عشرة كلمة فقط ؛ ثم انحلت عقدة لسانه مرة واحدة فأخذت لغته تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وكذلك كان شأن ابنتي حزم . ففي الشهر الخامس من سنتها الثانية (مارس سنة ١٩٤٣) كان متن لغتها يتألف من إحدى عشرة كلمة فقط . وقد ظهرت لديها على الترتيب التالي : « تاتا » أي المشى ؛ « بابا » أي الوالد ؛ « مم » أي الأكل ؛ « ماما » أي الوالدة ؛ « ننا » نينة أي جدتها ؛ « ددّا » أي الخذاء الذي تلبسه وهي تمشى (كانت تسمى المشى نفسه تاتا) ؛ « ننن » أي النوم ؛ « أدّا » أي فيني (وهي أختها عفاف) ؛ « ددّ » أي تحت (وكانت تقولها عند ما تطلب نزولها إلى الدور الأسفل من المنزل أو إلى حديقته) ؛ (أمّا) أي أحمد الخادم ؛ « أوم » (كانت تلفظها هكذا ôme) وتعني بها قشم ، وتقولها عند ما تطلب إلى أحد أن يقوم لغرض ما تريده ، ويفهم هذا الغرض من سياق الحال (١) . وفي أوائل سنتها الثالثة انحلت عقدة لسانها وأخذت لغتها تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وقد سار ابني نائل وابنتي وفاء على الوتيرة نفسها التي سار عليها إخوتهما مع اختلاف يسير في المفردات التي كان يتألف منها متن لغتهما في كل مرحلة من المراحل .

٧ - وفي أواسط هذه المرحلة وأواخرها تصل قوة التقليد اللغوي عند الطفل ، في مهارتها ودقتها ونشاطها وغزارة محسوسها وأهميتها وسيطرتها على النفس ، إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه قوة إنسانية .

ففي هذا الدور لا يدع الطفل أي كلمة أو جملة جديدة يسمعاها أو يطلب إليه محاكاتها بدون أن يحاكيها ، وإن عاقبة طول جملة عن تكرارها جميعها ، حاكي ما يعلق بذهنه من كلماتها ، وبخاصة آخر كلمات فيها .

ولا يقتصر على تقليد الكلمات والجملة التي يريده المحيطون به على محاكاتها ، بل يحاكي

(١) من الغريب أن ظهرت لديها في هذا الدور المبكر هذه الكلمة التي تدل على فعل الأمر ، وفي معظم كتاباتها السابقة كانت تقلد أباها إقداما في لغته وفي مخارج حروفه .

كذلك من تلقاء نفسه كثيراً من الكلمات التي ترد في محادثات الكبار على مسمع منه ، حتى الكلمات الدقيقة منها . فقد كنت أتحدث مرة مع أسرة فرنسية في موضوع علمي على مسمع من طفلة صغيرة لهذه الأسرة ما كانت تتجاوز إذ ذاك الخامسة من عمرها ، فلاحظنا بعد حديثنا هذا أن الطفلة تستخدم في عباراتها بعض كلمات من المصطلحات العلمية التي كنا نستخدمها في حديثنا والتي يندر استخدامها في الحديث العادي .

ويحرص الطفل كل الحرص على ما يحصل عليه من مفردات وعبارات ؛ وكثيراً ما يبلغ به هذا الحرص أن يكرر هذه المفردات والعبارات في خلوته ويؤلف من شتاتها أغاني وجمل عارية عن الدلالة ولكنها كبيرة الأثر في تثبيتها في ذهنه .

ولا تظهر مهارة الطفل التقليدية في هذا الدور في محاكاة الكلمات والجمل فحسب ، بل تظهر كذلك حتى في محاكاة الأساليب الصوتية التي يلقي بها الكبار الجمل الإخبارية والاستفهامية والطلبية والتعجبية والزجرية . . . وهلم جرا ، وحتى في محاكاة الحركات الجسمية واليدوية التي تصحب حديثهم .

ولمهارة الطفل في التقليد اللغوي في أثناء هذه المرحلة ولشدة ميله إليه ، يستطيع أن يتعلم بسرعة وسهولة عن طريق المحاكاة أية لغة أجنبية إذا أتاحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ؛ بل يستطيع أن يتعلم بهذه الوسيلة أكثر من لغة أجنبية واحدة . قال أطفال المصريون مثلاً الذين يبعث بهم آبائهم إلى المدارس الأجنبية في هذا الدور يأخذون عن طريق المحاكاة عن معلمهم ومعلماتهم اللغة التي يتكلمون بها ، ولا يلبثون بعد أمد قصير أن يجيدوا هذه اللغة لدرجة لا يستطيع معها أكبر خبير في اللغات أن يميزهم من أهلها . والطفل إذا ولد من أبوين مختلفي اللغات أخذ عن كل منهما لغته فيصبح ثنائي اللغة Bilingue ؛ وإذا أتيت للطفل بصفة دائمة في هذا الدور سماع أكثر من لغتين أخذها جميعها عن طريق المحاكاة بدون أن يشعر أنه يتعلم ، ووصل في إجادتها كل منها إلى الدرجة نفسها التي يبلغها في لغته الأصلية ، فينشأ متعدد اللغات Polyglotte . - ومن أجل

هذا تختار بعض الأسرات الموسرة لأولادها في هذا الدور مربيات مختلفات اللغات حتى تنتقل إليهم بالمحاكاة جميع لغاتهم .

ومن الطريف أن الطفل الذي تنتقل إليه عدة لغات عن هذا الطريق يتجه من تلقاء نفسه إلى محادثة كل شخص من المختلطين به باللغة التي أخذها عنه أو التي يعرف أنها لغته بدون أن يشعر أنه يتكلم عدة لغات . فقد روى الأستاذ جويوم أن طفلاً أبوه ألماني وأمه فرنسية قد أخذ الألمانية عن أبيه والفرنسية عن أمه ، وكان إذا طلب إليه أبوه بالألمانية تبليغ أمر لأمه بلغها ذلك بالفرنسية بدون أن يشعر أنه يترجم إلى لغة أخرى السلام الذي كلفه أبوه تبليغه .

وفي هذا يختلف السكبار عن الصغار اختلافاً كبيراً . فهما بذل السكبار في تعلم لغة أجنبية من جهود ومهما طال مدة إقامتهم بين أهلها ، فلن يصلوا في إجادتها من الناحية الصوتية إلى الدرجة التي يصل إليها الصغار في هذا الدور . والسبب في هذا راجع إلى أن الطفل يلبي في محادثته داعي غريزته ، ويسلك بهذا الصدد طريقاً محبباً إليه ، ويسير على أسلوب يتفق مع ألعابه ، فيسهل عليه بذل المجهود ويؤتي مجوده أكله . على حين أن السكبار يتعلم اللغة الأجنبية لغاية خارجة عنها ، فيصعب عليه بذل المجهود في هذا السبيل . هذا إلى أن السكبار قد رسخت لديهم عادات كلامية خاصة وتشكلت أعضاؤه نطقهم بالشكل الذي يلائمها ، فيصعب من الصعب عليهم مع هذا اكتساب عادات صوتية جديدة مخالفة لعاداتهم الأولى . وليس الأمر كذلك عند الطفل ، فأعضاؤه نطقه في هذا الدور تكون مرنة قابلة للتشكل بمختلف الأشكال .

وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس « مقاومة القديم للجديد » أو « آثار العادات اللغوية » التي سبق أن أشرنا إليها (١) ، والتي تظهر آثارها حتى عند الطيور . فقد لاحظ « لو دانتك » أن صغار الطيور المغننية إذا نشأت مع فصيلة أخرى غير فصيلتها قلدتها في غنائها ، وأنها إذا بقيت مع هذه الفصيلة حتى

(١) أنظر أول صفحة ١٢٦ .

كبرت ورسخت عندها هـ هذه العادة الغنائية صعب عليها بعدئذ تقليد صوت
فصيلتها نفسه .

ولمهارة الطفل في التقليد اللغوي في هذه المرحلة ، تسرى إليه في أمد قصير
لهجة المقاطعة التي ينتقل إليها أهله . فقد ذكر الأستاذ « شافر Schaffer » أنه
قضى شهرين من أجازته الصيفية بفرنكونيا فلاحظ أن ابنه ، الذي كان يبلغ
حينئذ سنتين وثلاثة أشهر ، قد سرت إليه لهجة هذه البلدة ، فأخذ ينطق بالكلمات
الألمانية وفق لهجتهم في نطقها ، وأن هذا الأسلوب قد لازمه بضعة أشهر بعد
رجوعه إلى بلده . — وذكر الأستاذ « جويوم » ، أنه قضى مرة إجازته بشرقي
فرنسا ، فلاحظ أن أولاده ، الذين كانوا يزيدون في سنهم عن ابن شافر ،
ينطقون حرف الراء الفرنسي R كما ينطق به أهل هذه المقاطعة وكما ينطق بالراء
في اللغة العربية (وهذا يخالف طريقة النطق به في منطقة باريس وما إليها ، فأهل
هذه المنطقة يلفظونه بين الراء والغين) . — وقد قضيت أنا مرة إجازتي مع
أسرة باريسية بقرية من قرى فرنسا تسمى سان كورنتان Saint Corentin
متاخمة لمقاطعة نورمانديا ، فأدهشني كثيراً أن طفلة صغيرة من هذه الأسرة ،
كانت حينئذ في الخامسة من عمرها ، قد سرت إليها ، بعد بضعة أسابيع من إقامتنا ،
لهجة هذه القرية ، مع أن اختلاطنا بأهلها كان قليلاً . فأصبح أسلوب حديثها
وتركيبتها للجمل ونطقها بالكلمات مطابقاً لأسلوب حديثهم وتراكيبهم ونطقهم .
وظهر هذا لديها حتى في مخارج الأصوات نفسها وطريقة النطق ببعض حروف
المدد . فقد استحال مثلاً صوت المدد الفرنسي oi (وا) في لسانها إلى صوت واو
مدودة بالألف المائلة wai كما كان شأنه في لسان أهل هذه القرية (فكلمة Poir
مثلاً كانت تنطقها pwair ، وكذلك كل الكلمات المشتملة على صوت oi) .
وعبثاً حاولنا إصلاح ما أصاب نطقها من لحن وتحريف ؛ فإنها لما شعرت
بامتعضنا من طريققتها وسخرينتنا بها كانت تجتهد في أثناء كلامها معنا أن تكون
باريسية اللهجة ، فإذا خلت إلى أطفال هذه القرية أو كبارهم عادت إلى طريققتها .

ويقيت آثار هذه اللهجة في حديثها بضعة أسابيع بعد عودتنا إلى باريس .
٨ - ولا يقتصر نشاط الطفل التقليدي في هذه المرحلة على الأصوات اللغوية ، بل يمتد كذلك إلى ما عداها من الأصوات ، كأصوات الحيوان والطيور ومظاهر الطبيعة والأصوات الشاذة وأصوات المصابين بعايات في النطق والأصوات التي تحدثها الأفعال كأصوات الضرب والقرع والسقوط وما إلى ذلك . وهم في هذه الناحية كذلك أمهر كثيراً من السكبار . فقد لاحظ العلامة تين Taine أن الأطفال في هذه المرحلة أدق وأمهر من السكبار في محاكاة أصوات الحيوان في صورتها الطبيعية . وذكر العلامة جوتمان أنه كان يتدرب على فن التكلم الجوفى Ventriloquie ، (وهو معالجة النطق في صورة تشعر السامع أن الكلام صادر من بطن المتكلم أو من شخص آخر غيره . وقد مهر فيه كثير من المشعوذين الذين يحاولون إيهام الناس أن الجن تلابسهم وتنطق من جوفهم) فأدهشه أن ابنه الصغير ، الذي لم يكن يتجاوز حينئذ الثانية من عمره ، قد سبقه كثيراً في هذا المضمار بمجرد سماعه لمحاولات أبيه .

هذا ، ويبدو أن اتجاه الطفل لمحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التي تحدثها الأفعال يظهر قبل اتجاهه إلى محاكاة الكلمات . فقد كان في استطاعة ابنتي عفاف في الشهر الثالث من سنتها الثانية (٩ / ٤ / ٣٥) أن تحاكي صوت طائفة كبيرة من الحيوان ، مع إنها إذ ذاك لم تكن لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهي « بابا » . وقد كان في استطاعة ابني إقدام في الشهر الثاني من سنته الثانية أن يحاكي أصوات كثير من الحيوانات والأشياء للإشارة إليها (« فو » = الطيارة أو السيارة ، « آ آ » = الدجاجة ، « آ آ » = الضرب . . . الخ) مع أنه في هذه المرحلة ما كان يستطيع النطق إلا بأربع كلمات .

ويسلك الطفل في تقليده لهذا النوع طريقتين : إحداهما أن يلفظة في صورته الطبيعية أي في أصوات مهمة ، وفي هذه الطريقة على الأخص تظهر مهارة الطفل وثانيتهما أن يمثله في أصوات ذات مقاطع وأصوات مد (« ماء » ، لشغاء الخروف ،

« كاك » لصوت الدجاجة ، « هو هو » لنباح الكلب . . . وهلم جرا .

(ثانياً) ومن أهم الظواهر المتعلقة بالدلالة في هذه المرحلة الأمور الآتية :

١ - على الرغم من أن فهم الطفل لمعاني الكلمات يبدو لديه في المرحلة السابقة لمرحلة التقليد كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ^(١) ، فإن درجة فهمه تظل مدة طويلة ضعيفة وغير دقيقة . - ويبدو هذا في مظاهر كثيرة أهمها ما يلي :

(١) أنه في أوائل هذه المرحلة يستخدم الكلمات القليلة التي يستطيع النطق بها استخدامها واسعاً يدل على عدم دقته في فهم مدلولاتها ، فيحتمل كلا منها من المعاني أكثر مما يحتمله ، ويعبر بها عن جميع ما يرتبط بمعناها الأصلي برابطة ما . وقد يتجاوز هذا كله فيعبر بها عن أمور لا صلة لها مطلقاً بمعناها الأصلي . فيطلق مثلاً « كاك » على الدجاجة ، والإناء الذي تقدم فيه ، والطاهى الذي يعدها ، وغرفة الطهى التي تعد فيها ، والسكين الذي تذبج به ، والقفص الذي تحبس فيه ، والبيضة التي تبيضها . . . ، وقد يتجاوز هذا كله فيطلقها على شيء أجنبي عنها كالمكتب مثلاً لأدنى ملابسه في ذهنه أو لاضطراب معناها لديه . - وقد لاحظت أن ابنتي عفاف في أوائل سنتها الثالثة تطلق كلمة « ننا » على النوم وما يشق منه ، وعلى جميع الأمور التي تشبهه أو تمت إليه بصلة ؛ فكانت تطلقها على السرير ، وعلى الاختفاء فتقول « الكاكا ننا » قاصدة التعبير عن اختفاء الدجاجة عن الأنظار ، وعلى البعد والإبعاد فتقول « ماما ننا » معبرة عن رغبتها في أن تبعد أمها عن مجلسنا ، وعلى حفظ الشيء بعد الفراغ من استخدامه فتقول « فوطة ننا » أى أن المشوش (الفوطة) قد انتهت الحاجة إليه وحفظ في المكان المعتاد حفظه فيه . وكانت تطلق لفظ إمة = عمة (أى عمامة) على العمامة وعلى الشخص الذى يلبسها .

وهذا التوسع في الاستعمال لا ترجع أسبابه دائماً إلى ضعف الفهم وعدم الدقة في إدراك المدلولات ، بل ترجع أحياناً إلى ضآلة محصول الطفل في الكلمات في ذلك العهد وحاجته إلى التعبير على أى وجه ، وترجع أحياناً إلى الأمرين مجتمعين .

(ب) أنه في أوائل هذه المرحلة يطلق اسم الجنس على غير أفراده لأدق مشابهة. فقد لاحظت أن ابنتي عفاف، كانت، إلى أواخر السنة الثانية، تطلق « كاك » (ومعناها الأصلي في لغتها الدجاجة) على الدجاج والحمام والإوز والبطة... وما إليها؛ وكلمة « ماء » (ومعناها الأصلي في لغتها الحروف) على الحروف والحمار... وما إليهما؛ و« ماما » على جميع السيدات و« بابا » على جميع الرجال... وهلم جرا.

وكما تقدمت سن الطفل وكثر محصوله اللغوي، يدق فهمه، وتتحدد معاني الكلمات في ذهنه، فتتخلص من المدلولات الأجنبية التي كانت عالقة بها، وتميز لديه الأجناس بعضها من بعض، فيطلق على أفراد كل منها اسمها الخاص بها.

٢ — وفي أوائل هذه المرحلة تبدو لغة الطفل عارية عن الصرف والاشتقاق؛ فكل كلمة من كلماته تلازم شكلاً واحداً، وتدل في شكلها هذا على جميع ما يشتق منها ويتصل بها. وبتقدم الطفل في هذه المرحلة يدرك العلاقة بين تغير بنية الكلمة وتغير معناها أو زمنها، فتظهر حينئذ عناصر الصرف والاشتقاق في لغته.

٣ — وفي مبدأ ظهور هذه العناصر يميل الطفل إلى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات. فتراه مثلاً يتبع طريقة واحدة في التأنيث. فيقول خروف وخروفة وحصان وحصانة كما يقول كلب وكلبة.

٤ — يفتتح الطفل هذه المرحلة بالنطق بكلمات مفردة قاصداً بها التعبير عما نعبر عنه بالجملة: فيقول مثلاً — « باب » قاصداً افتتح الباب؛ و« شباك » قاصداً إقفل الشباك؛ و« عصا » قاصداً اضرب القط بالعصا... وهلم جرا؛ ويفهم غرضه من السياق والظروف المحيطة به والإشارات اليدوية والجسمية التي تصحب كلامه. ويختار الطفل عادة للتعبير عن الجملة الكلمة التي يجيد النطق بها أو الكلمة التي تسبق غيرها إلى لسانه، ولو لم تكن ذات أهمية في المعنى الذي يريد تقريره. فمن ذلك أن ابنتي عفاف وسنها ثمانية عشر شهراً وبضعة أيام (٢ / ٨ / ٣٥) كانت تسير القهقري، فعثرت في إناء كان يوضع فيه اللبن لهرتها وأولادها الصغار، وكاد

يختل توازنها ؛ ولما تبين لها السبب في عثرتها قالت «بو» (بو = أمبو = الشرب) ؛
أى إن السبب في ذلك هو الإناء الذى تشرب فيه الهرة وأولادها لبنها .
ثم ترتقى لغة الطفل بهذا الصدد فتصبح ثنائية الكلمات (عفاف في أوائل السنة
الثالثة : « ماء مم ، أى الحروف يأكل ؛ « ماما ننا ، أى يجب أن تغادر ماما هذا
المكان . . .) . وبعد ذلك بقليل تصبح لغته ثلاثية الكلمات (عفاف في الشهر الرابع
من السنة الثالثة : « ماما أوه إنا ، = ماما ألم هنا ، مشيرة إلى رقبة والدتها ، أى أن
برقبة أمها المأ أو مرضاً) .

أما تركيب الجمل تركيباً كاملاً فلا يصل إليه الطفل إلا في أواخر هذه المرحلة .
٥ - وفي مبدأ ظهور الجمل في لغة الطفل تبدو عارية عن الروابط والحروف ،
ويبدو تركيبها ساذجاً ، وتبدو كلماتها بدون تنسيق ولا ترتيب ، فيوضع بعضها بجانب
بعض كيفما اتفق . ومن نماذج ما قالته ابنتى عفاف في ٢٠ / ٧ / ٣٦ ؛ أنا نونو
(صغيرة) دده (هكذا . - وقوست ظهرها لتمثل الحالة التى كانت عليها وهى
صغيرة) ماما دز (بز ، ثدى) ساه (شاي) ؛ أى حينما كنت صغيرة على هذه
الصورة كانت والدتى ترضعنى الشاي فى الثدى الصناعى .

وقد يرتب الطفل أحياناً كلمات جملته بشكل يتفق مع ما لكل منها من أهمية
فى نظره ؛ فيبدأ بأكبرها أهمية ويتدرج حتى ينتهى بأقلها شأناً . فيقول مثلاً :
« عصايا بابا ضرب محمد ، قاصداً أن أباه ضرب محمداً بالعصا . فيقدم «العصا»
لأنها أكبر عناصر الجملة أهمية فى نظره ، فاتنباهاه قد تعلق بها أكثر من تعلقه بما
عداها ، ولأن بيان آلة الضرب هو أهم ما يرمى إليه من جماته ؛ ثم يتبعها بالكلمة
الدالة على الشخص الذى اتصل بها اتصالاً مباشراً وقام بتحريكها ، وهو « بابا » ؛
ثم يأتى بالكلمة الدالة على أثر تحريك أيه للعصا وهى « ضرب » ؛ ويختتم جملته
بكلمة « محمد » الذى لم يقم بعمل إيجابى فى الحادث الذى يريد الطفل التعبير عنه .
٦ - وفى قسم كبير من هذه المرحلة يتأثر الطفل فى مفردات لغته وتراكيبها
وقواعدها بأكثر الأفراد مخالطة له وأحبهم إليه كأمه ومربيته وأخيه الأكبر

وأخته الكبيرة ، فتغلب في لغته مظاهر التقليد لهؤلاء ، حتى أنها لا تكاد تختلف في معظم هذه المرحلة عن لغتهم . وعن هذا الطريق ينتقل إلى لغة الطغل ويعلق بها بعض أخطاء في المفردات والقواعد والأساليب ، حتى الأخطاء التي تكون ناشئة عن خلل في أعضاء النطق للشخص الذي تغلب عليه محاكاته ، وتظل هذه الأخطاء ملازمة للطفل أمداً طويلاً . ومن غريب ما لاحظته بهذا الصدد أن ابنتي «حزم» كانت تعبر عن نفسها بصيغة المذكر ، فتقول مثلاً : « أنا نازل ؛ أنا طالع ؛ أنا خارج . . الخ » بدلا من « أنا نازلة ؛ أنا طالعة ؛ أنا خارجة . . الخ » . وهي في ذلك كانت تحاكي أخاها « إقداماً » في تعبيره عن نفسه . ومع أننا نأل جهداً في إصلاح طريقتها هذه وإبداء السخرية بها ، فقد ظلت عالقة بلسانها إلى ما بعد الخامسة من عمرها . ولا يزال إلى الآن ابني نائل ، مع أنه في أوائل السادسة من عمره ، يعبر عن نفسه في بعض الأحوال بصيغة المؤنث ، فيقول مثلاً : « أنا عارفة ؛ أنا عاوزة ؛ » بدلا من « أنا عارف ؛ أنا عاوز (أريد) » . — ولكنه في ذلك ، على ما يظهر لي ، لا يقلد إحدى أخواته ، وإنما يقلد والدته في تعبيرها عن نفسها لشدة ملازمته لها .

٧ — وأول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هي أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال ^(١) ، ثم الصفات ^(٢) . ثم الضمائر (ولعدم وجود الضمائر في لغة الطفل

(١) لاحظت أن أول نوع من الأفعال ظهر في لغة ابنتي عفاف كان فعل الأمر . ففي أوائل السنة الثالثة (ابتداء من ٣٦/٣/٤) نطقت بفعل « تعانى » = تعال (أمر بالجيء) و « اسقنى » (أمر بالانتظار) وكانت تستعمل هذين الفعلين مسندين للمذكر دائماً ولو كان المخاطب مؤنثاً ، و « أدى » = خدى (أمر بالأخذ) و « آتى » = هاتى (أمر بالاعطاء) وكانت تستعملهما مسندين للمؤنث دائماً ولو كان المخاطب مذكراً . — ولم يظهر المضارع والماضي في لغتها إلا في مرحلة لاحقة لهذه المرحلة . ومثل هذا لاحظته على أولادى إقدام وحزم ونائل ووفاء . وقد ظهر فعل من أفعال الأمر وهو « أوم = قم » عند ابنتي حزم في سن مبكرة (في الشهر الخامس من سنتها الثانية) كما سبقت الإشارة إلى ذلك بصفحة ١٢٨ وتعليقها الأول .

(٢) قد تظهر الصفات عند بعض الأطفال في مرحلة سابقة لمرحلة ظهور الأفعال ، بل لاحظ العلامة بريير Preyer أن أول كلمة نطق بها ابنه كانت صفة . — والذي لاحظته على ابنتي عفاف أن الصفات والأفعال قد ظهرا لديها في وقت واحد ، ولكنها ظهرا متأخرين عن أسماء الذوات ، =

في مبدأ هذه المرحلة نراه يعبر عن نفسه باسمه العلم فيقول مثلاً « فيني مم ، أى فيني تريد أن تأكل ^(١)) ، ولا تظهر الحروف وما يشبهها من الظروف وأسماء الشرط إلا في منتصف هذه المرحلة أو أواخرها ^(٢) . ولذلك تظهر جمل الطفل في المبدأ عارية عن الروابط والحروف كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(٣) .

والسبب في هذا راجع إلى أن الطفل يسير في ارتقائه اللغوى وفقاً لارتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكرى في مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ؛ ولذلك اقتصر متن لغته في هذا الدور على أسماء الذوات . فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ؛ وحينئذ تظهر في لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان)

في الوقت الذى كانت تنطق فيه بأفعال الأمر التى تقدمت إليها الإشارة في التعليق السابق كانت تنطق ببعض صفات : من ذلك « دح » بمعنى جميل (٤ / ٣ / ٣٦) و « أمجح » بمعنى أحمر (وكانت تستعمله في صيغة المذكر دائماً ولو كان الموصوف مؤنثاً) و « بيده » أى بيضاء (وكانت تستعملها في صيغة المؤنث دائماً ولو كان الموصوف مذكراً) وقد ظهر لديها في ١١ / ٧ / ٣٦ . ومثل هذا لاحظته على أولادى اقدم وحزم ونائل ورفاء .

(١) غير أنى لاحظت على ابنتى عفاف أن ضمير المتكلم المنفصل « أنا » قد ظهر في لغتها يوم ٢٩ / ١ / ٣٦ أى قبيل ظهور الصفات والأفعال ، ولاحظت كذلك أنها تستخدمه استخداماً صحيحاً فلا تعامله معاملة الأعلام كما يفعل بعض الأطفال في هذه المرحلة بل تستعمله حينما تريد الإشارة إلى نفسها .
(٢) لم تظهر الحروف وما إليها في صورة واضحة عند ابنتى عفاف إلا في أوائل الشهر الرابع من سنتها الثالثة . ففي ١١ / ٥ / ٣٦ ظهرت « انا » بكسر الهمزة بمعنى هنا (ماما أوه انا = ماما تشكو ألبا هنا مشيرة إلى رقبته) ، وفي ١١ / ٧ / ٣٦ ظهر في لغتها « بيدي » بمعنى بعيد ، « ايه ده » أى ما هذا و « ياء النداء » (ايه ده ياأبا = ما هذا ياأبا) .

أما قبل هذا العهد فما كان يوجد في لغتها من هذه الفصيحة الا كلمتان ظهرتا مبكرتين قبل أواسمهما : احداها « نا » بنون مفتوحة همزة ساكنة ، بمعنى لا (أداة النفي . — وقد ظهرت في الشهر التاسع من سنتها الثانية) وثانيتها « نام » بنون مفتوحة همزة ساكنة فم ، بمعنى نعم (أداة الإيجاب . وقد ظهرت يوم ٢٠ / ١٢ / ٣٥) . ومن غريب ما لاحظته على ابنتى عفاف بهذا الصدد أن واو العطف ، مع كثرة تكرارها في الكلام ومع فهمها لمدلولها قد تأخر ظهورها كثيراً في لغتها . فقد طلب إليها يوم ٢٦ / ٧ / ٣٦ أن تقول للخادمة : « انت كخ وعبيطة » فقالت لها : « انت كخ انت أبيطة » فكررت الضمير بدلا من واو العطف ، ومن الواضح أن تكرارها الضمير دليل على فهمها لمدلول واو العطف .

(٣) أنظر صفحة ١٣٥ رقم ٥ .

والصفات (الدالة على معنى كلى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما .
ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولاً ، لم يتح له فهمها إلا
في أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعاً لذلك .

وقد قسم العلامة شترن Stern هذا الطريق إلى ثلاث مراحل : سمي أولها
« مرحلة المادة » Stade de la substance وهي المرحلة التي تظهر فيها أسماء
الذوات ؛ وسمي ثانيها « مرحلة العمل » Stade de l'action وهي المرحلة التي
تظهر فيها الأفعال ، وسمي الثالث « مرحلة العلاقات » Stade des relations
وهي المرحلة التي تظهر فيها الحروف والروابط .^(١)

٨ - يكثر في لغة الطفل في أوائل هذه المرحلة الكلمات المأخوذة عن
أصوات الحيوان والأشياء والتي يقصد بها التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل
بها (ماء للخروف ، وكاكا للدجاجة ، وأأ للضرب ، ومم للأكل . . . وهلم جرا) .
وقد ثبت أن بعض هذه الكلمات يصل إليها الطفل بنفسه بدون تلقين الكبار .

٩ - يعتمد الطفل في معظم هذه المرحلة اعتماداً كبيراً على لغة الإشارات ،
فيميز بها بلغته الصوتية لتحديد مدلولها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل
حقائقها^(٢) . وقد يستخدمها وحدها في التعبير عما يود التعبير عنه . ويكثر
هذا لديه قبل ظهور اللغة ، أي قبل دخوله في مرحلة التقليد ، وفي أوائل هذه المرحلة .
ففي أوائل السنة الثانية كانت ابنتي عفاف تقتصر في التعبير عن كثير من حاجاتها
على الإشارة اليدوية والجسمية . فمن ذلك أنها في تعبيرها عن الفيل كانت تقبض
أصابعها ما عدا السبابة وتضع كفها بهذا الشكل تحت شفيتها وتحرك السبابة كما

(١) V. Delacroix : Language et Pensée 304, 305

(٢) من أوضح النماذج بهذا الصدد ما صدر عن ابنتي عفاف (يوم ١٣ / ٣ / ٣٦) إذ أشرت
في كتاب فرنسي الصورة غزال يرعى السكلاً وطلبت اليها أن تذكر ما تمثله هذه الصورة
فقلت « ماء مم » (أي حيوان يأكل) وعززت هذا بأن مثلك هيئة حيوان وحركت فكها
وشفتيها كما تحركها في أثناء الأكل . انظر مثلاً آخر بصفحة ١٣٥ رقم ٥ .

يحركة المصلى في تشهده ، ممثلة بذلك خرطوم الفيل وحركته . وكانت تستخدم هذه الحركات كلما طلبت الذهاب إلى حديقة الحيوان ، أو سئلت عما رأته بها ، أو طلب إليها بيان ما تمثله صورة فيل . . . وهلم جرا . وقد تبلع لغة الإشارة عند بعض الأطفال شأواً كبيراً ، فيستطيعون التعبير بها عن معانٍ دقيقة وقصص طويلة . فقد أردت مرة (٢٢ - ١١ - ٣٥ أى في أواخر السنة الثانية) أن أشغل ابنتي عفاف عن اللعب في سريرها لتتفرغ للنوم ، فأخذت أقص عليها بالألفاظ التي تفهمها وبالحركات قصة طويلة تتعلق بأسد كان يأكل قطعة لحم فسقط عليه غراب وضربه بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم وطار بها حتى نزل على شجرة وأخذ يأكلها . فاستأثرت هذه القصة بانتباهها . وكانت كلما فرغت من مرحلة من مراحلها . تشير إلى إشارة الفاهم المتبوع لحديثي قائلة : « إيه ، إيه ، » وبعد أن فرغت من القصة أخذت أسألها عنها كما يفعل المدرس عقب درس محادثة ، فطفقت تمثل بحركات يديها وفيها أعمال الأسد وهو يتناول غذاءه ، ثم حركات الغراب إذ ضرب الأسد بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم ، وإذ طار بها إلى الشجرة . . . الخ غير مستخدمة في ذلك إلا بضع ألفاظ ، ككلمة (أأ) التي كانت تعبر بها عن الضرب ، وكلمة « مم » التي كانت تعبر بها عن الأكل .

المرحلة الرابعة ، مرحلة الاستقرار اللغوي :

وهي المرحلة الأخيرة في هذا السبيل ، وتبدأ من سن السادسة أو السابعة أو الثامنة تبعاً لاختلاف الأفراد . وبدخول الطفل في هذه المرحلة تستقر لغته وتمكن من لسانه أساليبها الصوتية ، وترسخ لديه طائفة كبيرة من العادات الكلامية الملائمة لطبيعتها الخاصة .

ومن أجل ذلك يشعر الطفل في هذه المرحلة بصعوبة كبيرة في تعلم اللغات الأجنبية . وتبدو هذه الصعوبة أوضح ما يكون في النطق بالكلمات المشتملة على أصوات لا نظير لها في أصوات لغته . فالطفل المصري مثلاً يجد في هذه المرحلة

صعوبة كبيرة في النطق بالكلمات الأفرنجية المشتملة على مثل هذه الحروف .

v, p, g, u, eu ..etc

هذا ، ولا ينتهي الأمر بلغة الطفل في هذه المرحلة إلى أن تكون مطابقة كل المطابقة للغة الجيـل الذي أخذها عنه ، بل تستقر لديه في صورة تختلف بعض الاختلاف عن لغة آباءه . ويرجع هذا الاختلاف إلى أسباب كثيرة سنعرض لها في الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب .

(٤) عوامل كسب الطفل للغة

يتوقف التقليد اللغوي عند الطفل على عوامل كثيرة من أهمها ما يلي :

١ — وضوح الإحساسات السمعية وتمييزها بعضها عن بعض :

يولد الطفل أصم ، ويمتد صممه هذا حتى اليوم الرابع أو الخامس ، وحينئذ تبدو لديه أمارات السمع . غير أن إحساساته السمعية تظل مبهمه إبهاما كبيرا ويظل عاجزاً عن تحديد مصادرها حتى أواخر الشهر الرابع ؛ ثم ترتقي ارتقاء بطيئاً حتى أوائل السنة الثانية ؛ ثم تدخل في دور النضج الذي يستغرق أمداً غير قصير . فبالموازنة بين هذه المراحل والمراحل التي تسير فيها لغة الطفل ، والتي سبق الكلام عنها في الفقرة السابقة ، يتبين أن ظاهرة التقليد اللغوي تتبع في رقيها ظاهرة الإحساس السمعي .

أما السبب في ذلك فلا يحتاج إلى بيان . فالطفل في تقليده يحاكي ما يصل إليه عن طريق السمع . فمن البديهي أن تتوقف هذه المحاكاة على وجود قدرة السمع لديه وأن تتأثر في ارتقائها بما ينال هذه الحاسة من دقة وتهذيب .

ولذلك ترى أن من يولد أصم ينشأ أبكم ، ولو كانت أعضاء نطقه سليمة .

٢ — الحافظة والذاكرة السمعيتان . — ونعني بذلك القدرة على حفظ

الأصوات المسموعة وعلى تذكرها واستعادتها عند الحاجة إليها .

ولا تبدو هذه القدرة عند الطفل إلا بعد بضعة أسابيع بعد ولادته (١) ،

(١) تظهر متأخرة عن موعد ظهور « الذاكرة البصرية » (ذكر الأشياء المنظورة) .

وتظل ضعيفة حتى أواخر الشهر الرابع ، ثم ترتقي ارتقاءً بطيئاً حتى أوائل السنة الثانية ، وحينئذ تبدأ مرحلة نضجها .

فهذا العامل يقطع في طريق نموه المراحل نفسها التي يقطعها العامل الأول ، وتصحبهما في سيرهما ظاهرة التقليد اللغوي : تظهر بظهورهما وتنمو بنموهما .

أما وجه توقف التقليد اللغوي على هذه الظاهرة فلا يقل وضوحاً عن توقفه على الظاهرة الأولى . وذلك أن الكلمة التي يحاكيها الطفل لا تصبح جزءاً من لغته إلا إذا استطاع حفظها واستعادتها عند الحاجة إلى التعبير عما تدل عليه .

٣ - فهم الطفل لمعاني الكلمات . - على الرغم من أن فهم الطفل لمعاني الكلمات يسبق قدرته على النطق بها كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فإن هذا الفهم شرط ضروري للتقليد اللغوي وعامل أساسي من عوامل نموه . وقد عرضنا في الفقرة السابقة لأمر كثيرة تدل على توقف التقليد اللغوي على هذا العامل ، وثبت أن كل ارتقاء في تفكير الطفل ودرجة فهمه يتبعه ارتقاء في تقليده ونمو في حصوله اللغوي ، وتبين وجوه العلاقة بين الأمرين ^(١) . ولا أدل على هذا التوقف وهذا التلازم من أن الطفل الذي يولد مصاباً بجنون يحول بينه وبين فهم معاني الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضائه سمعه ونطقه سليمة .

فالعوامل الثلاثة السابقة مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، والتقليد في اللغة متوقف عليها مجتمعة في نشأته وفي تطوره . فعدم ظهوره قبل الشهر الخامس يرجع سببه إلى عدم وجودها قبل هذه السن ؛ وضعفه في مرحلة « التمرينات النطقية » يرجع سببه إلى ضعفها في هذه المرحلة ؛ وقوته في المرحلة التالية (مرحلة التقليد اللغوي) مدين بها الطفل لقوتها في هذا الدور .

غير أنه قد يحدث عند بعض الأطفال أن يتخلف التقليد عن هذه العوامل الثلاثة . فقد لوحظ أن بعض الأطفال يفهمون في سن مبكرة معظم ما يقال لهم (وفي هذا دليل على توافر العوامل الثلاثة توافراً كاملاً) ؛ ومع ذلك لا تظهر لديهم بوادر المحاكاة اللغوية إلا في السنة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة . ولوحظ كذلك

(١) أنظر مميزات الدلالة في هذا الدور بصفحات ١٣٣ - ١٣٩ وخاصة آخر ص ١٣٦ - ١٣٨ .

أن بعض الأطفال يتقدمون كثيراً في السن ولا يتكلمون إلا بمعالجة واستخدام وسائل غير طبيعية مع سلامة أعضاء نطقهم وسمعهم وقواهم الفكرية ، ومع أن سلوكهم في مرحلة بكمهم هذه يدل على فهمهم لما يوجه إليهم أو يقال حولهم من حديث ، ولو حظ أن هذا التأخر اللغوي يتبعه غالباً تأخر في المشي عند الطفل . ويرجع في الغالب سبب هاتين الظاهرتين معاً (تأخر الكلام وتأخر المشي) إلى خمول محلي في أعضاء النطق والحركة ، أو كسل طبيعي عام ، أو تراخي الطفل وقلة نشاطه وضعف رغبته في الاشتراك في الحياة الاجتماعية . ولهذا يجدر أن نضيف إلى هذه العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً ، وهو نشاط الطفل الحيوي وقوة عزمه وإرادته ورغبته في الاشتراك في حياة الحياة .

(٥) أثر النظر في التقليد اللغوي

تري طائفة من الباحثين - على رأسها الأستاذ Onufrowicz أن لحاسة النظر دخلاً كبيراً في التقليد اللغوي ، وأن رؤية الطفل لشفتي المتكلم وحركتهما ، وعمله على محاكاة هذه الحركة ، وإخراجه الصوت الذي يتلامم معها ، كل ذلك يساعده على إجادة عملية التقليد ويذلها له ، وأن هذه الرؤية لا تقل أثراً بهذا الصدد عن العوامل الثلاثة التي ذكرناها في الفصل السابق . وأهم الأدوات التي يقدمها هؤلاء على صحة نظريتهم ترجع إلى ما يلي :

- ١ - أن الطفل في مبدأ هذه المرحلة لا يستطيع محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له . وهذا دليل على توقف التقليد اللغوي ، في مرحلته الأولى على الأقل ، على رؤية شفتي المتكلم وملاحظة حركاتهما .
- ٢ - أن الأطفال في مرحلة « التمرينات النطقية »^(١) ، وهي المرحلة السابقة لمرحلة التقليد اللغوي ، يوجهون اهتماماً كبيراً إلى ملاحظة شفتي المتكلم وحركاتهما ويحركون شفاههم في صورة يحاولون بها محاكاة ما رأوه بدون أن يلفظوا

(١) أنظر ص ١٢٠ وتوابعها .

صوتاً ما . وهذا يدل على أن محاكاة الطفل للآثار المرئية للصوت تسبق تقليده للصوت نفسه ، وتمرنه على هذا التقليد ، وتهيء له عنصراً هاماً من عناصره .

٣ — أن أول كلمات يقلدها الطفل هي الكلمات التي تكثر فيها الحروف الشفوية وهي الحروف التي تخرج من الشفتين ويقتضى نطقها تحركهما حركات ظاهرة مرئية تصل إلى الطفل عن طريق حاسة البصر: « بابا » ، « ماما » ... الخ . وفي هذا دليل على أهمية النظر في التقليد اللغوي ، وخاصة في المراحل الأولى لهذا التقليد .

٤ — أن الطفل الأكمه (الذي يولد أعمى) يقضى في كسب اللغة عن طريق التقليد مدة أطول من المدة التي يقضيها في العادة طفل بصير أو طفل طرأت عليه هذه العاهة بعد أن قطع قسماً من مرحلة التقليد اللغوي . فللنظر إذن دخل كبير في سير هذا التقليد وتخفيف أعبائه وتيسير عناصره .

٥ — أن الأطفال الذين يولدون صماً يمكن تعليمهم النطق عن طريق محاكاتهم للحركات المرئية التي تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم . فللنظر إذن أهمية كبيرة في عملية التقليد اللغوي ، حتى أنها قد تتم أحياناً بمساعدة النظر وحده وتستغنى استغناء تاماً عن السمع .

وقبل أن نعرض لقيمة هذه الأدلة ، يجدر بنا أن نبين أن النظرية نفسها قائمة على أساس غير سليم .

وذلك أن عملية التقليد اللغوي يتوقف نجاحها على مبلغ مطابقتها للأصل الذي تحاكيه ، وأن هذه المطابقة لا يصل إليها الطفل لأول وهلة ، بل تقتضيه معالجة صوته والعمل بالتدرج على إصلاح ما عسى أن يكون قد وقع فيه من أخطاء ، كما تقدم بيان ذلك (١) . ويتاح للطفل هذا الإصلاح بفضل إحساسه الصوت الذي يلفظه والموازنة بينه وبين الصوت الذي سمعه أو بينه وبين ما يذكره عن هذا الصوت . ولو كان الطفل يعتمد في تقليده اللغوي على محاكاة ما يراه من حركات

(١) أنظر آخر صفحة ١٢٣ — ١٢٥ .

الشفيتين ، كما تقول هذه النظرية ، لما استطاع سبيلا إلى هذا الإصلاح . لأنه لا يمكنه أن يرى كيف تتحرك شفثاه هو ، فلا يستطيع أن يعرف إن كانت حركاتهما قد جاءت مطابقة للحركات التي رآها أم غير مطابقة لها ، ولا يستطيع تبعاً لذلك أن يحدد مواطن الخطأ تحديداً دقيقاً ولا أن يصل إلى مطابقة صحيحة .

هذا إلى أن معظم الأصوات اللغوية تعتمد في مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة كحركات الجوف والحلق والحنك واللسان . فليس في اللغة العربية مثلاً إلا أربعة أصوات شفوية (الفاء والباء والميم والواو) ، بينما تشتمل على أربعة وعشرين صوتاً من الأنواع الأخرى . فلو كان للنظر دخل ما في التقليد اللغوي لتعذر على الطفل أو صعب عليه محاكاة قسم كبير من أصوات لغته ، أو لكانت محاكاته للأصوات الشفوية أدق من محاكاته لما عداها ، وكلتا هاتين النتيجتين لا تتفق مع الواقع في شيء .

وأما الأدلة التي يعتمد عليها أصحاب هذه النظرية والتي سبق تلخيص أهمها ، فبعضها يتضمن حقائق غير مسلم بها أو غير صحيحة ، وبعضها لا يدل دلالة قاطعة على ما يذهبون إليه ، وبعضها يظهر من تحليله أنه دليل عليهم لا لهم :

١ - فأما ادعاؤهم أن الطفل في أول مرحلة التقليد اللغوي لا يستطيع محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له ، فلا يتفق مع الواقع في شيء . إذ الحقيقة أن الطفل في فاتحة هذه المرحلة كثيراً ما يحاكي أصواتاً وكلمات لا يرى مصدرها أو يبعد مصدرها عنه بحيث لا يستطيع أن يرى حركات فمه وشفثيه ، ولا تقل محاكاته إياها في جودتها عن محاكاته لما يصدر عن شخص مواجه له .

٢ - وأما ما يوجهه الطفل في مرحلة التبرينات النطقية ، من اهتمام بملاحظة شفثي المتكلم ، فليس ذلك ناشئاً عن رغبته في تقليد حركاتهما كما يزعم أصحاب هذه النظرية ، وإنما ينشأ عن رغبته في الوقوف على مصدر الصوت . وهذه الرغبة فطرية قائمة على غريزة الاستطلاع عند الطفل ، وتبدو حياض جميع الأصوات

سواء في ذلك أصوات الأناسي والحيوانات والأشياء ، وتظهر أماراتها لديه من الشهر الرابع أى في المرحلة نفسها التى تبدأ فيها « الترينات النطقية » .

هذا إلى أن الطفل فى هذه المرحلة يميل إلى التحديق فى كل ما يتحرك أمامه ، ويتبعه بنظره ما دام متحركاً ، لا لرغبته فى تقليد حركته ، بل لمجرد رغبته فى رؤية الحركة وتتبعها . وهذا ضرب مما يسميه علماء النفس « ألعاب الحواس » ، عند الطفل (١) . وهو قائم كذلك على غريزة حب الاستطلاع . فملاحظة الطفل لشفتى المتكلم فى أثناء تحريكهما لا تختلف فى الباعث عليها عن ملاحظته لأية هنة تتحرك أمامه .

٣ - وأما ما يعمله الأطفال أحياناً ، عقب ملاحظتهم لشفتى المتكلم ، من تحريك شفاههم فى صورة يحاولون بها تقليد ما رأوه بدون أن يلفظوا صوتاً ما ، فقد دلت الملاحظات على أن هذه الظاهرة لا تبدو لديهم إلا حوالى الشهر السابع ، أى فى مرحلة « التقليد اللغوى » نفسها أو قبلها بأمد يسير . فالتفسير المعقول إذن لهذه الظاهرة هو أن الطفل فى هذه المرحلة المبكرة نوعاً ما يحاول محاكاة الأصوات الجهرية التى يسمعها بأن يلفظها فى أصوات خفية غير مسموعة ؛ ومحاولته هذه هى التى تجعل شفثيه تتحركان حركات مطابقة لحركات شفثى المتكلم أو مشابهة لها . فلستنا إذن بصدد محاكاة مقصودة لحركات الشفثين ، بل بصدد محاولة لمحاكاة الصوت المسموع محاكاة خفية تصحبها حتماً حركات الشفثين فى صورة غير مقصودة بالذات .

٤ - وأما زعمهم أن أول كلمات يقلدها الطفل هى الكلمات التى تسكر فيها الحروف الشفوية (وهى الحروف التى تخرج من الشفثين ويقتضى نطقها تحريكهما حركات ظاهرة مرئية تصل عن طريق حاسة النظر) فزعم غير صحيح . فقد دلت المشاهدات على أن الفوج الأول من كلمات الطفل يتألف من أصوات متنوعة المخرج والصفات (٢) .

(١) أنظر كتابنا « اللعب والعمل » ، ص ٣٧ .

(٢) انظر صفحتى ١٢٧ ، ١٢٨ .

٥ — وأما ما يظهر لدى الطفل الأكمه من ضعف في التقليد اللغوي وطول في المدة التي يقضيها في كسب لغته بالقياس إلى الطفل البصير ، فلا يرجع سببه إلى عدم رؤية الحركات التي تبدو على شفهي المتكلم كما يدعي أصحاب النظرية التي نحن بصدددها ، وإنما يرجع إلى صعوبة فهمه لمعاني ما يسمعه من كلمات . وذلك أن من وسائل هذا الفهم ما لا يتاح الانتفاع به إلا للبصير ؛ كإشارة المتكلم في أثناء النطق بالكلمة إلى الشيء الذي تدل عليه ، وكالحركات اليدوية والجسمية التي تصحب الكلام عادة وتساعد على فهم ما يقصد إليه المتكلمون . وقد تقدم أن فهم معاني الكلمات عامل هام من عوامل التقليد اللغوي^(١) . فعدم تمكن الطفل الأكمه من الانتفاع بطائفة من وسائل هذا الفهم ، هو الذي يسبب ضعفه في هذا الصدد ويؤدي إلى تأخره عن البصير .

٦ — وأما تعليم النطق للأطفال الذين يولدون صمًا عن طريق أخذهم بمحاكاة الحركات المرئية التي تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم ، فلا ينهض دليلاً على صحة هذه النظرية لأسباب كثيرة :

منها أن تعلمهم النطق عن هذا الطريق لا يتاح إلا بتربية مقصودة في مدارس خاصة ، وبمعالجة طويلة شاقة ، واستخدام وسائل صناعية كثيرة . فلو ترك الطفل الأصم منذ الولادة وشأنه لنشأ أبكم ، ولو لم يكن به أي عطب في أعضاء نطقه^(٢) . وفي هذا دليل على أن الطفل بطبعه لا يعتمد على نظره في التقليد اللغوي ، ولا يحاول الانتفاع به إلا إذا أخذ بذلك أخذاً ، ووجه إليه توجيهاً مقصوداً ، ودرب عليه بوسائل صناعية ومعالجة طويلة . وغنى عن البيان أن في هذا دليلاً على أصحاب هذه النظرية لا دليلاً لهم .

ومنها أن تعليم الأصم الكلام عن هذا الطريق لا يمكن الشروع فيه قبل سن الثامنة أو التاسعة ، أي بعد انتهاء مرحلة « التقليد اللغوي » ؛ أما قبل ذلك فكل

(١) انظر صفحات ١٣٦ — ١٣٨ ، ١٤١ .

(٢) وكذلك الطفل الذي يصاب بالصمم قبل أن يبلغ الرابعة ، أي قبل أن يقارب مرحلة

الاستقرار اللغوي .

بجهود يبذل في هذا السبيل يذهب أدراج الرياح . وفي هذا دليل على أن الطفل لا يتجه مطلقاً ، في أثناء مرحلة التقليد اللغوي ، إلى الانتفاع بنظرة في المحاكاة اللفظية ، حتى أنه ليتعذر حمله على هذا الانتفاع مهما بذلنا معه من جهود . وفي هذا أقطع دليل على فساد النظرية التي نحن بصدددها .

ومنها أن طائفة كبيرة من الأصوات اللغوية تعتمد في مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاؤها غير ظاهرة كحركات الجوف والحلق والحنك واللسان . ولذلك لا يعتمد معلمو الصم على الإحساسات البصرية وحدها ، بل يلجئون كذلك إلى وسائل أخرى كثيرة ، فيحاولون مثلاً أن يحس تلاميذهم كمية الهواء الخارجة من فم المتكلم ، أو يطلبون اليهم أن يضعوا أيديهم على حلقومه أو صدره أو طرف أنفه أو قمة رأسه . . . حتى يتاح لهم ، عن طريق حواس أخرى غير النظر الذي ظهر عدم كفايته في هذا السبيل ، إدراك الذبذبات الخاصة التي يحدثها كل حرف في أثناء لفظه والتي تساعد على تمييزه والنطق به . وحتى الحروف الشفوية نفسها لا يمكن للصم محاكاتها بمجرد نظرهم لما تؤديه في أثناء النطق بها شفاه أساتذتهم من حركات . وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى كيف تتحرك شفته هو ؛ فلا يمكنه أن يعرف إن كانت حركتها قد جاءت مطابقة للحركات التي يحاول تقليدها أم غير مطابقة لها ، ولا أن يحدد مواطن الخطأ تحديداً دقيقاً ، فيتعذر عليه الوصول إلى مطابقة صحيحة . ولذلك يلجأ معلمو الصم إلى وضع مرآة أمام تلاميذهم ليتمكنوا من رؤية الحركات التي تؤديها شفاههم ، ومن إصلاح ما عسى أن يكون بها من أخطاء بالقياس إلى الأصل الذي يأخذونهم بمحاكاته .

ومنها أن تعليم الصم الكلام لا يكفل بنجاح ما إلا مع النابهين الذين يمتازون بفرط النشاط وحدة الذكاء وصفاء الذهن وشدة الانتباه وقوة الإرادة ، وتحفزهم إلى ذلك رغبة ملحة في الكلام . وحتى هؤلاء أنفسهم ينتهي تعليمهم بنتائج ضئيلة ، ويخرجون بلغة ناقصة مشوهة . أما من عدا هؤلاء فلا يؤتى تعليمهم هذا أية ثمرة

يعتد بها ، ولا يمكن المعلمين ، مهما بذلوا من جهد ، أن يحولوا بينهم وبين لغة الإشارة المحببة إلى طائفتهم .

ومنها أن النتائج التي تتحقق في تعليم الصم الكلام ، يرجع قسط كبير من الفضل في تحققها إلى ما يسمونه « الانقراض السمعية » ، وهي إحساسات سمعية ضئيلة توجد لدى عدد كبير ممن يظن أن صممهم كامل . وقد تبين لمعلمي الصم أهمية هذه « الانقراض » فوجهوا معظم جهودهم إلى استغلالها والانتفاع بها في تعليم الصم الكلام .

(٦) أساس التقليد اللغوي عند الطفل

يتبين مما ذكرناه في الفصول السابقة أن التقليد اللغوي عند الطفل يعتمد على ميل فطري مزود به ، وأن أعمال المحاكاة التي يتجه إليها الطفل بدافع من هذا الميل تنبعث عن قصد وإرادة ، وتشرف قواه الفكرية على أدائها ، وتنظيمها ، وإصلاح فاسدها ، وجعلها مطابقة للأصل ، وفهم مدلولها ، وحفظها ، واستخدامها فيما وضعت له ^(١) . فأعمال التقليد اللغوي عند الطفل لا تختلف في أساسها عن ألعابه الراقية ، كالألعاب الاستطلاع والحل والتركيب والتصوير والمقاتلة والصيد والألعاب العائلية والاجتماعية والصناعية والزراعية . . . وهلم جرا ^(٢) . فكلاهما يعتمد على ميل فطري مزود به الطفل ويتجه إليه بدافع من هذا الميل ؛ ولكن كليهما كذلك ينبعث عن قصد وإرادة وتشرف قوى الفكر على أدائه وتنظيم عناصره .

غير أن طائفة من الباحثين على رأسها العلامة لودانتك LeDantec قد ذهبت في هذا الصدد مذهباً آخر ، فزعمت أن التقليد اللغوي عند الطفل عملية آلية مجردة عن القصد والإرادة وعمل الفكر ، ولا تعتمد إلا على أمور جسمية خالصة .

وذلك أنهم يرون أن هناك رابطة طبيعية تربط أعضاء السمع عند الطفل في

(١) انظر صفحات ١٢٢ — ١٣٨ .

(٢) انظر هذه الألعاب في كتابنا اللعب والعمل صفحات ٣٨ — ٤٨ .

هذه المرحلة بأعضاء نطقه في صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تلفظ بشكل منعكس الأصوات نفسها التي تحسها الأعضاء الأولى . فالطفل يردد ما يسمعه بعملية آلية لا دخل فيها لإرادة ولا قصد ولا تفكير ، وبحركات تنبعث من تلقاء نفسها عند حدوث ما يثيرها كما تنبعث الأعمال المنعكسة .

وقد أوغل لودانتك في هذا السبيل حتى زعم أن أعضاء النطق وأعضاء السمع يؤلفان عند الطفل في هذه المرحلة جهازاً واحداً ترسل ناحية منه ما تستقبله الناحية الأخرى . فهما أشبه شيء بجهاز المذياع (الراديو) الذي ينبعث من بعض أجزائه ما تلتقطه أجزاءه الأخرى من أصوات . وطبيعة تركيبها عند الطفل في هذه المرحلة مطابقة كل المطابقة — كما يقول لودانتك نفسه — لطبيعة تركيبها عند البيغاء وما إليها من الطيور (١)

ومن ثم يرى لودانتك أن أصوات التقليد اللغوي عند الطفل لا تختلف في أساسها عن أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال ، التي تكلمنا عليها في أول هذا الباب (٢) . كلاهما في نظره فطري آليٌ بحيث لا دخل فيه لإرادة ولا قصد ولا تفكير . وكلاهما ينبعث عن مثير خاص وعن مجرد وجود هذا المثير : فأصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال يثيرها مجرد تلبس الجسم أو النفس بحالة انفعالية ما ، وأصوات التقليد اللغوي يثيرها مجرد التلبس بإدراك سمعي خاص . وكلاهما قائم على روابط طبيعية فطرية : فأولها قائم على روابط طبيعية تربط أعضاء النطق بحالات الانفعال في صورة تجعل تلك الأعضاء تتحرك من تلقاء نفسها وتلفظ أصواتاً خاصة كما وجدت حالة من هذه الحالات ؛ وثانيهما قائم على روابط طبيعية تربط أعضاء السمع بأعضاء النطق في صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تردد من تلقاء نفسها ما يصل من أصوات لغوية إلى الأعضاء الأولى .

هذا ، وبحسبنا في الدلالة على فساد هذه النظرية أن نواجهها ببعض ما ذكرناه فيما سبق من حقائق :

(١) انظر الأساس الذي تعهد عليه المحاكاة عند هذه الفصيلة في آخر ص ٨٦ وأول ص ٨٧ .

(٢) انظر صفتي ١١٠ ، ١١١ .

فقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يردد الكلمة عند سماعه إياها كما يردد البيداء ما يسمعه من أصوات ، بل يردها فاهما معناها فهما كاملا أو ناقصاً من سياق الحديث وملا بسات الأحوال^(١) . وبعد أن يتم له حفظها وتستقر في متن لغته يلفظها وحده كلما أراد التعبير عما تدل عليه . وغنى عن البيان أن ظاهرة هذا شأنها ليست من الأعمال الآلية أو المنعكسة في شيء ، إذ لا يمكن أن يتم مثلها بدون تدخل الإرادة والتفكير .

وقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يكتسب في هذه المرحلة عن طريق المحاكاة مفردات لغته فحسب ، وإنما يكتسب كذلك قواعد المتعلقة بربط عناصر الجملة وترتيب أجزائها وتنظيم العبارات . وتصريف المشتقات ، ومراعاة أزمنة الأفعال وإسنادها للضمائر والأسماء الظاهرة ، والتذكير والتأنيث ، والإفراد والجمع وهلم جرا .^(٢) ومن الواضح أن كسب الطفل لقواعد اللغة يقتضى عمليات فكرية وإرادية دقيقة ، ولا يمكن أن يتم شيء منه عن طريق آلي أو منعكس . وقد ظهر لنا كذلك أن أول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هي أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال ، ثم الصفات ، ثم الضمائر ، ثم الحروف والروابط ، وأن السبب في هذا يرجع إلى أن الطفل يسير في ارتقائه اللغوي وفقاً لارتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكري في مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ، ولذلك اقتصر متن لغته في هذا الدور على أسماء الذوات . فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر في لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما . ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولاً لم يتم له فهمها إلا في أواسط هذه المرحلة

(١) انظر صفحات ١٣٣ - ١٣٨ .

(٢) انظر صفحات ١٣٥ - ١٣٨ .

أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعاً لذلك^(١) . وفي هذا أقطع دليل على تدخل التفكير والفهم في عملية التقليد اللغوي وعلى فساد ما يذهب إليه لودانتك . إذ لو كانت هذه العملية آلية أو منعكسة قائمة على مجرد الارتباط بين جهازى النطق والسمع كما يزعم لودانتك لردد الطفل جميع ما يصل إلى سمعه من مفردات ، ولظهرت جميع أنواع الكلمة في لغة الطفل مرة واحدة .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يولد مصاباً بجنون يحول بينه وبين فهم معانى الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء سمعه ونطقه سليمة^(٢) . ولو كانت عملية التقليد آلية أو منعكسة على الوجه الذى يزعمه لودانتك لما حال الجنون دون تحققها ، إذ الجنون لا يحول دون تحقق هذا النوع من الأعمال .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل فى مبدأ هذه المرحلة يلفظ الكلمات التى يحاكيها لفظاً خاطئاً بعيداً كل البعد عن الأصل الذى يحاكيه ، وأنه لا ينفك يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً حتى يستقيم له الكلام^(٣) . ولا شك أن ظاهرة هذا شأنها فى التطور تقتضى تدخل الإرادة والتفكير ، ولا يعقل أن تكون قائمة على الأساس الآلى الذى يزعمه لودانتك .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يسوده الخمول ، وتعوزه قوة العزم والإرادة ، وتضعف رغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة ، يتأخر كثيراً فى التقليد اللغوي وفى كسب لغته عن الأطفال العاديين^(٤) . ولو كانت عملية التقليد عملية آلية أو منعكسة على الوجه الذى يراه لودانتك ما حال هذا الخمول دون تحققها ، ولظهرت كلها وجد مشيرها السمعى بدون توقف على عزم ولا إرادة ولا نشاط حيوى .

(١) انظر من آخر ص ١٣٦ الى ص ١٣٨ .

(٢) انظر صفحة ١٤١ .

(٣) انظر صفحات ١٢٣ - ١٢٥ .

(٤) انظر آخر صفحة ١٤١ وأول صفحة ١٤٢ .

(٧) مبلغ تمثيل الطفل في ارتقائه اللغوى

لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها

يذهب كثير من العلماء إلى أن المراحل التي يجتازها الطفل في أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنسانى فى هذا الفرع L'ontogenèse أو نظرية هيكل Haekel (١) . ويطلق على هذه النظرية اسم نظرية التلخيص reproduct la Phylogenèse .

وعلى هذه النظرية اعتمد كثير من علماء اللغة فى تأييد آرائهم بصدد نشأة اللغة الإنسانية وتطورها .

وقد تكلمنا بتفصيل فى الباب الأول عن أهم هذه الآراء وناقشناها (٢) . فحسبنا هنا أن نشير إليها مبينين وجه اعتمادها على الظواهر المتعلقة بتطور اللغة عند الطفل .

١ - تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد نشأت من أنواع التعبير الطبيعى ، وأن الإنسان قد افتتح هذا السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال) وأصوات الحيوان والأشياء (٣) .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن الطريق الذى ترسمه لنشأة اللغة الإنسانية يتفق مع الطريق الذى يسلكه الطفل فى تعبيره . فقد ظهر مما تقدم أن أول ما يظهر من أنواع التعبير المقصود عند الطفل هو محاكاة التعبير الطبيعى عن الانفعال ، ثم تظهر بعده محاكاة أصوات الحيوان

(١) يرجع الفضل فى نشرها وتكليفها الى هيكل الألمانى ولذلك نسبت إليه ، وان كان قد قال بها من قبله العلامة Serres .

V. Traité de Psychologie, par Dumas et collaborateurs, p. 32.

(٢) انظر صفحات ٩٥ - ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٩ .

(٣) انظر صفحات ٩٥ - ٩٧ .

والاشياء للدلالة على مصادرها أو على أمور تتعلق بها ، ثم تظهر بعدهما محاكاة الكلمات (١) .

٢ - تقدم أن معظم علماء اللغة يذهبون إلى أن الكلام الإنساني كان يعتمد في المبدأ اعتماداً كبيراً على الإشارات اليدوية والجسمية التي كانت تصحبه فتكامل ناقصه وتوضح مدلوله وتمثل حقائقه ، ثم أخذ يستغنى شيئاً فشيئاً عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير (٢) .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن المراحل التي ترسمها تتفق مع المراحل التي تسير فيها لغة الطفل . فقد ظهر مما تقدم أن الطفل ، في مبدأ مرحلته الكلامية ، يعتمد اعتماداً كبيراً على لغة الإشارات فيميز بها بلغته الصوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مهممها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها (٣) .

٣ - تقدم أن بعض العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية اجتازت ، فيما يتعلق بتطور أصواتها ، ثلاث مراحل : « مرحلة الصراخ » التي كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشياء ومظاهر الطبيعة ، ثم « مرحلة المد » وفيها ظهرت أصوات اللين في اللغة الإنسانية ؛ ثم « مرحلة المقاطع » وفيها ظهرت الأصوات الساكنة (٤) .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن المراحل التي تذهب إليها بصدد التطور الصوتي في اللغة الإنسانية تتفق مع المراحل التي يجتازها الطفل في هذه السبيل . فقد ظهر مما تقدم أن أول أصوات تظهر لدى الطفل هي الأصوات المهمة ، ثم تتلوها أصوات اللين ، وأن الأصوات ذات المقاطع لا تكثر في لغته إلا في « مرحلة التمرينات النطقية » (٥) .

(١) انظر صفحات ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٣٢ .

(٢) انظر صفحة ٩٦ .

(٣) انظر آخر صفحة ١٣٨ وأول ١٣٩ .

(٤) انظر آخر صفحة ١٠١ إلى ص ١٠٣ .

(٥) انظر صفحتي ١١٩ ، ١٢٠ ، وما تحيل عليه هذه الصفحات ، وانظر كذلك الخاصة الرابعة

من خواص الأصوات الغوية للطفل في مرحلة التقليد بصفحة ١٢٦ .

(٥) انظر صفحة ١٢٦ .

٤ — تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية، وأن الألفاظ الدالة على المعاني الكلية لم تظهر إلا بعد ارتقاء اللغة ونهضة التفكير الإنساني (١).

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد نظريتهم أنها تتفق مع مراحل التطور اللغوي عند الطفل. فقد تبين مما تقدم أن أول كلمات تظهر عند الطفل هي أسماء الذوات الحسية، ثم تظهر بعدها الكلمات الدالة على معان كلية (٢).

٥ — تقدم أن بعض علماء اللغة يذهبون إلى أن الصفة هي أول ما ظهر في الكلام الإنساني، ثم ظهرت أسماء الذوات ثم الأفعال، واختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٣).

ومما يعتمد عليه هؤلاء العلماء في تأييد نظريتهم موضوع التطور اللغوي عند الطفل. غير أن هذا التطور لا يؤيدهم فيما يتعلق بأسبقية الصفات على أسماء الذوات؛ فقد ظهر مما تقدم أن أسماء الذوات هي أول ما يظهر في لغة الطفل ثم تتلوها الأفعال والصفات (٤).

ولذلك يعتمدون في هذه النقطة على أمور تتعلق بأصول الكلمات في اللغات الهندية — الأوربية كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٥). ويرون من جهة أخرى أن أسبقية الأسماء على الصفات في الطفولة ليست عامة عند جميع الأطفال، بل إن بعضهم ليفتح نطقه بكلمات دالة على صفات، ولا تظهر لديه الأسماء إلا فيما بعد. وفي ذلك يقول العلامة بريير Preyer: « ليس صحيحاً ما يذهب إليه كثير من الباحثين من أن ظهور الأسماء سابق لظهور الصفات عند جميع الأطفال. فقد لاحظت أن أول كلمة لفظها ابني (وكانت سنه إذ ذاك ثلاثة وعشرين شهراً) كانت

(١) انظر آخر ص ١٠٣ وأول ١٠٤ وما تحيل عليه التعليقات.

(٢) انظر آخر صفحة ١٣٦ إلى ١٣٨.

(٣) انظر آخر صفحة ١٠٤ و صفحة ١٠٥.

(٤) انظر آخر صفحة ١٣٦ إلى ١٣٨.

(٥) انظر صفحة ١٠٥.

صفة فقد قال Hess يقصد Chaud أى ساخن (للتعبير عن أن لبنه ساخن لا يستطيع شربه) ثم ظهرت لديه الأسماء بعد ذلك ، . وقد لاحظ العلامة تين Taine وآخرون بعض ظواهر من هذا القبيل (١) .

٥ - تقدم أن العلامة شليجيل وأعضاء مدرسته يذهبون إلى أن اللغات الإنسانية الأولى كانت «عازلة» أى لا تتصرف فيها الكلمات ولا ترتبط فيها عناصر الجملة بعضها ببعض بروابط ملفوظة (٢) .

ومن الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد نظريتهم تطور اللغة عند الطفل . فقد ظهر مما تقدم أن لغة الطفل تبدو فى أوائل مرحلة التقليد عارية من الصرف والاشتقاق والتنظيم وربط عناصر الجملة بعضها ببعض (٣) .

(١) V. Ridot, op. cit. 84, 85

(٢) انظر آخر صفحة ١٥٥ الى ١٥٩ .

(٣) انظر صفحاتى ١٣٤ ١٣٥ ١٣٥ ١٣٥ .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY
CAIRO

الباب الثالث

حياتية اللغة

يرجع أهم ما يعتور اللغة في حياتها إلى الأمور الآتية : تفرعها إلى لهجات ولغات ؛ ونشأة فصائل وشعب لغوية من جراء هذا التفرع ؛ وصراع اللغة مع لغة أو لغات أخرى ؛ وتطور اللغة العام ؛ وتطورها من ناحية الأصوات ؛ وتطورها من ناحية الدلالة .

وسنعتقد لكل موضوع من هذه الموضوعات الستة فصلاً على حدة .

الفصل الأول

تفرع اللغة إلى لهجات ولغات (١)

(١) انتشار اللغة وأسبابه

تختلف اللغات الإنسانية في مبلغ انتشارها اختلافاً كبيراً . فمنها ما متاح له فرص مواتية ، فينتشر في مناطق واسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية ، كما حدث للاتينية والعربية في العصور القديمة والوسطى ، وللإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية في العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيساً على منطقة ضيقة من الأرض

(١) يطلق على هذا المبحث أو على بعض نواحيه اسم الديالكتولوجيا *Dialectologie* ،

وقد تقدم الكلام عن موضوعه وأهميته ومبلغ عناية العلماء به في صفحات ٦ ، ٥٦ ، ٥٧ .

وفئة قليلة من الناس ، كما حدث للأينو (١) والبسكية (٢) والليتونية (٣) . ومنها ما يكون حاله وسطا بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق ، كما هو شأن الحبشية والفارسية .

هذا ، ولا تنتشر اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلي :

١ - أن تشتبك اللغة في صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى نوااميس الصراع اللغوى التي سنتكلم عليها في الفصل الثالث من هذا الباب ، أن يكتب لها النصر ، فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة في عداد الناطقين بها . كما حدث اللاتينية في العصور القديمة إذ تغلبت على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى والإيليريا Illyrie فأصبحت لغة الحديث والكتابة في منطقة واسعة في القسم الجنوبي الغربي من أوروبا ، بعد أن كانت قديماً مقصورة على منطقة ضيقة في وسط إيطاليا ، هي منطقة اللاتيوم Latium ؛ وكما حدث للغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والسكوثية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديماً لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من بلاد العرب ؛ وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوروبا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٩٠ مليوناً من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديماً مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية (٤) .

- (١) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفاً من سكان جزر هو كادو وسكها لين وشيكوتو التي كانت تابعة لليابان (انظر الفصل الثاني من هذا الباب ، الفصيلة الثالثة ، رقم ٢) .
- (٢) يتكلم بها الآن نحو ٨٠٠٠٠٠ من الباسكيين الذين يقطنون جبال البرانس الغربية في العدوتين الفرنسية والإسبانية (انظر رقم ١٢ من الفصيلة المشار إليها في التعليق السابق) .
- (٣) يتكلم بها سكان ليتونيا وأولانفيا الذين يبلغ عددهم الآن نحو ٨٠٠ و ١٨٤٤ (انظر الفصل الثاني من هذا الباب ، الفصيلة ٤ الأولى رقم ٨) . (٤) انظر الفصل الثالث من هذا الباب .

٢ - أن ينتشر أفراد شعب ما - على أثر هجرة أو استعمار - في مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، وتتكون من سلالاتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ، ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة في العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الإنجليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا (١) أن انتشرت الإنجليزية في هذه المناطق الشاسعة ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو مائتي مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديماً محصورة في منطقة ضيقة من الجزر البريطانية . ونجم عن الاستعمار الإسباني في الدنيا الجديدة أن أصبحت الإسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ما عدا البرازيل ، فبلغ عدد الناطقين بها ٧٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من أوربا . ونجم عن الاستعمار البرتغالي في الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندي ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليوناً ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في بلاد البرتغال نفسها .

٣ - أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعي في أوطانها الأصلية نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها في الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران في بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى ، وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعاً لذلك

(١) يتكلم كذلك في جنوب أفريقيا بلغة تسمى الأفريكانية ، وهي منحدرة من الهولندية التي كان يتكلم بها الهولنديون (وقد كانوا أول من أقام في مستعمرة الكاب) ، ومن اللغة الفرنسية التي كان يتحدث بها المهاجرون (الهوجنوت) الذين قدموا فيما بعد إلى الكاب . وتعد الأفريكانية إحدى اللغتين الرسميتين في الاتحاد . أما الثانية فهي اللغة الإنجليزية . ويتخاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة . ويتكلم كذلك بعض قبائل من السكان الأصليين لجنوب أفريقيا اللغة البنطوية (انظر رقم ١٨ من الفصيلة الثالثة في الفصل الثاني من هذا الباب) .

نطاق لغتها ومدى انتشارها ، كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية . فبفضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية في اليابان ما يزيد على ٧٠ مليوناً (١) ، وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٥٠ مليوناً (٢) ، وبالإيطالية نحو ٤٥ مليوناً (٣) .

(٢) تفرع اللغة إلى لهجات ولغات نتيجة لازمة لسعة انتشارها

متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً . فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها . ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض في كثير من الوجوه ، ولسكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلوات قرابة ولحمة نسب لغوى . وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه ، ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر . فاللغة الهندية — الأوروبية الأولى قد انشعبت في ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف ، وكل طائفة منها

(١) يدل آخر تعداد رسمي قبل الحرب الأخيرة على أن عدد الشعب الياباني بلغ ٣٠٨ ، ١١٤ ، ٧٣ ، أما عدد سكان الإمبراطورية اليابانية فكان يبلغ ١٠١ ، ٢٦٦ ، ١٠٥ .
(٢) منهم بفرنسا نحو ٤١ مليوناً والباقي ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية .
(٣) معظمهم بإيطاليا نفسها والباقي بسويسرا والمستعمرات الإيطالية .

انقسمت إلى شعب ، وكل شعبة إلى لغات . . . وهكذا دواليك (١) . ومثل هذا حدث للغة - السامية الحامية الأولى (٢) ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى (٣) . وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هذا القانون . فاللغة اللاتينية ، وهي إحدى لغات الفرع الإيطالي المنشعب من الهندية - الأوربية ، قد أخذت هي نفسها ، في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى ، تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها حتى انفصلت عنها انفصال تاماً ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية، الإيطالية، الإسبانية، البرتغالية، لغة رومانيا . . .) ؛ ولسكنها لم تلبث أن تنحوت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون . فلا تنتشر اللغة الإسبانية في مناطق شاسعة من الأرض ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها ، أخذت تفقد وحدتها ، فانشعب عنها في أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الإسبانية الأصلية اختلافاً غير يسير في كلماتها وأصواتها ؛ بل إن بعض هذه اللهجات أخذت تختلف عن الإسبانية الأصلية في القواعد نفسها (٤) . ومثل هذا حدث بين البرتغالية في البرتغال والبرتغالية في البرازيل ؛ فقد وصل الخلاف بينهما إلى القواعد نفسها بل إلى شكل الرسم كذلك (٥) . وهذا هو ما يحدث الآن

(١) انظر الفصيلة الأولى في الفصل الثاني من هذا الباب .

(٢) انظر الفصيلة الثانية في الفصل الثاني من هذا الباب .

(٣) انظر الفصيلة الثالثة في الفصل الثاني من هذا الباب .

(٤) وقد ألف بعض العلماء كتباً مستقلة في قواعد بعض هذه اللهجات ككتاب الأستاذ لenz في قواعد لهجة شيلي .

(٥) جاء بجزيرة الأهرام في عددها الصادر يوم ٢٩ / ٣ / ١٩٤٤ بصدد اتفاق هجائي لغوي بين البرتغال والبرازيل ما يلي : « تلقت وزارة الخارجية من معالي محمود فخري باشا وزير مصر المفوض في اسبانيا والبرتغال تقريراً عن اتفاق هجائي لغوي عقد أخيراً بين الحكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسي منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيتها ، وذلك بتوحيد شكلها الهجائي ونطق كلماتها . . . »

للإنجليزية والألمانية . فقد أخذت الإنجليزية الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن الإنجليزية الجزر البريطانية في كثير من المفردات وأساليب النطق^(١) ، وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريباً على بعض : فلهجة العراق في العصر الحاضر مثلاً لا يكاد يفهمها المصري . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

والعامل الرئيسي في تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا العامل لا يؤدي إلى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل في الماضي والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :

١ — عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التي انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها... كل ذلك يؤدي غالباً إلى ضعف سلطانها المركزي ، وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . —

== وكان الوصول الى وضع هذا الاتفاق بفضل مساعي كبار الكتاب في البلدين . وهذا أول اتفاق من نوعه يعزز الفكرة التي ترمي الى توحيد الشعوب التي تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالاعراب عن أمنية هي أن تعمل البلاد العربية على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها الصحيح بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد »

(١) حتى أن الانجليز ليسخروا من اللهجة الأمريكية ، كما يسخر الأمريكيان من لهجة الانجليز ، ولا يسكتهم كل منهم سخريته هذه حتى في أخرج الاوقات وأدائها الى تسيان الفروق . يدل على ذلك ما جاء في نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة في بريطانيا في أثناء الحرب الأخيرة إذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات : « ولا تسخر باللهجة البريطانية لأن لهجتك قد تكون مثار سخرم ولكنهم أكثر أدا من أن يظهروا لك ذلك » جريدة الأهرام عدد ١٣ - ٧ - ١٩٤٢ .

وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدي إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والنقائيد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان . — فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير .

٣ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها . . . وما إلى ذلك ، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات . . . وهلم جرا . — فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى فروق وفواصل في اللغات .

٤ — عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها . — فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٥ — عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق^(١) . — فمن المحال مع فروق كهذه ، أن تظن اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلاً .

فانقسام المنكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى جماعات متميزة ، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض في شئونها السياسية والاجتماعية ، وفي خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، ويرسم لتطورها في النواحي الصوتية والدلالية وغيرها منهجاً

(١) ترجع هذه الفروق الى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافي والشعبي المشار اليهما آنفاً تحت رقمي ٤٤٣ .

يختلف عن منهج أخواتها ؛ فتتعدد مناهج التطور اللغوى حسب تعدد الجماعات ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها .

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين: إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التي تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معاني بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد Le Crammaire سواء في ذلك ما يتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا)^(١) أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنسكس)^(٢) ، فلا يناها في المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلاً اللهجات العامية التي انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن وبلاد المغرب . . . فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة في نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير . . . وما إلى ذلك ؛ على حين أن مسافة الخلف بينها في الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حداً جعل بعضها غريباً على بعض كما سبقت الإشارة إلى ذلك^(٣) .

ولسكن هذه الوحدة في القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيرها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حيثاً في هذا الطريق حتى تبلغ غايته . غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة في أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك مثلاً طوائف اللغات الهندية —

(١) أنظر ص ٧ رقم ب .

(٢) أنظر ص ٧ رقم ج (٣) أنظر ص ١٦١ .

الأوروبية . فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة .

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغة أخرى على الوجوه التي سيأتي شرحها في الفصل الثالث ، لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هذا يبدو في أحد مظهرين : فأحياناً تحتفظ بوحدها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفئة قليلة ؛ وأحياناً تنشعب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت في مساحات شاسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إيسپرنتو Esperanto) يتحدث بها الناس من مختلفي الأمم والعصور . وذلك أن هذه اللغة الصناعية . على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها (١) ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية والتي خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين في أصولهم الشعبية ، وفي التكوين الطبيعي لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفي الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفي قواهم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضي أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له في كل هذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة الصناعية في كتابتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها . . . باختلاف العصور ، وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلاً قليلاً حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصلاً

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظرياً ، يحول دون تحقيقها عملياً صعوبات جمة .

تماماً وتصحيح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضى زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هذا العلاج المشكلة نفسها التي يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . . . » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين » .

(٣) اللهجات المحلية ، وصراعها بعضها مع بعض ^(١)

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به أهله من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية Dialectes Locaux . وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في المساحة التي يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق منطقتة فلا تشمل إلا بضعة قرى متقاربة ؛ ومنها ما يكون وسطاً بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإداري والسياسي . فقد تقسم القرى التي تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديرتين أو أكثر ؛ وقد يجتمع في مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة في مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحري .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها ، فلا تدخر وسعاً في محاربة عوامل الابتداع والتغيير في داخل منطقتها ، ولا تألوا جهداً في درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات .

أما محاربة عوامل الابتداع في داخل منطقتها فتم بفضل العلاقات الوثيقة التي تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هذه

(١) عرضنا هنا لموضوع الصراع بين لهجات اللغة الواحدة لعلاقته الوثيقة بموضوع هذا الفصل وهو التفرع . أما الصراع بين اللغات المختلفة فهو مستقل عن موضوع التفرع ، ولذلك سنعقد له فصلاً على حدة (أنظر الفصل الثالث) .

العلاقات يقوى الضمير الجمعي ، وتؤكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشدد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوي تلقى في مجتمع قوى كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها في مهدها . وبذلك تتقى اللهجة ما عسى أن يوجه إليها في داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التي تربط أهلها بمجاوريهم ، وقلة فرص احتكاكهم بهم . وما يبدونه في العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . — ويظهر هذا على الأخص في البيئات الزراعية التي تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون في معزل عن سكان المناطق الأخرى . — حقاً إن تزوج بعض الرجال في هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها ، وانتماءهم في الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفي أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، وما يبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخيرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحياناً . . . كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التي يقيمون فيها . — وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التي يكثر في العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل في حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وإنتابهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يقد إلى البلد في شؤون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام .

• • •
غير أنه قد يتاح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم باللهجة أخرى من أخواتها .

وحينئذ تشتبك اللهجتان في صراع أهلى لا يختلف كثيراً في مظاهره وطرقه عن الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين والذى سنعالجه فى الفصل الثالث .

وينتهى هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحياناً لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر فى الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوى والنفوذ ، وأحياناً تتأثر إحداها بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر السابقة .

وتختلف درجة التأثير باختلاف الأحوال : فأحياناً يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ، وأحياناً يكون عميقاً ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرى باللهجة المدينة التى تجاورها أو يكون بها مقر المديرية أو المركز ، أو فى تأثرها باللهجة البلد الذى يتخذ مقراً لنقطة البوليس أو للعمدية أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى . . . وهلم جرا . فى هذه الحالات وما إليها يقف التأثير عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية . . . وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثير والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر المصرى قد تقتبس عن هذه القاعدة كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها . . . ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التى تقلب فى لهجاتها القاف العربية جيماً غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها فى هذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها مثلاً القاف العربية همزة : ألنا = قلنا) ، فتقتبس عنها كثيراً من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ، ولكن تظل طريقتهما الصوتية حيال القاف العربية بآمن من التأثير بطريقة المدينة ، اللهم إلا فى الكلمات التى تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى ناحية من النواحي السابق

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

ذكرها ، فإن التأثير يكون عميقاً لدرجة تصل أحياناً إلى القضاء على اللهجة المغلوبة .
ويحدث هذا في حالتين :

(الحالة الأولى) أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى .
ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لا تقل
عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآداباً . والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ
القديم والحديث : فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على
كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التي خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت
لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى ؛ ولهجة مدريد مع اللهجات
الإسبانية ؛ ولهجة روما في العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ؛ ولهجة قریش
قبيل الإسلام مع اللهجات المضربة الأخرى .. وهلم جرا (١) .

(الحالة الثانية) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى في ثقافتها
وحضارتها وآداب لغتها . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها
سلطان سياسي على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا
تطاردهم اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادي ، أي قبل أن
تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلية برلين (٢) ؛ وأخذت
التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع
عشر الميلادي ، أي قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة وقبل أن يظهر
سلطان روما (٣) ؛ وذلك بفضل ما كان لسلك من السكسونية والتوسكانية من
إنتاج أدبي لا يذكر بجوانبه إنتاج أخواتها التي اشتبكت معها في هذا الصراع .
وفي كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع في مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب

(١) سنضرب بعض هذه الأمثلة في الفصل الثالث بصدد صراع اللغات بعضها مع بعض . وذلك
لأنها تصلح أمثلة للأميرين . ما . فاللغات المضربة مثلاً بصح اعتبار كل منها لغة مستقلة ، ويصح
النظر إليها على أنها لهجات قد انشعبت عن لغة واحدة . وكذلك لهجة روما قديماً مع اللهجات
الإيطالية . . . وهلم جرا .

(٢) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٣) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

اللّهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمدّه ويشتدّ عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللّهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللّهجة المقهورة . فلّهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللّهجات الإسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقي مقاومة عنيفة من جانبها ؛ وذلك لتفشى الجهل والامية بين الناطقين بهذه اللّهجات . ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للّهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . — وفي القسم الفرنسى اللّغة من سويسرا لا تزال اللّهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى فى المناطق الكاثوليكية (فاليه ، فريبورج . . . Valais, Fribourg) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللّهجات أو كاد فى المناطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلماً من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهداً بالمدارس . — ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللّهجات التى كانت منتشرة فى إقليمى السين واللوار ، وذلك لقلّة وجوه الخلف بينه وبينها . على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوت فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة ؛ وذلك لكثرة الفروق التى تفصلها عنه .

هذا « ويسير تغلب لهجة على أخرى على السنن نفسه الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض والذى سنتكلم عليه فى الفصل الثالث . ففى المرحلة الأولى تقذف اللّهجة الغالبة اللّهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلية وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللّهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ؛ فينطق أهلها بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لآسنوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى أنهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لهجتهم . — وفى المرحلة التالية تتسرب إلى اللّهجة المغلوبة أصوات اللّهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY OF THE AMERICAN UNIVERSITY OF CAIRO

الكلمات ؛ فينطق أهل اللهجة المغلوقة بألفاظهم الأصلية وما انتقل اليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التي يسير عليها النطق في اللهجة الغالبة ؛ فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوقة ويؤذن نجمها بالأفول . ولسكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة في الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفي مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها في القواعد ؛ ^(١) فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . - وفي المرحلة الاخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً ، فتأخذ قواعد اللهجة الغالبة في الاستيلاء على الالسنة حتى يتم لها الظفر ؛ فيتم بذلك الإجهاز على اللهجة المغلوقة . غير أنها كثيراً ما تترك في السنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم في صور تختلف عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولسكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المنحدرة .

(٤) نشأة لغة الدولة أو لغة الكتابة

واللهجة التي يتاح لها التغلب في أمة ما على بقية أخواتها ، أو على معظمها ، تصبح عاجلاً أو آجلاً « لغة الدولة » ، أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » ، أو « اللغة الفصحى » ، أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها في مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة في معاهدها ، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم في مختلف مناحي الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب في الجيش ... وهلم جرا ^(٢) .

(١) لا يكون الاختلاف في العادة كبيراً في القواعد بين اللهجات المنشعبة عن لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة كما سبقت الإشارة الى ذلك في صفحة ١٦٣ .
(٢) قد لا يكون للامة أي لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فان لغتها هي الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا ، فان بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والاطالية . - وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة في الأمة هي اللغة القديمة التي انتشبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا واطاليا واسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا .

فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت « لغة الدولة » بفرنسا ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية. وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بإنجلترا ومدريد بإسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا ؛ فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الرسمية ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وتسلك لغات الكتابة في تطورها طريقاً خاصة تختلف عن الطريق التي تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك في الفقرة التالية وفي الفصل الرابع . ولذلك نرى أن لغة الكتابة ، مع اتفاقها في المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها في كثير من الشؤون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافاً غير يسير .

(٥) اختلاف مناحي اللغة الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها ، الشعر والنثر

وظيفة اللغة : الدلالة والإيحاء

كما تنشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تنشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ؛ النثر الأدبي ؛ الخطابة ؛ القصة ؛ الرسائل ؛ التاريخ ؛ القانون ؛ تدوين العلوم . . . الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه في طبيعته ، وأغراضه البيانية ، ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والإدراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره في نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات

ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ...
وهلم جرا .

وغنى عن البيان أن الاختلاف في هذه الأمور وما إليها يؤدي حتماً إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه في مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره وطريقة علاجه للحقائق . . . وما إلى ذلك وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شيء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن في كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة في اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطيع بسهولة معرفة الفن الذي تتصل به . فعلى ضوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إبانها عن الحقائق . . . يستطيع بسهولة الحكم إن كانت شعراً أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفياً أم بحثاً علمياً . . . وهلم جرا .

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه لغة الأدب (Langue Littéraire) ؛ وهي التي تستخدم في الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن ما يتخذها غيرها وسيلة تتخذها هي غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . ففي جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ . . .) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما في هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضاً في ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من الجهود . فأهم ما يقام له وزن في لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير . . . وهلم جرا .
وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبي ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته في طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد . وما يرمى إليه من أغراض . الخ .

وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته في النظم والوزن ، والتأليف الموسيقي ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .
وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولاً وبالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسي هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإبهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر في عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهة التعمق في الشرح والاستدلال .
أما نظم العبارات في أوزان خاصة فليس شرطاً أساسياً في الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة في كلام منشور اعتبر شعراً في الاصطلاح الأدبي ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق في توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه .

(٦) اختلاف اللهجات في البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفتاتهم

« اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux

تتشعب أحياناً لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفتاتهم : فيكون ثمة مثلاً لهجة للطبقة الأريستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبرادين ، وسادسة للنجارين .. وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux تمييزاً لها عن « اللهجات المحلية » Dialectes Locaux التي كانت موضوع حديثنا في الفقرة الثالثة من هذا الفصل (١) .

(١) يرجع الفضل في هاتين التسميتين إلى العلامة يول باسي Paul Passy .

ويؤدى إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية، ومناحي التفكير والوجدان، ومستوى المعيشة، وحياة الاسرة، والبيئة الاجتماعية، والتقاليد والعادات، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف، والآثار العميقة التي تركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الامور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم... وهلم جرا. فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة في كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ... وما إلى ذلك. وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً في هذا الطريق، فيشتد انحرافها عن الأصل الذي انشعبت منه، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها؛ كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال Argots des voleurs, des malfaiteurs, et des ouvriers.

ويزداد في العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه. ولذلك كانت في فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم، من أكثر اللهجات انحرافاً عن الأصل الذي انشعبت منه، وبعداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية.

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة؛ بل تسير في السبيل الارتقائي نفسه الذي تسير فيه اللهجات المحلية؛ فيتسع نطاقها باتساع شؤون الناطقين بها

ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخرعون من مصطلحات ويتواضعون عليه من عبارات ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى اختلافاً يديناً عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف في القرن العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التي كتبها بتلك اللهجات في القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسي فرانسوا فيلون François Villon^(١) لم يُستطع بعد في العصر الحاضر حل رموزها وفهم مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية في لغة المحادثة العادية تأييراً كبيراً ؛ فستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التي خصص مدلولها العام واصطلاح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس في العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين .

ولا تتميز في العادة اللهجات الاجتماعية بعضها من بعض تميزاً واضحاً إلا في المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركة الاقتصادية وتنوع الوظائف وتتعدد المهن ، ويشتد النزاع بين الطبقات : كنيويورك ولندن وباريس في العصر الحاضر؛ وكبغداد في العصر العباسي .

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه « باللهجات الحرفية »؛ وهي اللهجات التي يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين

(١) شاعر فرنسي ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفي سنة ١٤٨٩ . وقد عاش في وسط المصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و« العهد الكبير » Petit Testament; Grand Testament

والبحارة ... وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزاً كبيراً في المناطق التي يسود فيها «نظام الطوائف» Regime des Castes حيث تخصص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وفقاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها ، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال في كثير من بلاد الهند على حين أنه في الأمم الحديثة التي قضى فيها على نظام الطوائف فأصبحت الحرف حطاً مشاعاً بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التي تروقه ، وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، في هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها في بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات .

هذا ، وقد خيل إلى بعض علماء «الإتنوجرافيا» أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقاً ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة ، وترتجل ألفاظها ومططلحاتها ارتجالاً . وقد تابعهم في هذا الرأي بعض القدامى من علماء اللغة ؛ ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم . وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو تاريخي . بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية . فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً ؛ بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشرة بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشئ إنشاءً لغةً كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير في مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين ... وهلم جرا .

والحق أن «اللهجات الاجتماعية» لا تختلف في نشأتها عن «اللهجات المحلية» التي تكلمنا عليها في الفقرة الثالثة من هذا الفصل : كلا النوعين ينشعب عن اللغة

الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به أهله من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون وما يفصلها بعضها عن بعض منميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعثر أحياناً فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقاً فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعاً من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة على لهجات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا فى عدد قليل من الكلمات . أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها ، مع تقادم الزمن ، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذى أخذت منه . وقد تصل فى انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحي أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال .

ولعل هذا هو ما حدا بعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع (١) .

(٧) اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث فى بعض الشعوب التى يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء ، أو يكون فيها كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر ، تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد

(١) يرجع الفضل فى دراسة اللهجات الاجتماعية الى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع . ومن أشهر من عني بدارستها من علماء الاجتماع العلامة فان حينيب V. Van Gennep : Essai d'une théorie des Langues Spéciales (Revue des Etudes Ethnographiques et Sociologiques, juin - juillet 1908).

اجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافاً يسيراً أو كبيراً .
وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوي كلما استحكمت حلقات الانفصال بين
الجنسين ، حتى أنه لينشأ أحياناً من جراء ذلك لكل منهما لهجة تختلف اختلافاً يبنياً
عن لهجة الآخر ، أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات وجمل كثيرة لا تستخدم
في اللهجة الأخرى . وقد لوحظ ذلك في بعض الشعوب البدائية على الأخص (١) .
ويخف هذا الاختلاف اللغوي كلما خفت قيود الاختلاط بين الجنسين ؛
فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة في الأصوات والمفردات والجمل
والأماليب ؛ كما هو مشاهد في كثير من المناطق المصرية .
وليست هذه اللهجات في الواقع إلا نوعاً من أنواع اللهجات الاجتماعية ،
التي تقدم الكلام عنها في الفقرة السابقة . فعظم ما قلناه هناك في نشأة اللهجات
الاجتماعية وعواملها وتطورها . . . وما إلى ذلك ، يصدق على هذا النوع .

واللهجات الاجتماعية هي تلك اللهجات التي تنشأ في المجتمعات التي لا تزال تعيش في مرحلة البداوة أو البداوة النصفية ، حيث لا تزال العلاقات الاجتماعية قائمة على أساس القرابة والقبيلة ، ولا تزال السلطة بيد كبار القبيلة أو كبار القبائل .

وتختلف اللهجات الاجتماعية باختلاف المجتمعات التي تنشأ فيها ، فلهجات القبائل البدوية تختلف عن لهجات القبائل النصفية ، والتي تختلف بدورها عن اللهجات الاجتماعية في المجتمعات الزراعية أو الصناعية .

وهذا النوع من اللهجات الاجتماعية هو الذي نشأ في المجتمعات البدوية أو النصفية ، حيث لا تزال السلطة بيد كبار القبيلة أو كبار القبائل ، ولا تزال العلاقات الاجتماعية قائمة على أساس القرابة والقبيلة .

(1) V. Durkheim ; La Prohibition de l'inceste» dans «l'Année Sociologique T. I. P. 49.

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY
110 SPADINA AVENUE
TORONTO, ONTARIO M5S 1A5
CANADA
416 978-2087

الفصل الثاني

فصائل اللغات

وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلوات

(١) أشهر الآراء في فصائل اللغات

حاول كثير من علماء اللغة أن يرجع اللغات الإنسانية - بعد أن تم تفرعها تحت تأثير العوامل السابق ذكرها في الفصل السابق - إلى فصائل عامة ؛ وقد اختلفت وجهات نظرهم بهذا الصدد اختلافا كبيرا .

فبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية التطور والارتقاء ، فقسم اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل تختلف أفراد كل منها عما عداها في درجة رقيها ، وتمثل كل منها مرحلة خاصة من المراحل التي اجتازها الكلام الإنساني في سبيل تطوره . وأشهر نظرية بهذا الصدد هي نظرية شليجيل التي تقسم اللغات من هذه الناحية إلى ثلاث فصائل : اللغات غير المتصرفة أو العازلة ، (وتشمل الصينية ، والسيامية والبرمانية ، والتبتية ... الخ) ؛ و اللغات اللصقية أو الوصلية ، (وتشمل التركية والمنغولية ، والمنشورية ، واليابانية ، ولغات الباسك ... الخ) ؛ و اللغات المتصرفة أو التحليلية ، (وتشمل الفارسية والهندية واللاتينية والإغريقية والجرمانية والعربية والعبرية ... الخ) .

وقد شرحنا في الباب الأول هذه النظرية وناقشناها ، فظهر لنا فسادها من عدة وجوه ، وتبين أن الأساليب الثلاثة التي تقسم على أساسها اللغات الإنسانية إلى فصائل (العزل والصلق والتصرف) ، توجد مجتمعة في كل لغة إنسانية : فلا نكاد نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها^(١) .

(١) انظر آخر صفحة ١٠٥ إلى ١٠٩ .

وبعضهم قطع النظر عن موضوع التطور والارتقاء ، وقسم اللغات الإنسانية إلى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات قرابة لغوية ؛ فتنفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل . . . وما إلى ذلك ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .
وأشهر نظرية قسّمت اللغات على هذه الأسس هي نظرية مكس مولر Max Muller التي ترجع جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل : الفصيلة الهندية الأوروبية ، والفصيلة السامية الحامية ؛ والفصيلة الطورانية^(١) . - وسنتكلم على كل فصيلة منها على حدة فيما يلي :

(٢) الفصيلة الأولى : الهندية - الأوروبية

Langues Indo-Européennes

تشمل هذه الفصيلة ثمانى طوائف من اللغات ، وهي :
١ - « اللغات الهندية - الإيرانية » أو « اللغات الآرية » وتشمل شعبتين : إحداهما شعبة اللغات الهندية (السنسكريتية Sanskrit البراكريتية Prakrit واللغات الهندية الحديثة Langues Néo-indoues . . . الخ) :
والأخرى شعبة اللغات الإيرانية (الفارسية القديمة Vieux perse ، والزند

(١) فطن كثير من العلماء قبل مكس مولر إلى صلات القرابة التي تربط اللغات الهندية والآرية والأوروبية بعضها ببعض ، وإلى الصفات التي يشترك فيها أفراد الفصيلة الحامية - السامية ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في فقرة « تاريخ البحوث اللغوية » وكما أشرنا إليه في كتابنا « فقه اللغة » (انظر صفحتي ٤٩ ، ٥٠ وانظر كذلك كتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية صفحتي ٦٤٥) - ولكن يرجع الفضل إلى مكس مولر في تكملة هذه البحوث ونشرها ، وفي دراسة الفصيلة الهندية الأوروبية على الأخص دراسة عميقة مستوعبة ، وفي إضافة فصيلة ثالثة إلى الفصيلتين السابقتين ، وهي فصيلة اللغات الطورانية (وقد اتفق معه في جعل هذه اللغات فصيلة ثالثة العلامة الألماني بونس Bnnsen في كتاب له Outlines of the philosophy of Universal history ظهر في نفس العصر الذي ظهر فيه بحث مكس مولر بهذا الصدد Letter on the Classification of the Turanian Languages) . - ولهذا نسب إلى مكس مولر تقسيم اللغات إلى هذه الفصائل الثلاث . (٧)

أو الأفستية Zend ou Avestique وهي لغة الأسفار المقدسة المسماة الأفستا
أو الزند - أفستا، والبهلوية Pehlvi، والفارسية الحديثة Néo-Persan، والكردية
Kurde، والأسيتية Ossète، وهي لغة الأسيتيين Ossètes وهم سكان القوقاز
الأوسط، والأفغانية... وهلم جرا).
ولكثرة وجود الشبه بين هاتين الشعبتين عدما علماء اللغة طائفة واحدة
سموها طائفة «اللغات الهندية الإيرانية» أو طائفة «اللغات الآرية». :
وكان القدامى من علماء اللغة يتوسعون في كلمة «اللغات الآرية» فيطلقونها على
جميع طوائف الفصيلة الهندية - الأوروبية، من قبيل إطلاق الخاص على العام.
ولكن المحدثين منهم آثروا العدول عن هذا الاستعمال إتقاء للخلط واللبس،
فأصبحوا لا يطلقون كلمة «اللغات الآرية» إلا على الطائفة التي نحن بصدد
الكلام عليها^(١).

٢ - «اللغات الأرمنية» Langues Arméniennes.
٣ - «اللغات الإغريقية» (وتشمل اللغات اليونانية القديمة، وأشهر هذه
اللغات اليونانية - الأتيكية، والدورية؛ وتشمل كذلك اللغات اليونانية التي
تسكونت في القرون السابقة لليلاد وقامت على أنقاض اللغات اليونانية القديمة.
واشتهرت عند علماء اللغة باسم «اليونانية الحديثة»؛ وتشمل كذلك اللغات اليونانية
في العصر الحاضر).

٤ - الألبانية.

٥ - «اللغات الإيطالية» (وتشمل الآسكية Osque، والأمبرية-السمنية
Ombrien - Samnite واللاتينية، واللغات الرومانية Langues Romanes
وهي المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية ولغة
رومانيا... الخ).

(1) V. Les Langues du Monde p. 28

٦ — « اللغات السلتية » ، Langues Celtiques (التي كانت لغات شعوب السلت أو الكلت Les Celtes . وقد طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، ولسكن بقي بعض أشكال منها في كثير من اللهجات المحلية بإيرلندا وويلز ومنطقة البريتون Bretagne بغرب فرنسا) .

٧ — « اللغات الجرمانية » ، Langues Germaniques ، وتشمل ثلاث شعب :

أولها شعبة الجرمانية الشرقية وهي اللغة الجوتية Gothique (وهي لغة قبائل الجوث Goths وهو شعب قديم كان يسكن جرمانيا الشرقية) .
وثانيها شعبة اللغات الجرمانية الشمالية ، وهي لغات أيسلندا والدانيمرك والسويد والنرويج .

وثالثها شعبة اللغات الجرمانية الغربية وتشمل الإنجليزية — السكسونية ، والإنجليزية الحديثة ، والهولندية واللغة الفلامندية (لغة مقاطعة الفلاندر ببلجيكا . ويتألف من هذه اللغة مع اللغة الهولندية فرع لغوي واحد يسمى فرع اللغات النثرلندية) واللغات الألمانية . . . الخ .

٨ — « اللغات البلطيقية السلافية » ، وتشمل شعبتين :
إحداهما شعبة اللغات البلطيقية : وهي الليتوانية Lituanienne (لغة ليتوانيا Lituanie) والليتونية Lette (لغة ليتونيا Lettonie أو لاتفيا Latvia)
والبروسية القديمة .

والأخرى شعبة اللغات السلافية أو الصقلبية : وهي السلافية القديمة ، والروسية ، والبولونية ، والتشيكية ، والسربية — السكرواوية ، والبلغارية الحديثة (١) .
ومن هذا يظهر أن اللغات الهندية — الأوروبية هي أكثر اللغات الإنسانية

(١) أما البلغارية القديمة قبل أن يتغلب عليها اللسان الصقلي فهي من فصيلة اللغات الفينوانية ،
أنظر آخر ص ١٩١ .

انتشاراً ؛ إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا والأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا ما عدا بعض جماعات قليلة بأوروبا تتكلم بالسكية أو الفينية أو المجرية أو التركية رماً إلى ذلك ، وما عدا السكان الأصليين للأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا الذين انقرض معظمهم ولم يبق منهم الآن إلا عدد يسير أخذ في الانقراض ، ويتكلم بها كذلك قسم كبير من سكان آسيا (الهند ، فارس . أفغانستان ، السكردستان ، القوقاز الأوسط ، أرمينيا . . الخ) .

والشعوب الناطقة بهذه الفصيلة هي أرقى الشعوب مدنية في العصر الحاضر ، وأعظمها نشاطاً ، وأكبرها شأناً ، وأكثرها إنتاجاً في مختلف فروع الحياة ، وأجلها أثراً في الحضارة الإنسانية الحديثة .

ويرجع الفضل في انتشار هذه الفصيلة إلى عوامل كثيرة أهمها الغزو والاستعمار . فعلى أثر غزو الآريين الهند انتشرت لغاتهم في هذه البلاد وقضت على لغات السكان الأصليين (لم يبق من هذه اللغات إلا آثار ضئيلة سنعرض لها في كلامنا على الفصيلة الثالثة) . وعلى أثر استعمار الأوروبيين للأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا انتقلت إلى هذه المناطق اللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية .

أما الموطن الأول لهذه الفصيلة فلا نكاد نعرف شيئاً يقينياً عنه ؛ وقد ذهب العلماء بصده مذاهب كثيرة تعتمد في معظم نواحيها على الحدس والتخمين وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمي : فمن قائل إنها نشأت في آسيا الوسطى بمنطقة التركستان وما إليها ؛ ومن قائل إنها نشأت بأوروبا الشرقية بالمناطق الروسية ؛ ومن قائل إنها نشأت بمناطق بحر البلطيق .

وتمتاز هذه الفصيلة بكثرة شعبها واتساع هوة الخلاف بين أفرادها . فقد انقسمت إلى الطوائف الثمان السابق ذكرها ؛ وانقسمت كل طائفة من هذه الطوائف إلى شعب ، وكل شعبة إلى عدد كبير من اللغات ؛ وسلكت كل لغة من هذه اللغات في ارتقائها سبيلاً مختلفاً عن سبيل غيرها ؛ فكثرت وجوه الخلاف بينها ، وتضاءلت

وجوه الشبه ، حتى أن بعضها ليبدو غريباً عن بعض ، ولا تظهر صلة قرابته به إلا بعد تأمل عميق . ويرجع السبب في هذا إلى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات التي انتشرت فيها هذه الفصيلة واختلاف الشئون الاجتماعية التي اكتسفت الناطقين بكل شعبة منها . وقد ترتب كذلك على هذه العوامل أن اختلفت كل لغة منها عما عداها في درجة رقيها ومبلغ بعدها عن أصولها الأولى . فمنها ما لا يزال جامداً على خصائصه القديمة ومنها ما قطع في زمن يسير مرحلة واسعة في طريق الارتقاء ، ومنها ما سار في هذه السبيل بخطى متتمة بطيئة . فانتشار الشعبة الإيرانية مثلاً في مناطق عريقة في الحضارة ، وتأثرها باللغات التي كانت سائدة في هذه المناطق . . . كل ذلك وما إليه قد ذل لها وسائل الارتقاء ، فسارت في هذه السبيل بخطى حثيثة ، حتى وصلت في أوائل القرن الأول الميلادي إلى شأو لم تبلغ مثله اللغات الأوروبية إلا حوالي القرن العاشر . على حين أن انتشار اللغة الليتوانية مثلاً في منطقة زراعية ضيقة تغلب على أهلها صفة المحافظة على القديم ، وبقاء هذه المنطقة بمعزل عن تيارات الحضارة وعن المؤثرات الخارجية . . . كل أولئك قد عاق تقدم اللغة ، فظلت محتفظة بكثير من الأشكال الأولى لفصيلتها .

وسنتكلم بتفصيل على هذه الأمور وما يتصل بها في الفصول التالية من الكتاب .^(١)

(٣) الفصيلة الثانية : الحامية - السامية

Langues Chamito - Sémitiques

تشمل هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات : إحداهما مجموعة اللغات السامية ؛ وتانيهما مجموعة اللغات الحامية .

أما مجموعة اللغات السامية ، فتتوزع طائفتين :

(١) أنظر الفصل الرابع والفصول التالية له .

١ — اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغات الأكدية Accadien أو الآشورية البابلية Assyro — Babylonniennes^(١) . واللغات السكنعانية (العبرية والفينيقية)^(٢) واللغات الآرامية^(٣) .

٢ — اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية^(٤) واليمينية القديمة^(٥) واللغات الحبشية السامية^(٦) .

وأما مجموعة اللغات الحامية ، فتنظم ثلاث طوائف :

٢ — اللغات المصرية ، وتشمل المصرية القديمة والقبطية .

٢ — اللغات الليبية أو البربرية ، وهي لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) ، وتشمل اللغات القبيلية Kabyles ، والشاوية Chaouia (اللغات القديمة لسكان الجزائر) والتماشكية Tamachek (وهي اللغات القديمة لقبائل التوارج Touareg وهي قبائل رحالة بصحراء المغرب) ، واللغات الشلحونية أو لغات الشلحا أو لغات أهل الشلوح Chellouh (لغات السكان الأصليين لجنوب مراكش) ولغات زناجة Zénaga واللغات الجونشية Guanche (لغات السكان الأصليين لجزر قناريا Canaries بالمحيط الأطلنطي ، في الشمال الغربي من الصحراء الكبرى) . . . وهلم جرا .

٣ — اللغات الكوشيتية Couchitiques^(٧) وهي لغات السكان الأصليين للقسم الشرقي من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء

(١) انظر تفصيل القول في اللغات الأكدية في الفصل الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

(٢) انظر تفصيل القول في اللغات السكنعانية في الفصل الثاني من كتابنا « فقه اللغة » .

(٣) انظر تفصيل القول في اللغات الآرامية في الفصل الثالث من كتابنا « فقه اللغة » .

(٤) انظر تفصيل القول في اللغة العربية في الفصل السادس من كتابنا « فقه اللغة » .

(٥) انظر تفصيل القول في اللغة اليمينية القديمة في الفصل الرابع من كتابنا « فقه اللغة » .

(٦) انظر تفصيل القول في اللغات الحبشية السامية في الفصل الخامس من كتابنا « فقه اللغة » .

(٧) نسبة إل كوش Cuch وهو أحد أولاد حام (انظر سفر التكوين ، الأصحاح العاشر ،

الفقرة السادسة ونوابها) .

وحدود مصر (ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية والتي تقدم ذكرها في المجموعة الأولى وما عدا المناطق السودانية وما إليها التي سيأتي ذكر لغاتها في الفصيلة الثالثة)؛ فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا ، والبديجا ، ودنقلة ، والأجاو ، والأفار أو الساهو ، والسيداما . . الخ، Somali, Galla, Bedja, Dankali, Agaw, Afar ou Saho, Sidama..etc. ويتكلم باللغات السكوشية كذلك نحو ثلث سكان الحبشة .

ومن هذا يظهر أن المنطقة التي تشغلها الفصيلة الحامية - السامية أصغر كثيراً من المنطقة التي تشغلها الفصيلة الهندية الأوروبية . فبينما الفصيلة الهندية الأوروبية تشغل أوروبا والأمريكيتين وأستراليا وجنوب أفريقيا وقسماً كبيراً من آسيا ؛ إذ الفصيلة الحامية - السامية لا تشغل إلا بلاد العرب وشمال أفريقيا وجزءاً من شرقها (إلى درجة عرض ٤ جنوب خط الاستواء) . فنطقتها لا تتجاوز عشرين مليون كيلو متر مربعاً ، بها قسم كبير صحراوي (ببلاد العرب وشمال أفريقيا) ؛ وعدد الناطقين بها لا يتجاوز ستين مليوناً ، أي نحو عشر سكان أوروبا وحدها . ولكنها تمتاز عن الفصيلة الهندية الأوروبية بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أي عنصر أجنبي .

ويتألف من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها في أصول واحدة قريبة ، وتتفق في أساليب الحياة ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية . ويجمع بين اللغات السامية (المجموعة الأولى من هذه الفصيلة) كثير من الصفات المشتركة المتعلقة بأصول الكلمات والأصوات ومخارج الحروف وقواعد الصرف والتنظيم . . . وما إلى ذلك . - وقد قويت وجوه الشبه بين بعض أفرادها حتى ليحسبها الباحث مجرد لهجات للغة واحدة (١) .

أما مجموعة اللغات الحامية - (المجموعة الثانية من هذه الفصيلة) . فلا يوجد بين طوائفها الثلاث (المصرية والبربرية والسكوشيتية) من وجوه الشبه والقرابة

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا « فقه اللغة » وخاصة في مقدمته .

اللغوية أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات السامية . فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق في شيء مع حقائق الأمور .

ولذلك عدل بعض المحدثين عن تقسيم هذه الفصيلة إلى مجموعتين ، وآثر جعلها من بادىء الأمر أربع مجموعات : السامية ، والمصرية ، والبربرية ، والسكوشيتية^(١) .
وتختلف هذه المجموعات الأربع بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير في كثير من الظواهر ؛ ولكن بينها ، على الرغم من ذلك ، من وجوه الشبه والقرابة اللغوية ما يسمح بجعلها فصيلة واحدة مقابلة للفصيلة الهندية الأوروبية .

هذا ، وقد تغلبت مجموعة اللغات السامية على المجموعات الثلاث الأخرى واحتلت كثيراً من مناطقها . فاللغات القبطية والبربرية قد انهزمت أمام اللغة العربية ولم يبق منها الآن إلا فلول ضئيلة^(٢) ؛ وكذلك كانت نهاية السكوشيتية في صراعها مع اللغات السامية : فقد احتلت اللغات السامية معظم مناطقها ، ولم يبق الآن من اللغات السكوشيتية إلا بعض لهجات قليلة في بلاد الحبشة وفي المناطق المتاخمة لها .

وقد اشتبكت اللغات السامية نفسها في صراع بعضها مع بعض . وأول صراع حدث بينها كان صراع الآرامية مع اللغات الأكادية والكنعانية . فقد اشتبكت في صراع مع الأكادية أولاً وقضت عليها في أوائل القرن الرابع ق . م ، ثم صرعت العبرية في أواخر القرن الرابع ق . م ، وتغلبت على الفينيقية بآسيا في القرن الأول ق . م . والصراع الثاني كان صراع العربية مع اخواتها فقد اشتبكت في صراع مع اللغات اليمنية القديمة وقضت عليها قبيل الإسلام . ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق متطرفة نائية ساعد انزالها وانزواؤها على نجاتها ، فظلت محتفظة بلهجاتها

(١) وهذا هو ما سار تليه العلامة مارسيل كوهين Marcel Cohen . أنظر :

Les Langues du Monde P.P. 81 — 153, en part. 83.

(٢) لا تزال البربرية الى الوقت الحاضر لغة حديث بين كثير من القبائل المغربية وخاصة في

مراكش وفي بعض الواحات التابعة لطرابلس وغيرها . ومن هذه الواحات واحدة « أوجلة » الواقعة عند حدود برقة من الجنوب ، فإن أهلها من البربر ، ولا يزالون يتكلمون البربرية الى اليوم .

القديمة حتى العصر الحاضر . ثم اقتحمت العربية على الآرامية معاقلها في الشرق والغرب وانتزعتها منها معقلا معقلا حتى تم لها القضاء عليها حوالي القرن الثامن الميلادي . ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق جبلية منعزلة لا تزال تتكلم اللهجة الآرامية إلى العصر الحاضر ^(١) . وامتد أثر العربية إلى الأمم الآرية والطورانية التي اعتنقت الدين الإسلامي (الفرس ، الهنود ، الأتراك . . . الخ) فاحتلت لديها مكانة مقدسة سامية ، وتركت آثاراً عميقة في كثير من لغاتها ، فالتسعت بذلك مناطق نفوذها حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بسلطانها نحو اربعمائة مليون من سكان المعمورة ^(٢) .

(٤) الفصيلة الثالثة : اللغات الطورانية

Langues Touraniennes

أطلق مكس مولر وبونسن Bunsen ^(٣) اسم « اللغات الطورانية » على طائفة من اللغات الآسيوية والأوروبية التي لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين ، كالتركية والتركانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا ؛ وتابعهما في ذلك كثير ممن جاء بعدهما .

فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أي مجموعة ترجع إلى أصول واحدة ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة ، بل هي أمشاج من لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية وهي عدم دخولها في إحدى الفصيلتين السابقتين . — هذا إلى أن القائلين بها لم يدخلوا تحتها جميع اللغات الإنسانية الخارجة

(١) أنظر تفصيل هذه الموضوعات جميعها في كتابنا « فقه اللغة » .

(٢) يبلغ عدد المسلمين في العالم حسب أحدث احصاء ٤٠٠ مليون وتبلغ نسبتهم الى مجموع سكان العالم البالغ عددهم ٢١٧٠ مليوناً ١٨٥ . / . ومنهم بأفريقيا ٦٨ مليوناً (٤٠ . / . من مجموع سكانها) وفي آسيا ٣١٨ مليوناً (٢٧ . / . من مجموع سكانها) وفي أوروبا ١١ مليوناً (٢ . / . من مجموع سكانها) وفي الأمريكتين جاليات إسلامية لا يزيد عددها على ثلاثة ملايين (واحد وكسور في المائة من مجموع سكانها البالغ ٢٧٢ مليوناً) .

(٣) أنظر التعليق الأول بصفحة ١٨٠ .

عن الفصيلتين المذكورتين ، بل قصروها على طائفة منها وهي بعض اللغات الآسيوية والأوروبية .

فهذا قسم غير قائم على أساس وغير شامل لما بقي من لغات العالم . (وليس غريباً) ولذلك عدل المحدثون من علماء اللغة عن استعمال كلمة « اللغات الطورانية »^(١) ، وعمدوا إلى ما بقي من اللغات الإنسانية خارجاً عن الفصيلتين السابقتين فقسموه إلى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات تشابه وقرابة لغوية ، فتنفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعته إنسانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأحدث نظرية بهذا الصدد هي ما ذهب إليها « جمعية علم اللغة بباريس Société de Linguistique de Paris » في موسوعتها « لغات العالم Les Langues du Monde » ، إذ قسمت ، على الأسس السابق ذكرها ، جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين الحامية - السامية ، والهندية - الأوروبية إلى تسع عشرة فصيلة وهي :

١ - فصيلة اللغات اليابانية .

٢ - « فصيلة اللغات الكورية Coréen » ، (لغات سكان شبه جزيرة كوريا التي كانت تابعة لليابان والواقعة بين بحر اليابان والبحر الأصفر) .

٣ - لغة الأينو La Langue Ainou . - ويتكلم بها الآن نحو عشرين ألفاً من سكان جزيرة هوكادو Hokkado وجزيرة ساكها لين Sakhaline وجزيرة شيكوتو Shikotau (وكلها كانت تابعة لليابان) .

ولم تثبت صلة قرابة بين هذه اللغة وأية لغة من اللغات الحية ولذلك عدت

فصيلة على حدها .

(١) ذهب هذا المذهب من القدامى أنفسهم العلامة رينان . فعلى الرغم من موافقته مكس مول (الذي كان معاصراً له) في كثير من آرائه ، فإنه قد رفض الأخذ بنظرته بصدد اللغات الطورانية ، ووجه إليها نقداً لاذعاً في كتابه أصول اللغة . V. Renan ; L'Origine du Langage P.P. 40 .

٤ - فصيلة اللغات الصينية - التبتية ، وتشمل اللغات الصينية الأصلية ولهجاتها والتبتية Tibétain ، والبرمانية Birman ، والسيامية Siamois (لغة سيام) .

٥ - فصيلة اللغات الأسترالية الإسيوية ، (التي يتكلم بها القسم الإسيوي الجنوبي المنحدر إلى أستراليا) ، وتطلق على ثلاث شعب : شعبة اللغات الأنامية (لغة سكان أنام من الهند الصينية) ؛ وشعب اللغات الموندية Langues Mounda أو الكولارية Kolariens (سن أقدم لغات الهند ، بل من أقدم اللغات الإنسانية جميعها ، ويتكلم بها الآن نحو مليون نسمة من الهنود ، ومنطقتها في الجزء الجنوبي من الهند) ؛ وشعب اللغات المونكهمرية Les Mon-Khmer (ويدخل فيها المنية Le Mon والسكهمرية Khmer أو السكبدجية Cambodgien والتشامية Tcham . ويتكلم بهذه اللهجات بمنطقة أسام Assam وما إليها) .

٦ - فصيلة اللغات الدرافيدية Dravidienne (لغات بعض الشعوب التي كانت تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الآريون . وتشمل التامولية Tamoul والكانارية Kanarais وغيرهما) .

٧ ، ٨ - اللغات القوقازية (ولا يطلق هذا الاسم في اصطلاح علماء اللغة على جميع اللغات القوقازية ، بل على مجموعة خاصة منها ، وهي اللغات القوقازية التي ليست سامية ، ولا هندية - أوروبية ، ولا أورالية - ألتائية) ، وتشمل فصيلتين لم تثبت بعد صلات القرابة بينهما بشكل قاطع ،^(١) ولذلك عددناهما فصيلتين لفصيلة واحدة ، وهما : « فصيلة اللغات القوقازية الشمالية » (وتشمل السامورية Samourien والأرتسية Artsi والأديغية Adeghé ... وغيرها) ؛ و « فصيلة اللغات القوقازية الوسطى » (وتشمل الجيورجية Géorgien ، واللازية Laze ... وغيرها) .

٩ - « فصيلة اللغات الأسيوية القديمة » ، Langues propres de l'Asie antérieure ancienne . - يطلق هذا الاسم في عرف علماء اللغة على بعض

لغات أسيوية قديمة غير سامية ولا هندية - أوروبية ، كان يتكلم ببعضها في مملكة ميزوپوتاميا Mésopotamie (مملكة قديمة كانت تقع بين دجلة والفرات) وبعضها في آسيا الصغرى وفي المناطق المتصلة بها من حوض البحر الأبيض المتوسط وفي بعض أجزاء من إيطاليا (١).

ومن أهم لغات هذه الفصيلة اللغة السومرية Sumérien ، وهي لغة غير سامية ولا هندية - أوروبية ، كان يتكلم بها شعب مجهول الأصل كان يسكن حوض الفرات الأدنى بقرب خليج فارس ، أى في المنطقة التي احتملتها فيما بعد الشعوب السامية الآشورية والبابلية ونشرت فيها لغاتها الأكادية (شعبة من اللغات السامية، وتسمى كذلك شعبة اللغات الآشورية - البابلية (٢)).

ويرجع الفضل في الوقوف على اللغة السومرية إلى ما عثر عليه أخيراً من آثارها مكتوباً بالخط المسهامى . وتتألف هذه الآثار من وثائق هامة بعضها أدبى - لغوى (شعر ، قواعد ، بحوث لغوية ... الخ) ، وبعضها علمى (فلك ، طبيعة ... الخ) وبعضها اجتماعى - تاريخى (يعرض للشئون الاقتصادية والقضائية والسياسية والإدارية والدينية والأسطورية والتاريخية ... وهلم جرا) .

١٠ - فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية .

١١ - فصيلة اللغات الفينية Finnois والأجرية Ougriennes والسامويدية Samoyèdes (ويتكلم بهذه اللغات في الحوض الأوسط لنهر الفولجا Volga) . - ويدخل في الفينية اللغات الفنلندية والأستونية والبلغارية القديمة (٣) وغيرها . - ويدخل في الأجرية اللغات اللابونية Lapons (لاترال لهذه اللغات بقايا في السويد

(١) انتقلت هذه اللهجات إلى إيطاليا على أثر هجرة بعض الشعوب إليها من آسيا الصغرى . - وأشهر اللغات الإيطالية القديمة التي تعد من هذه الفصيلة هي اللغة الأتروسكية Etrusque التي كان يتكلم بها الأتروسكيون Etrusques أو الراجينيون Rasennes (ومم سكان المنطقة المسماة قديماً أتروريا Etrurie) .

(٢) انظر أول صفحة ١٨٥ ، وانظر تفصيل الكلام في اللغتين الأكادية والسومرية بالفصل الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

(٣) قد انقرضت هذه اللغة وحل محلها لسان صقلبي كما سنذكر ذلك في الفصل الثالث: صراع اللغات .

والنرويج وغيرهما) واللغات الهنغارية... وغيرها. - وتنشعب السامويدية إلى الأستياكية Ostiak واليوراكية Yourak والتاجورية Tavgui وغيرها. هذا، وقد كان القدامى من علماء اللغة يجمعون معظم أفراد الفصيلة العاشرة والحادية عشرة تحت فصيلة واحدة كانوا يسمونها الأورالية - الألتائية Ouralo - Altaïque أو الطورانية. - ولكن ظهر للمحدثين فساد هذا المذهب وتبين لهم أن كلتا المجموعتين مستقلة عن الأخرى.

١٢ - لغة الباسك Basque أو الأسكارا Euskara. ويتكلم بها الباسكيون، وهو شعب يقطن منطقة جبال البرانس الغربية في العدوتين الإسبانية والفرنسية، بمناطق بيسكاي Biscaye وألأفا Alava وجويبوزكوا Guipuzcoa ونافار Navare (إسبانيا)، وبمناطق بيون Bayonne وموليون Mauléon بفرنسا. ويدل الإحصاء الذي عمله الأستاذ لويس - لوسيان بونابرت Louis - Lucien

Bonaparte عام ١٨٧٣ أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ نحو ٦٦٠ ألفاً في إسبانيا ونحو ١٤٠ ألفاً في فرنسا. - ولكن ليس من شك في أن منطقة اللغة الباسكية، وبخاصة منطقتها الإسبانية، كانت قديماً أوسع كثيراً مما يرشد إليه هذا الإحصاء؛ وقد ضاقت الآن عما كانت عليه عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والإسبانية على بعض أجزائها، وخاصة في إقليم نافار Navarre.

هذا. وقد هاجر إلى أمريكا عقب كشفها بعض أسرات من الباسكيين فانتشرت لغتهم في المناطق التي حلوا بها. ولا ينفك يتكلم بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم.

١٣ - اللغات الهيبيرورية Heperboréennes أو لغات أقصى الشمال، وهي لغات سيبيريا وما إليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية. - وتشمل هذه الفصيلة اللغة اليوكاجيرية Youkagir التي يتكلم بها في القسم الغربي من هذه المنطقة؛ والتشوكتشية Tchonktche التي يتكلم بها نحو عشرة آلاف يقطنون سيبيريا شمالي نهر أنادير Anadyr؛ والكوريائية Koryak التي يتكلم بها في المنطقة المحصورة بين نهر أنادير وشبه جزيرة كمتشاتكا Kamtchatka؛ والكمتشادية

Kamtchadal التي يتكلم بها نحو ألفين يقطنون شبه جزيرة كمتشاتكا وجزر كوريل Kouriles ، والجيلياكية Guiliak التي يتكلم بها في شمال جزيرة ساكهالين Sakhaline وفي الحوض الأدنى لنهر أمور Amour .

١٤ - اللغات الملايوية - البولينية Malayo-Polynésiennes - ويتكلم بهذه الفصيلة في طائفة كبيرة من جزر المحيطين الهندي والهادي تبدأ شرقاً بجزيرة مدغشقر (٤٠ درجة طول شرقي باريس) وتنتهي غرباً بجزيرة باك Paques (١١٠ درجة طول غربي باريس) ، وتمتد من درجة عرض ٥٠ جنوب خط الاستواء إلى درجة عرض ٥٠ شماليه . فمناطق هذه الفصيلة تشغل نحو ٢١٠ درجات طول وثمانين درجة عرض .

وتشمل هذه الفصيلة خمس شعب لغوية وهي :

شعبة اللغات الاندونيسية Indonésiennes ، وهي التي يتكلم بها بجزر أندونيسيا : جزر الفيليبين ، وسيليب ، وبرنيو ، وجاوة ، وسومطرة ، ومادورا ، ومدغشقر ... الخ ؛

وشعبة اللغات الميلانيزية Mélanésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر ميلانيزيا (جزر سليمان ، وسانت كروز ، وتوريس ، وهابريد الجديدة ، ولويالتي ، وفيدجي ... الخ) ؛

وشعبة اللغات الميكرونيزية Micronésiennes ، وهي التي يتكلم بها في جزر ميكرونيزيا (جزر جلبرت ، ومرشال ، وكارولين ، وماريان ... الخ) ؛
وشعبة اللغات البولينية Polynésiennes وهي التي يتكلم بها في جزر پولينيزيا (جزر ساموا ، وكوك ، وتاهيتي أو جزر الشركة ، وپوموتى ، وتونجا ، ومنتجاريقا ، وباك ، وزيلندا الجديدة ... الخ) ؛

وشعبة لغات البابو Langues Papoues ، وهي اللغات التي يتكلم بها في غينيا الجديدة Nouvelle Guiuée والجزر المجاورة لها .
١٥ - لغات سكان أستراليا الأصليين .

١٦ - اللغات الأمريكية . ويتكلم بها سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر ومن إليهم) . - وكان يبلغ عددهم حينما كشفت أمريكا حوالي ٤٠ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد تقريباً في كل كيلو متر مربع) ؛ ثم أخذ عددهم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى هبط في أوائل القرن العشرين إلى حوالي ١٥٥ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد في كل ٢٥٥ كيلو متر مربع) ؛ منهم نحو نصف مليون في الولايات المتحدة وجرونلاندا ، ونحو ٦٥٥ مليون في المكسيك وأمريكا الوسطى (هو ندراس ، وكوستاريكا ، وبنما ، ونيكاراجا ، وجواتيمالا ، وسلفادور) ، ونحو ٨٥٥ مليوناً بأمريكا الجنوبية .

وقد كان لتخلخل السكان في هذه المنطقة أثر كبير في تعدد لغاتها . فقد بلغت حسب إحصاء العلامة ريفيه Rivet ^(١) ، ١٢٣٣ شعبة : منها ٢٦ بأمريكا الشمالية و ٢٠ بأمريكا الوسطى و ٧٧ بأمريكا الجنوبية .

ومن أشهرها بأمريكا الشمالية لغات الإيروكويين Iroquois ، والألجنكويين Algonkins والإسكيمو Esquimaux ، والسيو Siou ؛ وبأمريكا الوسطى لغات الأماوسجو Amosgo ، والسكويكاتك Kuikatek ، واللكا Lenka ، والميا Maya ؛ والميسكيتو Miskito ؛ وبأمريكا الجنوبية لغات الألاكولف Alakaluf ، والأروكان Aroukan ، والأراواك Arawak ، والأتاكاما Atakama ، والكاريب Karib ، والإيتوناما Itonama .

هذا ، ولم تظهر بعد بشكل قاطع صلة قرابة لغوية أو صفة مشتركة تربط هذه الشعب بعضها ببعض . فالفصيلة التي نحن بصدد الكلام عنها هي إلى الفصيلة الجغرافية أدنى منها إلى الفصيلة اللغوية .

١٧ - لغات السودان وغانة ^(٢) . - وهي لغات غير سامية ولا حامية تتكلم بها جماعات كثيرة من زنوج السودان وسكان غانة . وقد قسمها العلامة موريس

(١) V. Rivet. dans : Les Langues du Monde p.p. 597-713

(٢) هي الجزء الغربي من أفريقيا المحصور بين سنغاليا شمالاً والكنغو جنوباً والواقع

على سواحل خليج غانة .

ديلافوس Maurice Delafosse إلى ٤٣٥ لغة ترجع إلى ست عشرة شعبة (١) :
منها الشعبة النيلية التشادية Nilo-tchadien (يتكلم بها في المنطقة المحصورة بين
أسوان شمالا وفاشودة جنوبا ، وتشتمل على ثلاثين لغة من أشهرها لغات النوبة
والباريا ، والتوبو ، والميمي ، والسكوناما .. الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية -
الأييسينية (يتكلم بها في الحوض الأوسط للنيل الأزرق وفي حوض النيل الأبيض
وبحر الجبل ، وتشتمل على خمس عشرة لغة من أشهرها لغات الشيلوك ، والدنكا ،
والديور ، والجاميلا ، والدوكو .. الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية - الاستوائية
(يتكلم بها في جنوب المنطقة السابقة ، وتشتمل على ست وعشرين لغة من أشهرها
لغات البارى ، واللاتوكا ، والليرى ، والكافيرونندو ، والتاتورو .. الخ) ؛ وشعبة
لغات كردوفان (يتكلم بها في منطقة كردوفان ، وتشتمل على عشر لغات منها لغات
التالورى ، واللافوفا ، والتومتوم ، والكاندرما .. الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية -
السكونغوية ؛ وشعبة اللغات البنغالية - الغانية .. وهلم جرا .

١٨ - اللغات البنطوية Langues Bantou . - ويتكلم بها سكان القسم
الجنوبي من أفريقيا في منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجاء
الصالح ، ويمتد ضلعه الأيمن على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى بلاد الصومال (٢)
وضلعه الأيسر على الساحل الغربي حتى مدينة دوالا Douala ببلاد الكمرون (٣) .
وتتجه قاعدته من بلاد الصومال إلى المحيط الإطلانطيقي مارة شمال أوغندا
والسكنغو . وكل الشعوب التي تقطن هذا المثلث تتكلم البنطوية ما عدا قبائل
الهوتنتوت والبوشيمان والنيجريين التي سيأتى ذكرها في الفصيلة التاسعة عشرة ،
وما عدا المتكلمين بالانجليزية وبالأفريكانية من سكان أفريقيا الجنوبية (٤) .

(١) V. Maurice Delafosse, dans "Les Langues du Monde" p. p. 463-561

(٢) الغاية هنا خارجة ، فلغات الصومال من الشعبة الكوشيتية (إحدى شعب الفصيلة السامية

الحامية) كما تقدم ، أنظر آخر ص ١٨٥ وأول ص ١٨٦ .

(٣) الغاية هنا داخلية ، فلغة دوالا من أم لغات هذه الفصيلة .

(٤) أنظر ص ١٥٨ وتعليق رقم ١ .

وتشتمل هذه الفصيلة على لغات كثيرة من أشهرها لغات السوثو Sotho ،
والسواحلي Swahili ، والدوالا Douala ، والجنندا Canda ، والجالوا Galoa ،
والتونجا Tonga ، والزولو Zoulou (وهي التي يتكلم بها قبائل الزولو)^(١) .

هذا ، وقد كان العرب على اتصال بأهل زنجبار منذ عصور سحيقة ؛ ولذلك
عنوا بدراسة لغتهم (المسماة السواحلية Swahili) ودونوها بحروف عربية ؛
وعن طريقهم وصلنا كثير من تفاصيل هذه اللهجة . أما اللغات الأخرى من هذه
الفصيلة فقد عني بدراستها كثير من أعضاء الإرساليات الدينية في هذه المنطقة ،
ودونوها بحروف لاتينية مع بعض علامات تمييز الأصوات الخاصة بها^(٢) .

١٩ - لغات البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين - Boschimans, Hotten
totes Négrilles وهي من القبائل الأفريقية الجنوبية : تقطن أولها الغابات
الاستوائية والمناطق الصحراوية ، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن خمسين ألفاً ؛
وتقطن ثانيها منطقة محصورة بين خط عرض ٢٤ جنوب خط الاستواء والحوض
الأدنى لنهر الأورانج وبعض أجزاء من مستعمرة الكاب ، ولا يتجاوز عدد أفرادها
الآن ربع مليون يتألف معظمهم من عشائر الناما Nama^(٣) ؛ وتتألف ثالثها
من أقزام يقطنون الغابات الاستوائية .

(١) ينحدر الزولو من قبيلة الكافر الأفريقية ، ولا يتجاوز عددهم في الوقت الراهن ٢٤٥ ألفاً
يسكنون بقري النانال . وتعد مدينة دربان (التي أنشئت سنة ١٨٢٤ وسميت باسم السير بنيامين دربان
حاكم مستعمرة الكاب في ذلك العهد) عاصمة بلادهم ، ويسكنها أكثر من ستين ألفاً منهم . وم قوم
أولو بأس وشدة وشجاعة نادرة في القتال . ولم ينفكوا يقا تلون المستعمرين من البوير والهولنديين
والانجليز ويدافعون عن استقلال بلادهم حتى غلبوا على أمرهم سنة ١٨٨٢ وضمت بريطانيا بلادهم رسمياً
إلى ممتلكاتها في أفريقيا . — (أنظر ما نشره في هذا الصدد الأستاذ منصور جاب الله في جريدة
الأهرام في ١/٢٣/١٩٤٩ . — وانظر كذلك Homburger, dans : Les Langues du
Monde, p. 583

(٢) أنظر في هذه الفصيلة Homburger, dans : Les Langues du Monde p p. 561-591

(٣) كانت عشائر الهوتنتوت تقطن قديماً منطقة واسعة جنوب نهر زمبيزي ، ثم أخذت هذه
المنطقة تضيق شيئاً فشيئاً تحت تأثير غارات البنطويين من الشمال والأوروبيين من الجنوب حتى انحصرت
في الحدود التي وصفناها .

هذا ، ولما كانت هذه الفصائل ممثلة للقسم البدائي أو الذي وقف نموه من لغات
عبي الإنسان ، فأهميتها النسبية أقل كثيراً من أهمية الفصيلتين السابقتين (الهندية -
الأوروبية ؛ والحامية - السامية) ؛ ولما كان المقام ، من جهة أخرى ، لا يتسع
في عجالة كهذه للكلام عنها وعن خصائص كل منها ^(١) ولأن الباحثين ، من جهة
ثالثة ، لم يصلوا بعد في دراسة معظمها إلى نتائج ذات بال ؛ لهذا كله آثرنا أن نقصر
على ما سبق ذكره بصدها ، ونقف الجزء الباقي من هذا الفصل على تكملة
البحث في الفصيلتين الهندية - الأوروبية والحامية - السامية .

(٥) بعض ما تختلف فيه الفصيلتان

السامية والهندية - الأوروبية

تمتاز كل من هاتين الفصيلتين عن الأخرى بخواص كثيرة من أهمها ما يلي ^(٢) :
١ - تتألف أصول الكلمات في اللغات السامية في الغالب من ثلاثة أصوات
ساكنة (أحرف ساكنة ^(٣)) مختلفة . ففي اللغة العربية مثلاً ترجع جميع الكلمات
التي فيها معنى القتل إلى أصل ثلاثي مؤلف من ثلاثة أصوات ساكنة هي ق ت ل .

(١) حاولت جمعية علم اللغة بباريس Société de Linguistique de paris تحت إشراف
الأستاذين Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen ، أن تعرض في كتابها « لغات العالم »
Les Langues du Monde بحثاً موجزاً في هذه الفصائل التسعة عشرة فاستغرق بحثها هذا نحو
ستمائة صفحة من القطع الكبير (من ١٥٣ - ٧١٣) . وقد اشترك في تحريره طائفة من أئمة
الأخصائيين في هذه اللغات .

(٢) وقف العلماء على هذا الموضوع مجلدات ضخمة ، من أحسنها وأقربها مأخذاً في اللغات
الهندية - الأوروبية كتاب الأستاذ ميه Meillet Introduction à l'étude comparative
des langues Indo - Européennes ويقع في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وفي اللغات
السامية كتاب العلامة رينان Renan . Histoire des langues Sémitiques ويقع كذلك في
نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير . وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس للفصيلتين معاً في كتابها
« لغات العالم » في نحو مائة وخمسين صفحة (١ - ١٥٣) .

(٣) الحرف هو ما يرمز إلى الصوت في الكتابة ، فاستعمال كلمة أصوات في هذا المقام أدق
من استعمال كلمة حروف ، ونريد بالساكنة ما يقابل اللينة .

ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا بعض الحروف والضمائر وبعض أسماء الشرط والموصول وقليل من أسماء الذوات (يد، دم) ومن الأفعال (قال، وعد، تمّ، ردّ^(١)).

وهذه الأصول لا توجد مستقلة في اللغات السامية. فالأصل الدال على معنى القتل في اللغة العربية مثلا وهو ق ت ل لا يوجد مستقلا في هذه اللغة، بل لا يمكن النطق به.

والأصوات التي يتألف منها أصل ما توجد مرتبة، حسب ترتيبها في هذا الأصل في جميع السكّات المشتملة على معناه العام. فالأصوات الثلاثة ق ت ل التي يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل، توجد مرتبة بالشكل السابق في جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى: قتل، قاتل، قتال، قتيل.. الخ.

واشتغال الكلمة على أصوات أصل ما لا يدل على أكثر من تضمينها للمعنى العام لهذا الأصل.

أما ما عدا المعنى العام فيشار إليه بأصوات مد طويلة (ألف، ياء، واو.. الخ) أو قصيرة (فتحة، كسرة، ضمة) تلحق بجميع أصوات الأصل أو بعضها. فنوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا، اسم فاعل أو اسم مفعول، متعدية أو لازمة، مفردة أو مثنى أو جمعا.. الخ) وزمنها (حدث معناها في الماضي أو يحدث في الحال أو في المستقبل) ووظيفتها في الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه أو حالا أو تمييزا.. الخ) ... كل ذلك وما إليه تدل عليه في اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة تلحق بجميع أصوات الأصل أو بعضها. وأصوات المد الطويلة هي التي يرمز إليها في الكتابة العربية بحروف اللين الثلاثة (الألف والياء والواو). والقصيرة هي التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة. فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام في «قَتِيلَ المجرم»، مثلا تدل الكلمة على

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع في مقدمة كتابنا «فقه اللغة». هذا، وأما السكّات التي تبدو رباعية الأصول في العبرية والعربية فهي متفرعة في الحقيقة عن أصول ثلاثية (دحرج مثلا متفرعة عن درج أو دحر، على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصيلة).

فعل قتل حدث في زمن مضى ومسند للمفعول . وبمد القاف بالالف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة في « قَاتَلَ » الذي يقا تلك ، تدل الكلمة على أمر المخاطب بإجراء القتل في صورة متبادلة مع غيره . وبفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام في « هذا دم القتل » ، تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب إليه (مضاف إليه) شيء آخر . وبفتح القاف وإبقاء التاء ساكنة ومد اللام بالالف في « هؤلاء قتلى الحرب » ، تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل ... وهلم جرا .

وقد يصحب هذا أحيانا أصوات جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معان خاصة في الكلمة . فزيادة ميم محركة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة في نهاية الكلمة مع إبقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام في « أصاب مقتلا (مَقْتَلَانِ) » ، تدل الكلمة على عضو نكرة تؤدي إصابته إلى القتل وقد وقع عليه القتل المعبر عنه في الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونون مفتوحة في آخر الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو في « القوم يقتتلون » ، تدل الكلمة على فعل يحدث في الحال أو في الاستقبال وفي صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور الآدميين .

ومما تقدم يتضح أن للأصوات الساكنة (ونعني بها ما عدا أصوات المد) في اللغات السامية أهمية تزيد كثيرا على أهمية أصوات المد . فالمعنى الأساسي للكلمة يشار إليه غالباً بالأصوات الساكنة . أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهاً خاصة . هذا إلى أن الأصوات الساكنة تنال في اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم ، وهي لذلك أوضح في الجرس من أصوات المد وأظهر منها في السمع . وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة في الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه . فأهم ما يعنى الرسم السامى بإظهاره هي الأصوات الساكنة . أما أصوات المد فيغفل بعضها إغفالا تاما ، ويشير

إلى بعضها بالشكل ويرسم بعضها رسماً مضطرباً غير دقيق. وهذا في الرسم الحديث.
أما الأشكال القديمة للرسم السامي فكانت تغفل جميع أصوات المد.

أما اللغات الهندية - الأوروبية فتختلف عن اللغات السامية - الحامية فيما يتعلق بأصول الكلمات من أربعة وجوه. أحدها أن أصول الكلمات الهندية - الأوروبية ليست متحدة في عدد أصواتها كما هو شأن الأصول السامية، بل تختلف في ذلك اختلافاً كبيراً، فمنها الثنائي ومنها الثلاثي ومنها الرباعي... وهلم جرا. وثانيها أن أصول الكلمات الهندية الأوروبية ليست مؤلفة من أصوات ساكنة فحسب كما هو شأن الأصول السامية، بل تخلط فيها الأصوات الساكنة بالليننة. وثالثها أن أهمية الأصوات الساكنة لا تزيد في اللغات الهندية - الأوروبية عن أهمية الأصوات الليننة لا في الدلالة ولا في النطق ولا في الرسم كما هو الشأن في اللغات السامية. ورابعها أن الأصل الدال على المعنى العام للكلمة هو نفسه بمنزلة كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة^(١). وقد يتحقق أحياناً هذا الفصل في الواقع فيبقى الأصل في الكلمة مجرداً من كل عنصر آخر^(٢). - على أنه في حكم الثابت أن جميع أصول الكلمات الهندية الأوروبية كانت في عصورها الأولى - إذ كانت اللغة غير متصرفة^(٣). - تستخدم وحدها عارية من كل زيادة^(٤).

ويشير الأصل في الكلمة الهندية - الأوروبية إلى معناها العام.

أما ما عدا ذلك فيشار إليه بالعلامات الآتية^(٥):

١ - أصوات تلحق الأصل فتدل على نوع الكلمة (كونها اسماً أو فعلاً أو حرفاً)

(١) V. Renan : Langues Sémitiques 455 et suiv. : Meillet : Introduction . . etc

115-122

(٢) Meillet op. cit. 120

(٣) أنظر معنى هذه الكلمة في آخر صفحة ١٠٧ وأول صفحة ١٠٨ .

(٤) Meillet, op. cit. 119. 120.

(٥) أنظر في هذه العلامات وما يتصل بها 115 - 122 Meillet op. cit.

اسم فاعل أو مفعول .. الخ) وتسمى هذه الأصوات « باللاحقة » ، Suffixe .
وأصل الكلمة مع لاحقها يسميان مادة الكلمة Thème .

وقد يتصل بالأصل أكثر من لاحقة واحدة للدلالة على عدة معان في الكلمة
من هذا القبيل . وقد تعرفوا الكلمة من اللواحق ؛ ولكن تجردها منها يشير
هو نفسه إلى معنى خاص فيها .

ب - أصوات تأتي عقب اللاحقة فتختتم بها الكلمة لتعيين وظيفتها في الجملة
(كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه .. الخ) وزمنها (ماضيا أو مضارعا .. الخ)
ونوع إسنادها (كونها مسندة إلى المتكلم أو المخاطب أو الغائب .. الخ) ودلالاتها
على مذكر أو مؤنث ، مفرد أو مثنى أو جمع .. وهلم جرا . وتسمى هذه الأصوات
« بالخاتمة » ، Désinence (١) .

ولا يلحق الأصل أكثر من خاتمة واحدة . وقد تتجرد الكلمة من « الخواتم » ؛
ولكن تجردها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها . فتجرد الفعل مثلا من الخاتمة
يدل ، في بعض اللغات الهندية - الأوروبية (ومنها الإنجليزية والفرنسية)
على أمر مسند للمفرد المخاطب Aime , Love .

وقد تتجرد الكلمة من اللاحقة والخاتمة فيبقى الأصل عاريا من كل زيادة .
ولكن تجرده هذا يدل هو نفسه على معنى خاص فيه .

ح - أصوات تسبق الأصل فتلصق بالكلمة في مبدئها للدلالة على معان من
نوع المعاني التي تدل عليها الأصوات اللاحقة السابق ذكرها : وتسمى هذه
الأصوات « بالسابقة » ، Préfixe .

د - أصوات لين طويلة أو قصيرة ، a, e, é, è, ê, i, o, ô, y, oi, ei, eau, ...etc . تلحق بجميع أصوات الأصل أو بعضها على نحو ما تقدم شرحه
في اللغات السامية .

ه - شكل النطق يختلف أجزاء الكلمة . ففي بعض اللغات الهندية -

(١) ليست كلمة « الخاتمة » بترجمة لكلمة Désinence ، بل هي كلمة من اصطلاحنا لتسهيل التسمية .

الأوروبية يتغير معنى الكلمة بتغير طريقة النطق بأجزائها . ففي الإنجليزية مثلا تتردد بعض الكلمات بين الاسمىة والفعلية تبعا لطريقة النطق بها : فإذا ضغط في النطق على جزئها الأول كانت اسماً ، وإذا ضغط على جزئها الأخير كانت فعلا :

The object of our book is ...

I object against this theory ...

و - موقع الكلمة في الجملة . ففي بعض اللغات الهندية - الأوروبية لا يتميز الفاعل من المفعول إلا بتقديمه في الجملة Pierre bat Paul .

* * *

وتختلف اللغات الهندية - الأوروبية في مبلغ استخدامها لهذه العلامات الست : فمن اللغات الهندية - الأوروبية ما يستخدم جميع هذه العلامات ؛ ومنها ما لا يستخدم إلا بعضها ؛ ومنها ما يستخدم بعضها بكثرة ولا يلجأ لبعضها الآخر إلا نادراً . وإليك مثلا العلامات التي سميناها « السابقة » (رقم ح) ؛ فهي لا توجد في كثير من اللغات الهندية - الأوروبية القديمة ؛ على حين أنها تكثر في الحديثة منها كالإنجليزية والفرنسية وما إليهما Understand Comprendre .

٢ - لا تكاد توجد في اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ؛ على حين أن هذا النوع يكثر في اللغات الهندية - الأوروبية ، وبخاصة الحديث منها . وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معاني الأصول التي تشتمل عليها (١) .

٣ - ليس للفعل في معظم اللغات السامية إلا زمانان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (مضارع للحال أو الاستقبال وأمر) (٢) على حين أن له في

(١) توجد هذه الظاهرة في اللغات السامية في بعض كلمات قليلة معظمها حديث النشأة ، ومن ذلك ما يسمونه بالكلمات المنحوتة : ثلاثي (أصبح لاشيء) حمل (قال الحمد لله) بسل (قال بسم الله) طلبق (قال أطال الله بقاءك) ... الخ . - انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية ص ١٤٩ وتوابعها .

(٢) يستني من ذلك اللغات الأكادية فإن للفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمانان يشار إليهما بأصوات تلحق أول الفعل ، الزمن الماضي التام والزمن المضارع للاستقبال ، وزمن ثالث يشار إليه بملحق في آخر الفعل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (انظر الطبعة الثانية من كتابنا « فقه اللغة » ص ٢٣) .

اللغات الهندية - الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة : الماضي القريب ؛
الماضي البعيد ؛ الماضي الكامل ؛ الماضي المتصل بالحاضر ؛ الحاضر ؛ المستقبل... الخ.
وقد بلغت هذه الأزمنة في اللغة الفرنسية أحد عشر في الجمل الإخبارية
وحدها *indicatife* :

*je parle, je parlais, je parlai, j'ai parlé, j'eu parlé, j'avais
parlé, j'ai eu parlé, j'avais eu parlé, je parlerai. j'aurai parlé
j'aurai eu parlé.*

٤ - يحدث في الغالب تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية والحامية بإضافة
تاء إلى المذكر . أما في اللغات الهندية - الأوروبية فللتأنيث طرق أخرى كثيرة :
منها تضعيف الحرف الأخير للمذكر (*Chat te, gras se*) ؛ ومنها استبدال
حرف آخر به (*Loup, ve; neuf, ve*) ؛ ومنها استبدال عدد من الأحرف الأخيرة
في المؤنث بعدد من الأحرف الأخيرة في المذكر (*iustituteur, trice; peu-*
berger, ère; fer-) ؛ ومنها مد الحرف الأخير في المذكر (*cheur, chresse*
mier, ière) ؛ ومنها زيادة بعض حروف على المذكر (*tigre, resse; comte, tess*).

٥ - يميل الأسلوب كثير آ في اللغات السامية - وخاصة الأسلوب الأدبي -
إلى استخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق الاستعارة والمجاز
المرسل والسكناية وما إلى ذلك . أما أساليب اللغات الهندية - الأوروبية فيبدو
فيها الحرص على استخدام الكلمات في معناها الأصلي .

هذا . وقد اعتمدنا في التفرقة بين هاتين الفصيلتين على أمور تتصل بالقواعد
لا بالمفردات .
وذلك لأن ناحية القواعد هي أهم ما يمتاز به الفصائل بعضها عن بعض . فمنها
تتسكون شخصية اللغات وإليها ترجع مقوماتها . وهي التي تمثل المظهر الثابت المستقر
في اللغات : فهي لا تكاد تتغير ، وما يحدث فيها أحيانا من تغير يجرى دائما ببطء

وفي نطاق ضيق . وهي ، إلى هذا كله ، لا تنتقل بطريق الاقتباس من لغة إلى أخرى (١). فتشابه لغتين في القواعد يدل إذن على إنتمائهما إلى فصيلة واحدة ؛ واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتهما .

على حين أن المفردات تمثل المظهر المتقلب والناحية المنتقلة في اللغات . فهي محاطة بعوامل كثيرة تحول دون ثباتها وتجعلها عرضة للتغير المطرد والتطور السريع ، وتذلل لها وسائل الانتقال من لغة إلى لغة . فتشابه لغتين في مفرداتهما لا يدل على انتمائهما إلى فصيلة واحدة . فقد تكونان من فصيلتين مختلفتين ويكون السبب في هذا التشابه راجعاً إلى أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها عن الأخرى . واختلاف لغتين في مفرداتهما لا يدل على اختلاف فصيلتهما . فقد تكونان من فصيلة واحدة ويكون السبب في هذا الاختلاف راجعاً إلى أن مفردات كل منهما قد سلكت في تطورها طريقاً يختلف عن الطريق الذي سلكته مفردات الأخرى لاختلافهما في المؤثرات المحيطة بهما ، أو أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها من لغة ثالثة لا تربطها بها لحمة قرابة فبعدت في هذه الناحية عن فصيلتها .

فاللغة السريانية مثلاً تعد من فصيلة اللغات السامية ، مع أن قسماً كبيراً من مفرداتها يتحد مع مفردات اللغة الإغريقية التي تعد من أفراد الهندية - الأوروبية . وذلك لأن قواعد الأولى قواعد سامية ، وقواعد الثانية هندية - أوروبية . وتشابههما في المفردات نشأ عن مجرد اقتباس الأولى عن الثانية لما كان يعوزها من كلمات . واللغة التركية تتفق في قسم كبير من مفرداتها مع الفارسية والعربية ، مع أن كل لغة من هذه اللغات الثلاث تعد من فصيلة خاصة . فالتركية من الفصيلة التترية ، والفارسية من الهندية - الأوروبية ، والعربية من السامية . وذلك لاحتفاظ كل منها بقواعد فصيلتها . أما تشابهها في المفردات فقد نشأ عن مجرد

(١) سنعرض لهذا الموضوع بتفصيل في الفصل التالي وسنذكر فيه أن القواعد إذا انتقلت من لغة إلى أخرى كان انتقالها أيداناً يزوال اللغة التي انتقلت إليها واندماجها في اللغة التي انتقلت إليها ، وإن هذا يحدث حينما تشبكت لغتان في صراع ويكتب لأحدهما النصر .

انتقال طائفة من كلمات اللغتين الثانية والثالثة إلى اللغة الأولى عن طريق الاقتباس .
وعلى هذا الأساس عدت الفارسية الحديثة من فصيلة اللغات الهندية - الأوروبية ،
على الرغم من اتفاقها في كثير من المفردات مع اللغة العربية التي تعد من فصيلة
اللغات السامية .

(٦) وجوه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية - الأوروبية

ترى طائفة من العلماء أن هاتين الفصيلتين ، مع اختلافهما في القواعد ، تتفقان
في كثير من أصول الكلمات . ومن أشهر أفراد هذه الطائفة الأساتذة كلاپروث
وبوب وهمبلت وإوالم وبنفي ولاسن وپوت وکیل وبونسن وليبيسيوس
وفورست وديليتزش (١) .

Klaproth , Bopp , Humboldt , Ewald , Benfey , Lassen
Pott , Keil , Bunsen , Lepsius , Furst , Delitzsch.

وقد أوغل كثيراً في هذا السبيل الأستاذان فورست وديليتزش ، فلم يغادرا
أصلاً من أصول الفصيلة السامية إلا كشفوا عما يشبهه صوتاً ودلالة من أصول
الفصيلة الهندية - الأوروبية .

أما تعليل هذه الظاهرة فقد انقسم هؤلاء العلماء بصدده إلى ثلاث فرق : ففريق
يعلمها بأن إحدى الفصيلتين قد انشعبت عن الأخرى وظلت محتفظة بأصول مفرداتها
ولكنها سلكت في تكوين قواعدها وجهة تختلف عن وجهة أصلها ، فأخذت تبعد
عنه في هذه الناحية شيئاً فشيئاً حتى وصل الخلاف بينهما إلى الحد الذي هما عليه
الآن . وفريق يذهب إلى أنهما قد تفرعتا عن لغة دثرت ولم يصلنا شيء من آثارها ،
وأن هذه اللغة كانت متصرفة (٢) ذات قواعد كاملة التكوين ، وأن قواعد كل

(١) من بين هؤلاء من كشف عن وجوه الشبه بين جميع أفراد الفصيلة الأولى وجميع أفراد
الفصيلة الثانية ، ومنهم من كشف عن وجوه الشبه بين بعض لغات الفصيلة الأولى وبعض لغات الفصيلة
الثانية ، كالعالم ليبيسيوس الذي كشف عما تتفق فيه أصول الكلمات السنسكريتية مع أصول
الكلمات العبرية .

(٢) أنظر معني هذه الكلمة بصفحة ١٠٦ .

فصيلة منهما قد سلكت في تطورها طريقاً يختلف عن طريق الأخرى ، ولكن
كلاهما ظلت محتفظة بأصول مفردات اللغة التي انشعبتا عنها . وفريق ثالث يرى
أن الشعب الذي تفرع عنه الساميون والآريون كان له في الأصل لغة مشتركة ،
وأن انقسامه إلى هاتين الشعبتين قد حدث ولغته في الدور الأول من أدوار تكوينها ،
إذ لم تسكن قد تجاوزت بعد مرحلة اللغات العازلة ^(١) العارية من القواعد ، وأن
كل شعبة منهما ، تحت تأثير عقليتها الخاصة وما كان يكتنفها من شئون طبيعية
 واجتماعية ، قد اتجهت في تسكلة لغتها وتكوين قواعدها منحى يختلف عن المنحى
الذي اتجهت إليه الشعبة الأخرى ، ولكن بقي في مفردات كليهما كثير من آثار
الأصل المشترك .

غير أن أساس النظرية نفسه ، وهو اتفاق الفصيلتين في أصول المفردات
اتفاقاً يؤذن بانشعاب إحداهما عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل واحد قريب ،
غير مسلم به من جمهرة المحققين من علماء اللغة . وذلك لأن القائلين بهذه النظرية
لم يقدموا على صحتها دليلاً يعتمد به . فليس من بين وجوه الشبه التي كشفوا عنها
بين هاتين الفصيلتين ما ينهض دليلاً قاطعاً على صحة نظريتهم ؛ بل أن كثيراً منها لينم
على ضعفها وبطلانها . فمن ذلك مثلاً ما اعتمد عليه بهذا الصدد الألمان فورست
وديليتزش . فقد ذهبوا إلى أن أصول الكلمات السامية كانت قديماً مؤلفة من حرفين
اثنين ثم زيد فيما بعد على كل أصل منها حرف ثالث ^(٢) . وعلى أساس هذا المذهب
— الذي لا يؤيده أى دليل قاطع بل قامت أدلة قوية على بطلانه — تحايلا على

(١) أنظر معنى هذه الكلمة في آخر صفحة ١٠٧ وأول صفحة ١٠٨ .

(٢) قد قال بهذا من قبلهما الأستاذ جيربنيوس Gesenius . ومن المعصين لهذا المذهب من
المستشرقين في العصر الحاضر الأب مرمجى الدومسكى (انظر كتابه : « هل العربية منطوية ،
أبحاث ثنائية ألسنية » وخاصة صفحات ١٤٥ — ١٥٠) . — وقد قال بهذا المذهب نفسه كثير
من الباحثين في اللغتين العربية والعربية وفي الساميات منهم فارس الشدياق في كتابه : « سر الليال في القلب
والابدال » . وقد زعم الأب أتستانس الكرملى أنه زعيم هذا المذهب . — أنظر تفصيل هذا
كله في كتاب الأب مرمجى الدومسكى السابق ذكره صفحات ١٥٦ — ١٦٠ . — وأنظر فيما يتعلق
بأصول الكلمات السامية وأصول الكلمات الهندية — الأوروبية صفحات ١٩٧ — ٢٠٢ .

التقريب بين الأصول السامية والأصول الهندية الأوروبية . فاختاروا لكل أصل سامي كلمة هندية — أوروبية تقرب منه في أصواتها ودلالاتها ، وقررا تفرعها من أصل واحد . وإثبات ذلك يختاران حرفين تشترك فيهما الكلمتان ، ويقرران أن الأصل السامي كان يتألف قديماً من هذين الحرفين وحدهما ثم زيد عليهما فيما بعد حرف ثالث ، وأن هذا الأصل الثنائي نفسه هو الذي جاءت منه الكلمة الهندية — الأوروبية . ولا يخفى ما في هذه الطريقة الاستدلالية من تحكم وتخمين ومجافاة للروح العلمي ومناهج البحث الصحيح (١) — ومن ذلك أيضاً ما ذهب إليه ديليتزش بصدد التشابه بين طائفة من مفردات اللغة العبرية من جهة وطائفة من مفردات اللغتين الإغريقية واللاتينية من جهة أخرى . فقد اتخذ من هذا التشابه دليلاً على صحة النظرية التي نحن بصدد مناقشتها ؛ غافلاً عن أن العبرية الحديثة قد اقتبست كثيراً من مفردات الإغريقية واللاتينية . ومن الغريب أن الكلمات التي ذكرها للاستدلال على مذهبه هي ذاتها من أشهر ما اقتبسته العبرية الحديثة من هاتين اللغتين . وآخرون من المؤيدين لهذه النظرية يعتمدون في إثبات التشابه بين مفردات الفصيلتين السامية والهندية — الأوروبية على كلمات تكاد تتفق في جميع اللغات لانحدارها من الأصل الأول الذي نشأت منه اللغة الإنسانية ، وهو أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التي تحدثها الأفعال وأصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات ... وما إلى ذلك . وغنى عن البيان أن كلمات هذا شأنها لا تدل على ما يذهب إليه أصحاب هذه النظرية من انشعاب إحدى الفصيلتين عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل قريب . — وبعض المؤيدين لهذه النظرية يعتمد في إثبات القرابة بين الفصيلتين على وجوه شبه بعيدة بين مفرداتهما أو على تقارب جاء عن طريق الصدفة والاتفاق . — وقصارى القول : لا نكاد نجد من بين الأدلة التي اعتمد عليها أصحاب هذه النظرية ما يستحق المناقشة ، فضلاً عن أن ينهض حجة قاطعة على صحتها .

(١) أنظر في الرد على هذه النظرية . Renan: Langues Sémitiques, p. 448 et suiv.

الفصل الثالث

صراع اللغات^(١)

(١) نظرة عامة في عوامله وآثاره في حياة اللغة

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة. وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال. فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين، فيسارع إلى القضاء على الآخر، مستخدماً في ذلك وسائل القسوة والعنف، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره. وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك، ولكنه يمهل الآخر، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه، ويعمل على خضد شوكته شيئاً فشيئاً حتى يتم له النصر. وأحياناً تتكافأ قواهما أو تكاد، فتظل الحرب بينهما سجالياً ويظل كل منهما في أثناءها محتفظاً بشخصيته ومميزاته.

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان: أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله، وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفي اللغة، فيتبادلا المنافع ويتباح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي.

وسنقف على دراسة كل عامل من هذين العاملين ونتأمله فقرة على حدة.

(١) سنقتصر في هذا الفصل على الصراع بين اللغات المستقلة. أما الصراع بين لهجات اللغة الواحدة فقد عرضنا له في أثناء كلامنا على تفرع اللغات في الفصل الأول من هذا الباب (انظر صفحات ١٦٥—١٧٠)، وذلك لأن هذا النوع الأخير من الصراع يلازم التفرع ويسايرها ويكمل عملها، وذلك على عكس الصراع بين اللغات المنفصلة، فإنه مستقل عن التفرع. (١)

(٢) العامل الأول من عوامل الصراع اللغوي

نزوح عناصر أجنبية إلى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة ... أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهله، فيشتبك اللغتان في صراع ينتهي إلى إحدى نتيجتين : فإحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم؛ وإحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

١ - الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى ، وهي أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، في حالتين :

(الحالة الأولى) أن يكون كلا الشعبين همجياً قليل الحضارة منحنط الثقافة ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففي هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأصيل أم الدخيل . وذلك أنه عند انعدام النوع يتحكم الكم في مصير الأمور . - وليكن هذه النتيجة لا تحدث إلا إذا كان اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فمن ذلك أن الإنجليز السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى إنجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التي كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقي من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد المغيرين ؛ وكلا الشعبين كان همجياً منحنطاً في مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ، وكلتا اللغتين تنتمي إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية . - والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على إنجلترا في منتصف القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، إنجليزهم

ونورمانديهم ، يتكلمون الإنجليزية السكسونية . وذلك لأن الإنجليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً من النورمانديين الغالبين ؛ ولم يكن لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية - الأوروبية .

وقد يحدث أحيانا في هذه الحالة أن تتغلب لغة على أخرى من غير فصيلاتها . ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبعد أمد طويل . واللغة التي تنشأ من هذا التغلب يناها كثير من التحريف في السنة المحدثين من الناطقين بها ، لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية ، فتبعد بعداً كبيراً عن صورتها الأولى . فالبلغاريون ، وهم من أصل فينواي Finois ، حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالبة (السلافية Slaves) ، أخذت لغتهم تنهزم شيئاً فشيئاً أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلبي . وذلك لأن عدد البلغاريين لم يكن شيئاً مذكورا بجانب عدد الصقالبة الممتزجين بهم ؛ وكلتا الفئتين كانت إذ ذاك همجية منحطة في مستوى حضارتها ومبالغ ثقافتها ، وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين في الفصيلة ، فلغة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية ^(١) ، على حين أن اللغات الصقلبية من الفصيلة الهندية الأوروبية ^(٢) . ولكن هذا التغلب لم يتم إلا بصعوبة وبعد أمد طويل وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرقة عن مواضعها في السنة المحدثين من الناطقين بها ، فبعدت بعداً كبيراً عن صورتها القديمة . فالبلغارية الحديثة هي أكثر اللهجات الصقلبية تحريفاً وبعداً عن أصولها الأولى .

(الحالة الثانية) أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذاً . ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب ؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة

(١) انظر ص ١٩١ رقم ١١ .

(٢) انظر صفحة ١٨٢ رقم ٨ .

(٢) العامل الأول من عوامل الصراع اللغوي

نزوح عناصر أجنبية إلى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة ... أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهله، فيشتبك اللغتان في صراع ينتهي إلى إحدى نتيجتين : فإحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم؛ وإحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

١ - الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى ، وهي أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، في حالتين :

(الحالة الأولى) أن يكون كلا الشعبين همجياً قليل الحضارة منحط الثقافة ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففي هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأصيل أم الدخيل . وذلك أنه عند انعدام النوع يتحكم الكم في مصير الأمور . - وليسكن هذه النتيجة لا تحدث إلا إذا كان اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فمن ذلك أن الإنجليز السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى إنجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التي كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقى من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد المغيرين ؛ وكلا الشعبين كان همجياً منحطاً في مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ، وكلا اللغتين تنتمي إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية . - والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على إنجلترا في منتصف القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، إنجليزهم

في كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية (١) واللغات البربرية لاتزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية (٢).

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف، لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة نفسها التي كان عليها من قبل. فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع. بل إن طول إحتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في كثير من مظاهرها وبخاصة في مفرداتها.

ويختلف مبلغ هذا التأثير باختلاف الأحوال: فتكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفا والمقاومة قوية من جانب اللغة المقهورة؛ وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع، أو خفت وطأة النزاع، أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة. — فلطول الأمد الذي استغرقه السكفاح بين لغة الإنجليز السكسون بإنجلترا ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الإنجليز في القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم مناطق إنجلترا كما سبقت الإشارة إلى ذلك)، ولشدة المقاومة التي أبدتها اللغة النورماندية المقهورة،

(١) لقد ظل انتشار اللغة العربية في مصر بطيئاً طوال القرن الهجري الأول. وقبيل نهاية هذا القرن أي في سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك بن مروان أمر بالدواوين فُنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية (انظر الكندي ص ٥٨، ٥٩). وجاء في دائرة المعارف الإسلامية في مادتي «ديوان» و«قبط» «أن الدواوين في مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية»، وهذا هو الأصح. — وظل التحول من الكتابة باليونانية في الدواوين والتحدث بالقبطية إلى الكتابة والتحدث بالعربية بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، حتى إذا كانت القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية، بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية. — وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض في هذا العصر. فالحقيقة أنها ظلت باقية في ألسنة بعض المناطق مدة طويلة. بعد ذلك، بدليل ما يذكره المقرئ من أن المأمون كان ينتقل في ريف مصر ومعه مترجم، وما يذكره المقدمي في «أحسن التقاسيم»، (ألفه حوالي سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحي مصر كانوا يتحدثون بالقبطية. (انظر في هذا مقالا للاستاذ جمال الدين الشيال في العدد ٢٣٤ بتاريخ ٢٢/٥/٤٥ من مجلة الثقافة).

(٢) انظر التعليق الثاني بصفحة ١٨٧ — ٥٨١ — ٥٨٢ تأليف تادئاس منه لهذا (٢)

خرجت اللغة المنتصرة (الإنجليزية) من هذا الصراع وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلاً عن هذا مفردات أخرى جديدة . — على حين أن لغة بلاد الجول La Gaule التي انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك في اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة^(١)، واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تسكد تترك أى أثر في اللغة العربية الغالبة؛ وذلك لأن الصراع في هذين المثالين، على طول أمده، لم يكن عنيفاً ولم تلق في أثنائه اللغتان الغالبتان (اللاتينية في المثال الأول والعربية في المثال الثاني) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتية في المثال الأول والقبطية والبربرية في المثال الثاني) .

وتختلف كذلك النواحي التي يبدو فيها تأثير اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التي تكون عليها كلتا اللغتين في أثناء اشتباهما . ويبدو هذا التأثير بأوضح صورة في النواحي التي تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة . ولذلك تألف معظم المفردات التي أخذتها الإنجليزية (الغالبة) عن الفرنسية النورماندية (المغلوبة) من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام . وذلك لأن النورماندية كانت غنية في هاتين الطائفتين من المفردات ، على حين أن الإنجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر ؛ فعمدت إلى خصيها المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه . وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب في أسلوبها الغريب في تسمية الحيوانات المأكولة للحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها في الإنجليزية اسمان : اسم جرمانى الأصل يطلق على الحيوان ما دام حياً (Sheep , calf , ox , pig) ؛ واسم آخر فرنسى الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء (Mutton , veal , beef , pork) .

والألفاظ الأصلية للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في السنة المحدثين من

(١) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل الى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول .

الناطقين بها (المخلوبين لغويا) ، فتبعد بذلك في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى . ويبلغ بعدها هذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) .

والألفاظ الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف في أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها ، فتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة . ويظهر هذا بالموازنة بين الكلمات الإنجليزية الآتية والكلمات الفرنسية التي اقتبست منها :

Mutton, veal, beef

Mouton, veau, bœuf

فإن كل كلمة منها تختلف عن أصلها اختلافا غير يسير في صورتها ودلالاتها وطريقة النطق بها . حتى أن الفرنسي الذي لا يعرف الإنجليزية لا يكاد يتبينها أو يدرك مدلولها إذا سمعها من إنجليزي . - وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشئ من الصراع بين لغتين كتب لإحدهما النصر ، بل هي ظاهرة عامة تتحقق في جميع الحالات التي يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى .

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منها بظهور خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة . ففي المرحلة الأولى تقذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلي وتجرده من كثير من مقوماته . ولـكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات : فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم التنظيمية والمورفولوجية (السنسكريت والمورفولوجيا) ؛ وينطقون بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتي ومخارج حروفهم ؛ حتى أنهم ليستبدلون في الكلمات الدخيلة بالحروف التي

(١) انظر ماورد بصفحة ٢١٠ بصدد البلغارية الحديثة .

لا يوجد لها نظير لديهم حروفا قريبة منها من حروف لغتهم. - وفي المرحلة التالية تنسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات. فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التي يسير عليها النطق في اللغة الغالبة. فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول. ولسكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة في الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (قواعد المورفولوجيا والسنتكس) وفي مقاومة قواعد اللغة الغالبة. فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى. وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا فتأخذ قواعد اللغة الغالبة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر، فيتم بذلك الإجهاز على اللغة المغلوبة. فالقواعد في اللغة المغلوبة أشبه شيء بالقلعة التي تحتمى بها فلول الجيش المنهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق، والتي يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد.

ب - الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهي عدم تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وبقاؤهما معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما في الفقرة السابقة. والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الغابرة وفي العصر الحاضر. فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب؛ وذلك لأن الإغريق، مع خضوعهم للرومان، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة؛ وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لا يحدث إلا إذا كان الشعب الثاني أرقى من الشعب الأول في جميع هذه الأمور^(١). ولهذا الأسباب نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التي قوضت الإمبراطورية الرومانية الغربية في فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية في البلاد التي قهرتها بمناطق الجول La Gaule (فرنسا) وما إليها. - واللغة اللاتينية لم تقو

(١) انظر آخر صفحة ٢١٠ و صفحة ٢١١ .

على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى ، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو مائة وخمسين سنة ، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرقى كثيراً من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته. وذلك لأن الجالية الرومانية في الجزر البريطانية لم تكن شيئاً مذكوراً ولم تمتزج امتزاجاً كافياً بأفراد الشعب المغلوب. وقد تقدم أن الغلب اللغوي لا يتم في مثل هذه الحالات إلا إذا أقامت في البلاد المقهورة جالية يعتد بها من أفراد الشعب الغالب وتم الامتزاج بينها وبين أفراد الشعب الآخر (١).
واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلاً. وذلك لأن الشعب العربي لم يكن إذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسي ، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس وضعف امتزاجها بالسكان ، ولانتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين (فالعربية من الفصيلة السامية والفارسية من الفصيلة الهندية - الأوربية) (٢). — واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغات الإسبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون . وذلك لانتماء العربية إلى فصيلة غير فصيلة اللغات الإسبانية ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربي . — واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التي كانت خاضعة للأمبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا ، على الرغم من بقاء هذه الأمم مدة طويلة تحت سلطان تركيا . وذلك لاختلاف فصائل اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية على حين أن لغات معظم الأمم التي كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية - الحامية أو الهندية - أو الأوربية) ، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التي كانت تابعة لهم ، ولقلة عدد جالياتهم في بلاد هذه الشعوب ، ولضعف امتزاجها بالسكان . ولم تقو الإنجليزية على التغلب على اللغات الهندية على الرغم من خضوع الهند لإنجلترا منذ أمد طويل . وذلك لأن شعوب الهند أعرق حضارة من الإنجليز ، ولقلة أفراد الجالية الإنجليزية بهذه البلاد ، وعدم امتزاجها بالسكان.

(١) انظر آخر صفحة ٢١٠ وأول صفحة ٢١١

(٢) تقدم أن أنتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين بحول غالباً دون انتصار أحدهما على الأخرى

(انظر آخر صفحة ٢١٠ وأول صفحة ٢١١)

ولكن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى .
فقد تأثرت اللاتينية بالإغريقية في أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة من
مفرداتها . وتأثرت الإنجليزية بعض التأثير باللاتينية من قبل أن تتأثر تأثراً كبيراً
بشعبه من شعبها وهي النورماندية . وقد تركت اللغة العربية آثاراً قوية في الإسبانية
والبرتغالية ، وبخاصة في المناطق التي كانت تسمى بالأندلس أو أندلوسيا
Andalousie حيث دام سلطان العرب عدة قرون (١) . والصراع بين العربية
والفارسية ، وإن لم ينته إلى تغلب إحدهما ، قد ترك في كل منهما آثاراً واضحة
من الأخرى ، وبخاصة من ناحية المفردات . والصراع بين التركية ولغات الأمم التي
كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد ترك في
التركية آثاراً قوية من هذه اللغات وبخاصة من اللغة العربية ، وترك كذلك في كثير
من هذه اللغات آثاراً ظاهرة من التركية (٢) .

ح - الخلاصة

وقصارى القول : متى اجتمع لغتان في بلد واحد لا مناص من تأثر كل منهما
بالأخرى سواء أتغلبت إحدهما أم كتبت لسكنتيهما البقاء . غير أن هذا التأثير
يختلف في مبلغه ومنهجه ونواحي ظهوره ونتائجه في الحالة الأولى عنه في الحالة
الثانية . فإذا كان الغلب كتب لإحدهما زهاها تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى

(١) ويظهر أثر الآثار التي تركتها العربية في البرتغالية قد بلغت درجة كبيرة من
الضخامة حتى أن بعض الباحثين أفرد مؤلفات خاصة في الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية .
ومن هؤلاء الأستاذ راجي باسيل في ريودي جانيرو بالبرازيل . فقد طبع أربع كراسات عنونها
« معجم الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية » وقدم هذه الكراسات إلى جريدة الأهرام كما
ورد بمعددها الصادر في ٢٩ - ٣ - ١٩٤٤ .

(٢) قد بلغ هذا التأثير مبلغاً كبيراً في بعض هذه اللغات . فلهذا العراق في العصر الحاضر مثلاً
قد أخذت عن التركية كثيراً من المفردات وبعض الأصوات التي لا نظير لها في العربية (كالصوت
الذي ينطق به بين الشين والجيم المعطشة في مثل عربنجي) وطائفة من القواعد الصرفية كقواعد
النسب والنعت والاضافة في مثل : عربنجي (سائق العربية) ، خوش ولد (خوش كلمة فارسية
الأصل معناها حسن) ، كتبخانه (دار الكتب) . . . الخ

مهما كبرت كميته ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، بدون أن تدع له مجالاً للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي ؛ على حين أن المغلوبة لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمد ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول : كما كان شأن الإنجليزية الغالبة مع النورماندية المغلوبة . -
وإذا كان البقاء قد كتب لسكنتيهما تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتفيض عليه من حيويتها وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية موفورة القوى سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع العربية .

(٣) العامل الثاني من عوامل الصراع اللغوي

تجاور شعبين مختلفي اللغة

يتيح تجاور شعبين مختلفي اللغة فرصاً كثيرة لا حتكاك لغتيهما ، فتشتبكان في صراع يذتهى إلى واحدة من النتيجتين نفسيهما اللتين ينتهى إليهما الصراع في العامل الأول : فأحياناً تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها ، فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ؛ وأحياناً لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

١ - الحالات التي يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى وهي تغلب إحدى اللغتين على الأخرى في حالتين :
(الحالة الأولى) إذا كانت نسبة النمو في أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثر فيها ساكنوه ، وتضييق مساحته بهم ذرعاً ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له ، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها في حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها في هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة الألمانية . فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوروبا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا . . الخ) وقضت على لهجاتها الأولى (١) .

(الحالة الثانية) إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور له . وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوي النفوذ ؛ على شريطة ألا يقل عن الآخر في حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه في هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة في مختلف مراحل التاريخ . فلغة شعوب الباسك قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين وأمام اللغة الإسبانية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الإسبانين ، حتى كادت تنقرض في كليهما كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٢) . - واللهجات السلتيية (٣) التي كان يتكلم بها معظم السكان بإيرلندا وويلز واسكتلندا قد أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ إنجلترا في هذه البلاد حتى زالت من لغة الأدب والكتابة ، وكادت تنقرض انقراضاً تاماً من لغة الحديث . - وهكذا كان مصير اللهجة السلتيية التي بقيت بمقاطعة البريتون Bretagne (٤) (في القسم الغربي من فرنسا على سواحل الإطالانطيق) ؛ فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا في هذه المقاطعة ، حتى لم يبق لها إلا آثار ضئيلة في لغة الحديث بين الأميمين من الشيوخ (٥) . - واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها

(١) ترجع بعض مظاهر هذا التغلب اللغوي الى الغارات التي شنّها الجرمان قديماً على هذه المناطق أي الى أمور تتصل بالعمل الأول لابهذا العامل . فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التي تم فيها تغلب اللغة الألمانية في صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاتف السكان .

(٢) انظر ص ١٩٢ (رقم ١٢) .

(٣) انظر ص ١٨٢ (رقم ٦) .

(٤) انظر ص ١٨٢ (رقم ٦) .

(٥) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشيء من استقلالها الذاتي حتى عام ١٤٩١ ، (في عهد شارل الثامن) .

ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسي . ولكن لم يتم ضمها الى فرنسا الا عام ١٥٣٢ في عهد =

ببلجيكا وسويسرا؛ فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان « والونيا »
Wallonie بلجيكا وبنحو ٢٢ ٪ من سكان سويسرا . - واللغة الإيطالية قد
تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث
والكتابة لنحو ٥٣ ٪ من سكان هذه الجمهورية . واللغة العربية المضرية قد
تغلبت في العصور السابقة للاسلام على اللغة البينية القديمة بحكم الجوار وتغلغل
نفوذ العرب في البلاد البينية مع توافر الشروط الأخرى (١) .

وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب في المملكة الواحدة لغة المقاطعة التي تكون
بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ . فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل)
في مقاطعة « والونيا » ذات اللسان الفرنسي (٢) ، ولأن سكان هذه المقاطعة
يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان في هذه المملكة ، أخذت اللغة
الفرنسية تتغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالي من بلجيكا المسمى « فلاندر ») (٣)
وتنقصها من أطرافها . - ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) في القسم الناطق بالألمانية ،
ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكثر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم
الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية في سويسرا نحو ٧٠ ٪ من أهلها) ، أخذت
اللغة الألمانية تطغى على السنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . - وقد أخذت

فرنسوا الأول . - وقد انقرضت اللغة السلتيية في هذه المقاطعة انقراضا تاما . من لغة الكتابة
والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر . وكادت تنقرض من لغة الشيوخ
أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت عدة أشهر متنقلا في بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة الا من
عدد قليل من الشيوخ الأميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه الا فيما بينهم . أما مع
غيرهم فيتكلمون الفرنسية ، ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأصايلها في ألسنتهم كثير من التحريف .
(١) انظر تفصيل ذلك في الفصلين الرابع والسادس من كتابنا « فقه اللغة » (الطبعة الثانية
صفحات ٦٠ — ٦٦ ، ٩٨) .

(٢) وهو القسم الجنوبي من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتيية ولاتينية . علي حين أن القسم
الشمالي المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون اللغة الفلامندية
Flamande التي يتألف منها ومن اللهجات الهولندية فرع اللغات النثرلاندية Néerlandaises وهو
أحد فروع اللغات الجرمانية الغربية (انظر ص ١٨٢ رقم ٧) .

(٣) انظر التعليق السابق .

لغة قريش قبيل الإسلام تتغلب على اللغات المضرية الأخرى ؛ لما كانت تتمتع به من سلطان أدبي ، ويستأثر به أهلها من نفوذ ديني وسياسي .

وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ أحياناً بضعة قرون^(١) . فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ، ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائي . - والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتي الذي يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretagne) قد نشب منذ عدة قرون ؛ ومع ذلك لا يزال كثير من شيوخ البريتون في العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان^(٢) . - ولا تزال اللهجة السلتيّة لغة محادثة بين عامة الإيرلنديين في العصر الحاضر ، مع أن تغلب الإنجليزية عليها قد بدأ في هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي . - وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلي ؛ ومع ذلك ظلت آثار هذه اللغات واضحة في كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسي .

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة التي كان عليها من قبل . فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في بعض مظاهرها وبخاصة في مفرداتها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في العامل الأول^(٣) . غير أن تجرد العامل الذي نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة وحدوث نتائجه في صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة ويخفف من مبلغ تأثيرها باللغة المغلوبة .

(١) تزيد عادة المدة التي يظهر فيها أثر هذا العامل عن المدة التي يظهر فيها أثر العامل السابق والتي أشرنا إليها في آخر صفحة ٢١١ .

(٢) انظر آخر صفحة ٢١٩ الخامس . (٣) انظر صفحة ٢١٢ وتوابعها . (١)

والألفاظ الأصلية للغة الغالبة ينالها بعض التحريف في السنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) ، فتختلف بعض الاختلاف في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف في حروفها ومعانيها وأساليب نطقها ، فتبعد في جميع هذه النواحي عن شكلها القديم .

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها المراحل نفسها التي أشرنا إليها في العامل الأول : فينفذ الانحلال أولا إلى مفرداتها ؛ ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات ؛ ويتم الإجهاز عليها بالقضاء على قواعدها (١) .

ب - الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهي عدم تغلب إحدى اللغتين المتجاورتين على الأخرى وبقاؤهما معا جنيا جنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما في الفقرة السابقة . ويدخل في هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة في العصر الحاضر . فالجوار بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال لم يؤد إلى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ؛ لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة . - ولهذا السبب نفسه لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلب لغة منها على لغة أخرى . وكذلك شأن الإنجليزية في الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الإسبانية المجاورة لها في المكسيك ؛ وشأن البرتغالية التي يتكلم بها في البرازيل مع الإسبانية التي يتكلم بها في الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية (كولومبيا ، بيرو ، بوليفيا ، باراجواي ، أوروغواي ، الأرجنتين . . الخ) ؛ وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية . . . وهلم جرا .

(١) انظر القسم الأخير من صفحة ٢١٤ والأول من صفحة ٢١٥ .

غير أن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى .
فالإنجليزية الحديثة بانجلترا والفرنسية الحديثة بفرنسا تتقارضان المفردات منذ
أن أتيح للشعبيين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع . - وكذلك تفعل
الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا (١) ومع أخواتها المجاورة لها في الجنوب
الشرقي والغربي بإيطاليا وإسبانيا والبرتغال . - وتجاور التركية والفارسية ، وإن لم
يؤد إلى تغلب إحداهما على الأخرى ، قد ترك في التركية آثاراً واضحة من الفارسية
وبخاصة في المفردات ، وترك كذلك في الفارسية بعض آثار من التركية . - وتجاور
الفارسية والعراقية في العصر الحاضر ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد نقل إلى
كل منهما كثيراً من آثار الأخرى في المفردات والقواعد والأساليب . - ومجاورة
الجرمانية واللاتينية في العصور القديمة ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداهما ، قد نقل إلى
أولاهما كثيراً من مفردات الثانية (٢) وترك في الثانية بعض آثار من الأولى (٣) .

ح - الخلاصة

وقصارى القول : متى أتيح للغتين متجاورتين فرص للاحتكاك ، لامناس
من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكليهما البقاء . غير
أن هذا التأثير يختلف في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية . فإذا كان الفناء قد حق
على إحداهما ، فانها لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الثانية من مفردات وقواعد
وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمرها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها

(١) انتقل الى الألمانية الحديثة ، تحت تأثير جوارها لفرنسا ، كثير من المفردات الفرنسية ،
لدرجة أزججت أولى الأمر ومهلتهم على التدخل لصد هذا التيار واحلال مفردات ألمانية محل المفردات
الفرنسية الدخيلة . ولكن قسطاً كبيراً من جهودهم بهذا الصدد قد ذهب أدراج الرياح .

(٢) كثير من المفردات الألمانية تبدو جرمانية خالصة ، ولكن يظهر عند البحث أنها مقبسة
في الأصل من اللاتينية . فن ذلك مثلا : schreiben = يكتب ، lesen = يقرأ ، Katze =
قط ، Pflanze = نبات ، فانها على الرغم من ظاهرها الجرمانى مأخوذة من الكلمات اللاتينية :
Scribere, Legere, Catta, Planta.

(٣) غير أن تأثر اللاتينية بالجرمانية كان في حكم العدم قبل غارات الجرمان على الامبراطورية
الرومانية الغربية في فاتحة العصور الوسطى .

وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول ؛ على حين أن الغالبة تسبغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كبرت كميته وعظم شأنه ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطاً ، بدون أن تدع له مجالاً للتأثير في بنيتها أو تغيير تسكوينها الأصلي : كما كان شأن الإنجليزية والفرنسية الغالبتين مع اللهجات السلتيّة المغلوبة بإيرلندا وويلز ومقاطعة البريتون^(١) . - وإذا كان البقاء قد كتب لكتلتهما ، تعتمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية ، موفورة القوى ، سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع التركية والفرنسية مع الإيطالية والإسبانية والبرتغالية .

(٤) عوامل أخرى للاحتكاك اللغوي

هذا ، وفيما عدا العاملين السابقين ، توجد عوامل أخرى كثيرة تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغات ، ولكنها أقل شأنًا من هذين العاملين ، وأضعف منهما أثراً ، إذ ليس منهما ما ينجم عنه صراع جدي ، أو يؤدي إلى نتائج ذات بال .
ومن أهم هذه العوامل ما يلي :

١ - اشتباك شعبيّن مختلفي اللغة أو شعوب مختلفة اللغات في حرب طويلة الأمد .
وذلك أن طول الاحتكاك بين الشعوب المتحاربة ينقل إلى لغة كل شعب منها آثاراً من لغات الشعوب الأخرى ، سواء في ذلك لغات الحلفاء ولغات الأعداء . فاحتكاك الألمانية والفرنسية والإنجليزية في الحرب العظمى قد نقل إلى كل لغة منها مفردات من اللغتين الأخرين . - و الحرب الثلاثين ، التي نشبت بين حماة البروتستانتية وحماة الكاثوليسكية ، وامتدت من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨ ، أتاحت فرصاً كثيرة للاحتكاك بين الفرنسية والألمانية^(٢) فنقلت إلى كل منهما بعض مفردات من الأخرى . - و حروب فرنسا مع إيطاليا قد نقلت إلى الفرنسية كثيراً

(١) لم تترك اللغات المغلوبة في هذه الأمثلة أثراً مذكوراً في اللغتين الغالبتين .

(٢) وذلك على الرغم من أن فرنسا لم تشترك اشتراكاً صريحاً إلا في المرحلة الأخيرة من

هذه الحرب (من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٤٨) .

من الكلمات المتعلقة بشئون الحرب والفنون الجميلة وما إلى ذلك من الأمور التي كانت اللغة الإيطالية أوسع ثروة فيها من اللغة الفرنسية ؛ ونقلت كذلك إلى الإيطالية عدداً غير يسير من الكلمات الفرنسية . - والحروب الصليبية قد نقلت إلى كثير من اللغات الأوروبية، وبخاصة إلى اللغة الفرنسية ، كثيراً من مفردات اللغة العربية ، ونقلت كذلك إلى بعض لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوروبية .

٢ - توثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفي اللغة . وذلك أن منتجات كل شعب تحمل معها أسماءها الأصلية ، فلا تلبث أن تنتشر بين أفراد الشعب الآخر وتمتزج بمتن لغته ؛ وكثرة الاحتكاك التجاري بين أفراد الشعبين ينقل إلى لغة كل منهما آثاراً من اللغة الأخرى .

٣ - توثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفي اللغة . فإن ذلك ينقل إلى لغة كل منهما ، وبخاصة إلى لغة الكتابة ، آثاراً كثيرة من الأخرى . وهذه الآثار لا تقف عند حد المفردات ، بل تتجاوزها غالباً إلى القواعد والأساليب . والأدلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الحاضرة والغابرة . فاللغة العربية في العصر العباسي ، وبخاصة لغة الكتابة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغتين الفارسية واليونانية . ولغة الكتابة بمصر في العصر الحاضر ، سواء في ذلك لغة العلوم ولغة الآداب ولغة الصحافة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوروبية وبخاصة الإنجليزية والفرنسية .

غير أن علاقة هذه العوامل وما إليها بتطور اللغة وارتقاءها أشد كثيراً من علاقتها بالصراع بين اللغات . فهي تتيح الفرص لاقتباس اللغات بعضها من بعض وتبادلها المفردات والقواعد والأساليب ، بدون أن تحدث بينها صراعاً جدياً ، أو تحمل إحداها على محاولة التغلب على الأخرى .

ولذلك آثرنا إرجاء الكلام على تفصيل هذه العوامل وآثارها إلى الفصل

التالي ، وخاصة إذ نعالج موضوع اقتباس اللغات بعضها من بعض .

الفصل الرابع

التطور اللغوي العام

تتأثر اللغة في تطورها وارتقائها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى أربع طوائف:

(إحداها) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ؛

(وثانيها) تأثر اللغة بلغة أو لغات أخرى ؛

(وثالثها) عوامل اجتماعية ونفسية وطبيعية ، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها

وتقاليدها وعقائدها ، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها ونزوعها ،
وبيئتها الجغرافية . . . وما إلى ذلك (١) .

(ورابعها) عوامل أدبية مقصودة تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة ،

وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء
بها . . . وهلم جرا .

وسنقف هذا الفصل على آثار هذه العوامل في التطور اللغوي العام ، مرجعين

إلى الفصلين الخامس والسادس الكلام على تطور كل ناحية من ناحيتي اللغة على حدة ،

ونعني بناحيتي اللغة الأصوات والدلالة .

(١) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف وأثره في التطور اللغوي

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به ، فإن لغة الخلف

في كل أمة تختلف عن لغة السلف في كثير من المظاهر ، وبخاصة مظاهر الصوت .

ويرجع جزء يسير من نواحي هذا الاختلاف إلى أمور خاصة مقصورة على

بعض الأفراد : كالعيوب الصوتية التي يصاب بها بعض الناس ، وضعف السمع ،

(١) تشترك هذه العوامل جميعاً في أنها من مقومات الحياة الاجتماعية ، ولذلك جعلناها طائفة

واحدة على الرغم من اختلافها في نوعها .

واختلال أعضاء النطق . . . وما إلى ذلك . . . وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير في تطور اللغة ؛ لأن آثارها مقصورة على أصحابها ، تبقى معهم وحدثهم في حياتهم وتحتفي بموتهم .

أما معظم نواحي هذا الاختلاف وأكبرها أثراً في تطور اللغة فترجع إلى أمور عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ويمتازون بها عن أفراد الطبقة السابقة لهم : كالارتقاء الطبيعي لأعضاء النطق في الفصيلة الإنسانية (لأن أعضاء النطق في تطور طبيعي مطرد ، فتختلف في كل طبقة عنها في الطبقة السابقة لها) ؛ والارتقاء الطبيعي للظواهر النفسية (فالقوى العقلية بمختلف أنواعها في تطور طبيعي مطرد فتختلف في كل طبقة عنها في الطبقة السابقة لها ، شأنها في ذلك شأن أعضاء النطق ، ومن الواضح أن كل تطور يحدث في هذه القوى ينبعث صداه في اللغة) ؛ والأخطاء التي تنتشر بين الصغار في طبقة ما ولا يفتن لها الكبار لدقتها وخفائها أو يهملون إصلاحها ولا يعنون بالقضاء عليها ؛ وكثرة استخدام الكبار في جيل ما لبعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز للدواع الاجتماعية خاصة فتنقل هذه المفردات إلى الجيل اللاحق بمعانيها المجازية وحدها ؛ والنظم والتقاليد الخاصة التي يسير عليها المجتمع في جيل ما في تلقين الأطفال اللغة في الأسرة وتعليمهم إياها في المدارس . فالفروق اللغوية الناشئة عن هذه الطائفة من العوامل يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ، وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم .

ومن هذا يظهر أن ناحية هامة من نواحي التطور اللغوي ترجع إلى عوامل جبرية ، لا اختيار للإنسان فيها ، ولا يد له على وقف آثارها أو تغيير ما تؤدي إليه . ومن هذا يظهر كذلك أنه ليس في قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص . فهما أجادوا في وضع معجزاتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها . . . ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقاً وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون

بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير في السبيل التي تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين .

حقاً إنه يمكن أحيانا التحكم في لغة الكتابة والجمود بها زمنا طويلا على أصولها القديمة أو ما يقرب منها . ولكن لغة الكتابة التي تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلا صحيحا حالة الحياة اللغوية في الأمة ، وتتسع كثير أمسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة ؛ لأن هذه اللغة الأخيرة في تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سبيلا ؛ فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى ، ويصبح تعليم لغة الكتابة في الأمة أشبه شيء بتعليم لغة أجنبية . وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هي اللاتينية ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ؛ وما عليه الحال الآن في مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة في هذه البلاد .

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو ؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذه الحال . فإذا ما بلغت هذه اللغة أشدها ، وتم تسكونها ، واكتمل نموها ، واتسع متنها ، ووضحت دلالات مفرداتها ووجوه استخدامها ، وتشعبت فيها فنون القول ودقت مناحي التعبير ، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم ، أخذت تطارد لغة الكتابة وتستلبها وظائفها وظيفتها وظيفتها حتى تجردها منها جميعاً ، فتصبح هي لغة الكتابة وتقذف بلغة الكتابة القديمة في زوايا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال .

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة في حالات كهذه بجبل ثلج ثابت على سطح البحر ، ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التي تموج تحته . فمهما طال بقاء هذا الثلج ، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان ؛ وحينئذ تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر ، وتعيد إليه ما كان مستورا تحت هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة .

(٢) تأثر اللغة باللغات الأخرى : تبادل المفردات بين اللغات

تقدم أن أى احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين - أياً كان سبب هذا الاحتكاك ، ومهما كانت درجته ، وكيفاً كانت نتائجه الأخيرة - يؤدي لا محالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى (١) .

ولما كان من المتعذر أن تظل لغة بآمن من الاحتكاك بلغة أخرى ، لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق .

وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثير هي الناحية المتعلقة بالمفردات كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ففي هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات ويكثر اقتباسها بعضها من بعض . وقد تذهب بعض اللغات بعيداً في هذا السبيل ، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسماً كبيراً منها عن غيرها : كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية ، والسريانية مع اليونانية ، والفارسية مع العربية ... وهلم جرا (٢) .

وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل في الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين ؛ ويكون انتقالها إيذاناً بقرب زوال اللغة التي انتقلت إليها واندماجها في اللغة التي انتقلت منها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) .

ولهذا تخضع في الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية في اللغة التي اقتبستها ، فينالها كثير من التحريف في أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة . فالكلمات التي أخذتها العربية مثلاً عن الفارسية أو اليونانية قد صبغ معظمها بصبغة اللسان العربي حتى بعد كثيراً عن أصله . - ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة إلى عدة لغات فتتشكل في كل لغة منها بالشكل الذي يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها

(١) انظر جميع الفصل الثالث (صفحات ٢٠٨ - ٢٢٥) والفقرة الثالثة من الفصل الأول من

هذا الباب (صفحات ١٦٥ - ١٧١) .

(٢) ٧١٢ .

(٣) انظر صفحتي ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٤) ٧١٢ و ٧١٣ .

(٥) انظر صفحات ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ .

حتى لتبدو في كل لغة منها غريبة عن نظائرها في اللغات الأخرى . فالكلمات العربية مثلا التي انتقلت إلى اللغات الأوروبية قد تمثلت في كل لغة منها بصورة تختلف اختلافا غير يسير عن صورتها في غيرها .

وكثيراً ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة إلى لغة أو من لهجة إلى أخرى . فقد يخصص معناها العام ويقصر على بعض ما يدل عليه ، وقد يعمم مدلولها الخاص ؛ وقد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ؛ وقد تنحط إلى درجة وضيعة في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ؛ وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه . . . وهلم جرا (١) .

ويختلف مبلغ ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التي تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص للاحتكاك المادي والثقافي . فكلما قويت العلاقات التي تربط أحدهما بالآخر ، وكثرت فرص احتكاكهما ، نشطت بينهما حركة التبادل اللغوي . ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثالث (٢) — فالإنجليزية قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى ، لأن الغزاة من النورمانديين قد استقر بهم المقام في بلاد الإنجليز المغلوبين نفسها (٣) . واللاتينية قد اقتبست من الإغريقية أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى ، وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين الناطقين بهما (٤) . ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوي أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية (٥) . وما

(١) انظر آخر صفحة ٢١٣ وأول صفحة ٢١٤ . وقد ضرب العلامة Dauzat في كتابه « فلسفة اللغة Philosophie du Langage » أمثلة طريفة لهذه الظواهر ، انظر آخر ص ٨٢ و صفحة ٨٣ من كتابه هذا .

(٢) انظر صفحات ٢٠٨ - ٢٢٤ . (٣٢ - ٥٢٢) كتابه « فلسفة اللغة » ص ٨٢ و ٨٣ .

(٣) انظر صفحتي ٢١٢، ٢١٣ و آخر صفحة ٢١٧ وأول ٢١٨ . (٧١ - ٥٢١) كتابه « فلسفة اللغة » ص ٨٢ و ٨٣ .

(٤) انظر أول صفحة ٢١٧ . (٥٢١ - ٥٢٢) كتابه « فلسفة اللغة » ص ٨٢ و ٨٣ .

(٥) انظر صفحتي ٢١٧ ، ٢٢٣ . (٥٢١ - ٥٢٢) كتابه « فلسفة اللغة » ص ٨٢ و ٨٣ .

اقتبسته الألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لا يذكر بجانبه ما اقتبسته منها ألمانية النمسا مثلاً ؛ وذلك لأن القسم الألماني اللغة في سويسرا متأخر للقسم الفرنسي اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين ، على حين أن النمسا غير متأخرة لمنطقة فرنسية اللسان . وقد تسرب إلى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلية والمجرية ، على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية) لم تسكد تتأثر بهذين اللسانين ؛ وذلك لأن رومانيا قد انعزلت عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أمم صقلية اللسان أو مجريته .

والمفردات التي تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمر قد اختص بها أهل هذه اللغات أو برزوا فيها أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها وهلم جرا . فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب ^(١) . - ويتألف معظم المفردات التي أخذتها الإنجليزية عن النورماندية من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهي والطعام ، وذلك لأن النورمانديين كانوا يفوقون الإنجليز كثيراً في هاتين الناحيتين ، فغزرت

(١) من أشهر المفردات التي انتقلت إلى العربية من الفارسية : الكوز ، الأبريق ، الطست ، الخوان ، الطبق ، والسكرجة ، السمور - الحز ، الأبريسم ، الديباج ، السندس - الياقوت الفيروزج ، البلور - ، السميند ، الكعك ، الفالودج - الفلفل ، السكرويا ، القرفة ، الزنجبيل ، الخولنجان ، الدار صيني - الترجس ، البنفسج ، السوسن ، الياسمين ، الجلنار ، المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل . . . الخ .

ومن أشهر ما أخذته العربية من اليونانية أسماء بعض آلات الرصد والجراحة وبعض مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، وأخذت عنها كذلك أسماء بعض المعادن والوظائف والمنشآت المعمارية وغيرها وأدوات البناء والموازن والأمتعة . . الخ : كالفيرس (وهو أجدالنجاس) والبطريق ، والقيطون (وهو البيت الشتوي) ، والقنطرة ، والفردوس (البستان) والقراميد (الآجر) ، والقسطاس (الميزان) ، والقنطار ، والبطاقة ، والسجنجل (المرأة) . . . وهلم جرا . انظر في ذلك فقه اللغة للثعالي ، الباب التاسع والعشرين ، وانظر كذلك المزهري للسيوطي الجزء الأول ، النوع التاسع عشر .

مفرداتهما في لغتهم بينما قل ورودها في لغة الإنجليز القديمة (١) . - وقد انتقل إلى اليونانية ، ومنها إلى اللاتينية ، كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية ، وذلك لأن الفينيقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب في هذا المضمار . - وانتقل إلى اللاتينية كثير من الكلمات الإغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية ، وذلك لبراعة الإغريق في ميدان الفلسفة ولأن الدين المسيحي قد انتشر بفضلهم في شرق الأمبراطورية الرومانية ووسطها . - وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيراً من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسة ... وما إليها ؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين في جميع هذه الشئون (٢) . - ولهذا السبب نفسه انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب ومنها كلمة الحرب نفسها *La guerre* (٣) ، وكثير من الكلمات الإيطالية المتصلة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة ، وانتقل إلى معظم اللغات الأوروبية وغيرها المفردات الإنجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية ، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام .

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماءها في لغة المناطق التي ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بإنتاجها أو تصدر منها في الغالب ، فنتشر عن هذا الطريق في لغات البلاد الأخرى . فكلمة « الشاي » مثلاً قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر ما ليزيا *Malaisie* التي كانت المصدر الأول لهذه المادة (« شاي » في العربية « thé » في الفرنسية ، « tea » في الإنجليزية .. الخ) . وكذلك كلمة الطباق ، فقد انتقلت إلى معظم اللغات الإنسانية من لغة السكان الأصليين لأمريكا حيث كشفت هذه المادة لأول مرة (« طباق » في العربية ، « tabac » في الفرنسية ، « tobacco » في الإنجليزية .. الخ) . وعن هذا الطريق انتقل إلى اللغات الأوروبية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات زراعية أو صناعية : كالليمون ، والموصلي (وهو نسيج خاص ينسب إلى

(١) انظر صفحة ٢١٣ .

(٢) V. Dauxat : Philosophie du Langage, 105

(٣) فهي مأخوذة من الكلمة الجرمانية القديمة *Werra*

الموصل) ، والزعفران ، والشراب ، والسكر ، والكافور ، والقنوة (عسل قصب السكر المجد) ، والقهوة ، والقطن ، والقرمزي . والكمون ، والدمشق ، (نسيج ينسب إلى دمشق) :

في الإنجليزية ، Lemon, muslin, saffron, sherbet, syrup, sugar, camphor, candy, coffee, cotton, crimson, cumin, damask.

وفي الفرنسية ، Limon, mousseline, safran, sorbet, sirop, sucre, camphre, candi, café, coton, cramoisi, cumin, damas.

(٣) اثر العوامل الاجتماعية والنفسية والجغرافية

في خصائص اللغة وتطورها

ونقد نظرية دو سوسور De Saussure

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها إلى الحياة ، وأحوال بيئتها الجغرافية ، وشئونها الاجتماعية العامة . . . وما إلى ذلك . فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صدها في أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب . فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما ، وعلى ضوء خصائصها في كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التي مر بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم . فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورتقى تفكيرها ، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معاني مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقْتِباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة . . . وهلم جرا . واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الاسلام ، ومن النطاق العربي الضيق الذي امتازت به مدينتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس ، كان لهذين

الانتقالين أجلّ أثر في نهضة لغتهم وورقي أساليها واتساعها لمختلف فنون الأدب
وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة ، يهذب لغتها ، ويسمو بأساليها ،
ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة في التعبير
والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية في عهد بداوة العرب قبل الإسلام
وحالتها في عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية في عصر ما
وما كانت عليه في الحضرة في العصر نفسه ، لأصدق برهان على ذلك . وإن البدوي
الذي لم يباهمه شيطانه في مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب في حفاظك للعهد وكالتيس في قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن تجود بمثل قوله :
عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
وما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام ، يحدث مثله بين لغتها
ومظاهر بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الإقليم الطبيعية ، تنطبع في لغة سكانه .
ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق
الجبالية وسكان الصحراء وسكان الأودية ، وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى
والجنوبية . ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية
الواحدة بل بين لهجات اللغة الواحدة . ومن أجل ذلك أيضا غزرت في كل لغة
المفردات التي تدور حول مظاهر بيئتها الجغرافية ، ودقت دلالاتها ، واثبتت في شتى
فنون القول . ومن أجل ذلك أيضا كان قسط كبير من مادة الخيال والتشبيه في كل
لغة مستمدا من مظاهر البيئة وما اختلفت به طبيعة البلاد . ومن أجل ذلك أيضا
تمثل في أسلوب اللغة وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية من تلبذ أو صفاء ،
وقبح أو جمال ، وصخب أو هدوء ، وتنوع أو اطراد ، وتقلب أو ثبات ، وما ينبعث
عنها من رخاوة أو قوة ، وخمول أو نشاط ، وخشونة أو نعيم . ولهذا كله
يستطيع الباحث معرفة البيئة الأولى التي نشأت فيها لغة ما على ضوء مفردات هذه

اللغة ، وغزارتها في بعض النواحي وجدها في نواح أخرى ، وما تجنح إليه أساليبها ومادتها في الخيال والتشبيه وخواص آدابها ... وما إلى ذلك . وإليك مثلاً لغات الفصيحة السامية : ففي كل لغة منها تتمثل حالة البيئتين التي سكنها الناطقون بها . فالآرامية التي نشأت في الشمال جافة الألفاظ ، قليلة المفردات ، ثقيلة التراكيب ، مضطربة القواعد ، لا تكاد تواتر الأساليب الشعرية الراقية . والعربية التي نشأت في الجنوب أعذب اللغات السامية ألفاظاً ، وأغناها مفردات ، وأدقها قواعد ، وأكثرها مرونة واتساعاً لمختلف فنون القول . والعبرية التي نشأت في منطقة متوسطة بين هاتين المنطقتين تمثل في رقيها منزلة بين منزلتي الآرامية والعربية ؛ فقد فاقت الأولى ولسكنها قصرت عن أن تدرك شأواً ثانية فألفاظها وأساليبها تنسج لكثير من مناحي القول ؛ ولسكن العربية تفوقها في مرونة التعبير ، والترف اللغوي ، وسعة الثروة في المفردات . وقواعدها سهلة مضبوطة ؛ ولسكنها لا تبلغ في دقتها وتنوعها مبلغ قواعد اللغة العربية . — وتظهر هذه الفروق حتى في ناحية الأصوات . فالآرامية حوشية الأصوات ، صعبة النطق ، تلتقي في كلماتها المقاطع المتنافرة والحروف الساكنة . والعربية عذبة الأصوات ، سهلة النطق ، خفيفة الوقع على السمع ، تقل في كلماتها الحروف غير المنحركة^(١) ولا يكاد يجتمع في مفرداتها ولا في تراكيبيها مقاطع متنافرة ، ولا يلتقي في ألفاظها ساكنان . والعبرية وسط بين هذه وتلك . فهي لم تصل في سهولة اللفظ إلى درجة العربية ولا في صعوبته إلى درجة الآرامية ؛ يتخلل كلماتها حروف المد في نطاق أوسع من الآرامية ، وبدرجة تزداد كثيراً من ظواهر الصعوبة في النطق ، ولسكن بدون أن تصل في هذه الناحية إلى الشأو الذي وصلت إليه لغة القرآن^(٢) .

(١) تكثر في الكلمات العربية أصوات المد الطويلة (الألف والياء الواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) . حتى أنه يقل وجود حرف غير متبوع بواحد منها .

(٢) V. Renan, L'Origine du Langage , p. P. 188, 189. (٢)

ولهذا السبب نفسه اختلفت اللهجات الإغريقية القديمة . فعلى الرغم من أن بلاد الإغريق كانت تشغل منطقة ضيقة ، فإن الاختلاف اليسير الذي كان بين أجزاء هذه المنطقة في طبيعتها الجغرافية قد أحدث بين لهجات سكانها فروقا ذات بال . فاللهجة الدورية مثلا خشنة الألفاظ ، حوشية المخرج ، صعبة النطق ، ثقيلة الأصوات ؛ على حين أن اللهجة اليونانية رخوة الكلمات ، سهلة النطق ، عذبة الأصوات ؛ يتخلل كلماتها كثير من حروف المد وأصوات اللين (١) .

ومظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها في نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، الصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الأنعام . . . الخ) . — وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شئونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة ، وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والنشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة . . . كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها : في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب . . . وهلم جرا (٢) . وإليك مثلا درجة القرابة التي تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرته أمه .

(١) Renan, op. cit. p. 190

(٢) من أجل البحوث في هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « قانييه » في المجلد الثاني من مجلة « التربية » سنة ١٩٠٧ صفحات ٤٣٤ — ٤٦٣ تحت عنوان : « روح الأمة وطباعتها ممثلة في لغتها » Revue « L'Esprit et les Mœurs d'une nation d'après sa langue. » V. Vannier .
pédagogique 1907 . T. 2. p. p. 434 — 463.

فإن الأمم التي تسير نظمها الاجتماعية على إنزال هاتين الأسرتين منزلة واحدة تقريباً في درجة قرابتهما للفرد تطلق لغتها كلمة واحدة على كل من العم والخال *oncle, uncle* والعممة والخالة *tante, aunt* وابن العم أو العممة وابن الخال أو الخالة *cousin* وابنة العم أو العممة وابنة الخال أو الخالة *cousine*. على حين أن الأمم التي تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسرتين في درجة قرابتهما للفرد تختلف في لغتها الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم: العم، الخال، العممة، الخالة، ابن العم، ابن العممة، ابن الخال، ابن الخالة، بنت العم، بنت الخال، بنت الخالة^(١). . . . وإليك مثلاً آخر مبلغ اتجاه الأمة إلى مبادئ المساواة أو انحرافها نحو نظام الطبقات. فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر في مختلف نواحي لغتها حتى في ناحية القواعد. فنخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيماً له (أرجو أن تتفضلوا . . .)، وإجراء الخطاب في صيغة الأخبار عن الغائب (يتفضل سيدي . . .)، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو في اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادئ المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات. ولذلك يعد تطور هذه الضمائر في أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها في هذه الشؤون. فالصراع في اللغة الفرنسية بين «*tu*» (أنت) و«*vous*» (أنتم) في مخاطبة المفرد، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات في الشعب الفرنسي. فقد كان الغلبة للضمير الأول في العصور التي سادت فيها مبادئ المساواة وللضمير الثاني في العصور التي وهنت فيها هذه المبادئ. ومثل هذا يقال في اللغة العربية. فقد كان العرب في جاهليتهم أكثر الشعوب ميلاً إلى المساواة بين الأفراد. ولذلك ساد في خطابهم ضمير المفرد ولم تبد في لغتهم مظاهر المبالغة في التبجيل. ولسكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم، واحتكاكهم بالأمم الأخرى، وانغاسهم في الترف، ومحاكاتهم لأبهة الفرس وأساليبهم في الحياة، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين، لم يلبثوا بعد هذا أن

(١) انظر كتابنا « الأسرة والمجتمع » الطبعة الثانية صفحات ٢٢ - ٢٧.

انحرفوا عن مبادئهم الأولى ، فانحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع وإجراء الخطاب في صيغة الأخبار عن الغائب ، ونفذت إليها ألفاظ « الحاضرة » ، « والجناب » ، وما إلى ذلك . واختلاف الطبقات في بعض الأمم ، وما يفصلها من فوارق في مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كل ذلك يؤدي إلى التمييز بينها في المفردات التي تطلق على شئون كل طبقة منها . وإليك مثلا المفردات التي تطلق على أنواع الدخل والأجور ، فإن مبلغ الاختلاف بين هذه المفردات في أمة ما ليسجل مبلغ الاختلاف بين طبقات هذه الأمة في مستوى الحياة ، وإن الأصل اللغوي الذي يرجع إليه كل مفرد منها ليشير في صورة ما إلى عمل الطبقة التي يطلق على دخلها ، وإلى نشاطها الاقتصادي ، ومنزلتها في سلم الطبقات . ففي اللغة الفرنسية مثلا يطلق لفظ خاص على كل من دخل المسكين ، والخدم ، وعامل اليومية ، والعامل الدائم ، والممثل ، والصحفي ، والقسيس ، والجندي ، والضابط ، والموظف غير الحكومي ، والموظف الحكومي ، وصاحب المهنة الحرة كالطبيب والمحامي ، والمالك الزراعي ومن إليه ، والمساهم في شركة ما ، والنائب البرلماني . . . وهلم جرا . وكل مفرد من هذه المفردات يشير أصله اللغوي في صورة ما إلى عمل الطبقة التي يطلق على دخلها ، وإلى نشاطها الاقتصادي ، ومنزلتها بالقياس لما عداها من الطبقات .

Les secours d'un indigent ; les gages d'un domestique, la pay d'un journalier ; le salaire d'un ouvrier ; les feux n'un acteur ; les mansualités d'un journaliste ; le eusuel d'un curé ; le prêt d'un soldot ; le solde d'un officier ; les appointements d'un employé ; le traitement d'un fonctionnaire ; les honoraires d'un médecin ou d'un avocat ; les rentes d'uu rentier ; les dividendes d'un actionnaire ; l'indemnité d'un parlementaire.... etc.

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها إلى الحياة . فاتجاه الإنجليز مثلا إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية في مفرداتها ، وتراكيبها ، حتى أنه يقال فيها : دفع زيارة أو تحية أو شكراً

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

أو انتباها ، و « أنفق وقته في كيت وكيت » و « تربع الساعة أو تخسر ، ...
To pay visit, compliments, attention... How can I pay
you for all your good ? ! » ; « He spent his time in... »
The watch gains or loses بدلا من « أدى زيارة ، و « قدم تحية أو
شكراً » و « أبدى انتباهاً ، و « قضى وقته في عمل ما ، و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم
بعضهم ببعض ينبعث كذلك صدها في لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا
تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها
بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة . على حين أن اللغة العربية بعد
الإسلام تتلمس أحسن الحيل ، وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه
الشئون ؛ فتلجأ إلى المجاز في اللفظ وتستبدل السكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ،
قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته . . . الخ . ولقد كان لها هذا الصدد في
ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم
أنى شئتم » ؛ « واهجروهن في المضاجع » ؛ « لامستم النساء » ؛ « وقد أفضى بعضكم
إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء في
المحيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة مؤمنة
من قبل أن يتماسا » . . . وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو
في اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله في اللغات الأوربية الحديثة وخاصة الشمالية
منها . وأكثرها تخرجاً في هذه الناحية اللغة الإنجليزية . فالهطن مثلاً لا يعبر عنه في
لغة التخاطب الإنجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه في الغالب the stomach
(أي المعدة)^(١) ؛ وسراويل الرجل تطلق عليها أحياناً كلمة معناها الأصلي « مالا
يمكن التعبير عنه » Inexpressible^(٢) ؛ وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها

(١) تختصر هذه الكلمة عادة في اللغة الدارجة فيقال tummy .

(٢) يطلق عليها غالباً في اللغة الدارجة كلمة « pants » وهي اختصار كلمة « بنطالون » .

الأصلي « الجمع أو التركيب » Combination^(١) . . . وهلم جرا .
وخصائص الأمة العقلية ، ويميزاتها في الإدراك والوجدان والنزوع ، ومدى
ثقافتها ، ومستوى تفكيرها ومنهجها ، وتفسيرها لظواهر الكون ، وفهمها لما وراء
الطبيعة . . . كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صدها في لغتها^(٢) . ففي الأمم الأولية
الضعيفة التفكير المنحطة المدارك ، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأمر
الجزئية ، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعاني السلبية ، وتخلو دلالة المفردات
من الدقة والضبط ، فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام ، وتعدو القواعد أو تكاد
تعدو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ،
ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة^(٣) . ومن هذا القبيل
الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة في نواحي الألفاظ والدلالة والقواعد ،
تكفي للتعبير عن ضروريات الحياة وشئون الصناعة اليدوية ، والأدب السهل ،
والتأمل الضحل ، ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه
الكلمات ، حتى أنه لا يوجد فيها اسم للإله ، ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة
بعبارات ملتوية مهمة مضطربة الدلالة في أذهان أهلها أنفسهم .

وفي كثير من الأمم البدائية ينعكس في اللغة من مظاهر الاضطراب والإبهام
ما تمتاز به عقليات الناطقين بها من سذاجة وقصور ، حتى أنها لا تكاد وحدها تبين
عن معنى واضح دقيق ، وحتى أن أهلها أنفسهم ليضطرون في أثناء حديثهم إلى
الاستعانة بالحركات اليدوية والجسمية لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة .
فقد روى عن قبائل البوشيمان Bochimqns (عشائر بدائية تسكن جنوب إفريقيا)

(١) نطلق هذه الكلمات على لباس مؤلف من السراويل والقميص ، أما السراويل وحدها فيطلق
عليها أحيانا كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Mrs Bloomer اخترعت طرازاً منه فنسب
إليها (وكان يحتوي على « جاكتة » وقيص وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل) ،
وأحيانا كلمة knickers وهي اختصار كلمة Knickerboker (وهذه الكلمة كانت في الأصل اسماً
لشخصية روائية ألبسها المؤلف طرازاً خاصاً من السراويل ، ثم شاع استعمالها فيما بعد في سراويل السيدات) .
V, Vanniss, op. cit. (٢)

(٣) انظر صفحات ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٤ ، ٩٧ .

أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية والجسمية التي تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتوضح مدلولاته . ويقرر علماء الإثنوجرافيا الذين عنوا بدراسة السكان الأصليين بأمريكا وأستراليا وأفريقيا أن عقليات هذه الشعوب لا تكاد تدرك المعاني السككية في كثير من مظاهرها ، وأن هذا القصور العقلي كان له صدى كبير في لغاتهم ، فلا تكاد نجد في كثير منها لفظا يدل على معنى كلى . ففي لغة الهنود الحمر مثلاً يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء .. وهكذا ؛ ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم . وفي لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لسكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز ؛ ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم ؛ وثالث في حالة تعلقه بالزبد ؛ ورابع في حالة تعلقه بالموز . . . وهكذا . ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmania (بقرب أستراليا) لا يوجد في مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجئوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلاً : « فلان كشجرة كذا ، إذا أرادوا وصفه بالطول .

وعلى العكس من ذلك الشعوب الهندية - الأوروبية حيث ينشط التفكير ، ويعمق الإدراك ، ويدق البحث ، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفي ، وتميل إلى تفسير ظواهر السكون والمجتمع الإنساني تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة . ففي مثل هذه الشعوب تسكثر في اللغات الألفاظ الدالة على المعاني السككية ، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتغزر أزمنة

الأفعال^(١)، وتطول الجمل، وتتعدد أجزاءها، وتنوع الروابط وتختلف دلالاتها فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان، وعميق الإدراك، وحقائق الفلسفة والعلوم.

هذا وإن ما تقدم ذكره في هذه الفقرة وفي معظم الفقرات السابقة من هذا الكتاب ليدلنا أوضح دلالة على ما للمجتمع ونظمه وحضارته واتجاهاته من آثار بليغة في نشأة اللغات^(٢) وانتقالها من السلف إلى الخلف^(٣) وإنشعابها إلى لهجات ولغات^(٤) وصراعها بعضها مع بعض^(٥) وتطورها من جميع الوجوه^(٦).

وقد بالغ جماعة من العلماء في تقدير هذه الآثار حتى كادوا ينكرون أن لغير الظواهر الاجتماعية أثراً في شئون اللغة. ومن أشهر أفراد هذه الطائفة العلامة السويسري فرديناندو سوسور Ferdinand De Saussure^(٧).

وهذه هي الجادة القصد من بعض الوجوه:

حقاً أن اللغة ظاهرة اجتماعية تقتضيها حاجة الإنسان إلى التفاهم مع أبناء جنسه. فلولا الحياة الاجتماعية ما كانت اللغات^(٨).

وحقاً أن أهم المؤثرات في مختلف ظواهر اللغة ترجع إلى أمور تتعلق بالحياة

(١) ليس للفعل في معظم اللغات السامية إلا زمانان: فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للاستقبال)، على حين أن له في اللغات الهندية - الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة. وقد بلغت هذه الأزمنة في اللغة الفرنسية أحد عشر زمناً في الجمل الاخبارية وحدها. — انظر آخر ص ٢٠٢ وأول ص ٢٠٣.

(٢) انظر الباب الأول (٣) انظر الباب الثاني. (٤) انظر الفصلين الأول والثاني من الباب الثالث.

(٥) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث. (٦) انظر ٢٢٦ - ٢٤٢.

(٧) انظر آخر صفحة ٦٠ إلى ص ٦٢. يفرق دوسور بين اللغة Langage والكلام Parole. ويعني بالكلام تطبيق الفرد في تفاهمه مع غيره للنظم اللغوية التي تواضع عليها مجتمعه. فهو عمل فردي في جوهره. ولذلك يخضع أحياناً لمؤثرات غير اجتماعية (المؤثرات الجسمية والنفسية... وما إلى ذلك). أما اللغة فظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ويشرف عليها العقل الجمعي. ولذلك لا يكاد يكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر ذو بال في شئونها (انظر كتاب دوسور Cours de Linguistique Générale.)

(٨) انظر آخر ص ٢٤ وصفحة ٢٥ و٢٧ وأول ٢٨، والباب الأول من هذا الكتاب.

الاجتماعية ونظم العمران ، كما تدل على ذلك بحوثنا في هذا الفصل وفي الأبواب والفصول السابقة من هذا الكتاب .

ولسكن من الإفراط في تقدير هذه العوامل أن ننسب إليها كل شيء ونسكّر ما لغيرها من أثر في هذا السبيل . وإن في دراستنا السابقة نفسها آيات على خطأ هذا المذهب . فقد رأينا أن قسطا غير يسير من ظواهر اللغة ترجع أسبابه إلى عوامل جغرافية ، وقسما كبيرا منها ترجع أسبابه إلى عوامل جسمية فيزيولوجية أو نفسية فردية^(١) . وغنى عن البيان أن هذه العوامل وما إليها ليست من مظاهر الاجتماع في شيء^(٢) . وسنرى في الفصل الخامس أن أهم المؤثرات في التطور الصوتي خاصة ترجع إلى عوامل من هذا القبيل^(٣) .

(٤) العوامل الأدبية المقصودة

وأثرها في حياة اللغة وتطورها ، وخاصة في لغة الكتابة
الرسم ، التجديد في اللغة ، البحوث اللغوية ، حركة التأليف والترجمة
وسائل تعليم اللغة

تشمل هذه الطائفة جميع ما يبذله الأفراد والهيئات من جهود مقصودة في سبيل حفظ اللغة ، وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ، وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب ، وتدوين آثارها ، واستخدامها في الترجمة والتأليف الأدبي والعلمي وهلم جرا .

(١) انظر مثلا ١٣٣ — ١٤١ ، ١٦٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) لم نعد العوامل الأدبية المقصودة من بين هذه العوامل ، لأنها — وإن كانت فردية من بعض النواحي — ترجع من بعض وجوهها إلى ظواهر اجتماعية (انظر الفقرة الرابعة من هذا الفصل) . — هذا ، وقد حاول بعض المنتصبين لنظرية دوسوسور أن يرجع العوامل الجغرافية والجسمية والنفسية إلى ظواهر اجتماعية ، فلم تخل محاولته هذه من تعسف ظاهر .

(٣) انظر كذلك في الرد على نظرية دوسوسور 47—62 . Delacroix, Langage et pensée .

و انظر تفصيل هذا الموضوع كله في كتابي « اللغة والمجتمع » .

وتمتاز هذه الطائفة من العوامل عن الطوائف الثلاث السابقة بأنها أمور مقصودة ، تسيرها الإرادة الإنسانية؛ على حين أن الطوائف السابقة تتمثل مظاهرها في أمور غير مقصودة تحدث من تلقاء نفسها ، وتبدو آثارها في صورة جبرية لا اختيار للإنسان فيها ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدي إليه . وتمتاز عنها كذلك بأن هدفها الأصلي هو لغة الكتابة ، بينما تتجه آثار الطوائف السابقة بشكل مباشر إلى لغات المحادثة .

ولهذه الطائفة مظاهر كثيرة من أهمها الرسم ، والتجديد في اللغة ، والبحوث اللغوية ، وحركة التأليف والترجمة ، ووسائل تعليم اللغة . وسنعتقد لكل واحد من هذه الأمور الخمسة فقرة خاصة .

أولاً - الرسم :

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية . أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوي . فالشرط الأساسي لحياة اللغة هو التكلم بها لا رسمها : فكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريري ؛ ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتي . ويصدق هذا حتى على اللغات الصناعية نفسها كالاسبيرنتو Esperanto وما إليها . فمن المتعذر أن تتاح الحياة للغة من هذا النوع ما لم تتداولها الألسنة وتصبح أداة للكلام . ولذلك كان أول ما يتجه إليه المفكرون في هذا النوع من اللغات هو وضع أصواته وأسلوب نطقه والبحث في وسائل انتشاره التحديث به .

وعلى الرغم من ذلك فللرسم في حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر . فبفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل ما يصل إليه ذهن الإنسان ، وتنتشر المعارف ، وتنتقل الحقائق في الزمان والمكان . وهو قوام اللغات الفصحى ولغات الكتابة ودعامة بقائها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والإغريقية واللاتينية والقوطية .

فلولا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا عنها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوى .

وترجع أساليب الرسم التي استخدمت في مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين :

(أحدهما) أسلوب الرسم المعنوى *Idéographie. Ecriture idéographique*

وهو الذى يضع لكل معنى صورة خطية خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب في لغات كثيرة منها الصينية ^(١) والمصرية القديمة ^(٢) . ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ؛ ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الإنسانى .

وترجع الصور الخطية التي تستخدم في هذا الأسلوب إلى نوعين . فأحياناً تكون صوراً حقيقية للأشياء التي يراد التعبير عنها أو لأجزاء من هذه الأشياء ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفي إلى الشمس بدائرة في وسطها نقطة ، وإلى القمر بقوس في وسطه نتوء ، وإلى الزنبق بثلاث فروع من شجرته في طرف كل منها ثلاث زنبقات ، وإلى الصقر بصورته واقفاً . . . وهلم جرا . وأحياناً تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعاني *Symbolisme* ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفي إلى الشهر بصورة هلال في وسطه نجم ، وإلى اليوم بدائرة في وسطها نقطة ؛ وكما يشير الرسم الصينى لمعنى « الإنسانية » بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم ٨ .

(١) يرتكز الرسم الصينى على ٢١٤ رمزاً أصلياً (تسمى بالمفاتيح *Clefs* أو الأصول *Radicaux*)

يعبر كل رمز منها عن معنى عام ، ويعين المقصود منه عدد الخطوط التي تضاف إلى هذا الرمز ونوعها .

(٢) يسمى الرسم المصرى القديم الهيروغليفي *Hiéroglyphe* . وقد اجتاز هذا الرسم أربع مراحل .

فقد كان في المبدأ تصويراً للأشياء ، فيعبر عن الشمس مثلاً بدائرة في وسطها نقطة ، وعن القمر بقوس في وسطه نتوء . . . وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة ، فيعبر مثلاً عن اليوم بصورة الشمس (دائرة في وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجم تعلوها صورة قمر مستعرضة (قوس في وسطه نتوء) .

وفي المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة الصوتية المقطعية ، فاستخدمت مثلاً الصورة التي كان يعبر بها قديماً عن النجم ، وهي صورة الشفتين ، للتعبير عن مقطع « را » . وفي المرحلة

الأخيرة دخلت فيه الطريقة الهجائية ، فاستخدمت مثلاً الصورة السابقة لا للتعبير عن مقطع « را »

بل للتعبير عن صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء في الحروف الهجائية العربية . والمظهران الأولان فقط (الصورى والرمزى) هما اللذان يعدان من النوع الذى نحن بصدد الكلام

عنه . أما المظهران الأخيران (المقطعى والهجائى) فن النوع الثانى الذى سنتكلم عنه وهو الرسم الصوتى .

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة . فهو أسلوب بطيء يقتضى السكاتب إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود . ولكثرة صورته ورموزه تبعاً لكثرة المعانى والأشياء ، يقتضى تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمناً طويلاً . ولذلك يقتضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم فى المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصينى . وهو لا يقوى على تأدية وظيفته إلا فى صورة نافصة مبتورة ؛ إذ من المستحيل ، مهما كثرت صورته وتعددت رموزه ، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الإنسانى من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات . هذا إلى أنه بمقتضاه لا يوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة . مع أنه فى معظم اللغات الإنسانية ، كثيراً ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة . فاستخدامه فى حالات كهذه يوقع فى اللبس ويؤدى إلى الاضطراب .

(وثانيتها) أسلوب الرسم الصوتى - *Ecriture Phonétique, ou Phonétisme* — الذى يضع لكل صوت صورة خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب من الرسم فى كثير من اللغات القديمة ، ويستخدم الآن فى معظم الشعوب المتمدنية . وترجع الصور الخطية التى استخدمت فى هذا الرسم إلى طائفتين : إحداهما الصور المقطعية *Syllabique* وهى التى ترمز إلى مقاطع كاملة ، كما يرمز فى الهيروغليفى بشكل الشفتين إلى مقطع « را » وفى المسهامى بصورة اليد إلى مقطع « سو » ؛ والأخرى الصور الهجائية *Alphabétique* وهى التى ترمز إلى أصوات مفردة كما يرمز فى الرسم العربى بهذا الحرف : « ل » ، إلى صوت اللام مجردة من جميع الحركات .

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعى والهجائى) منذ أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد . فمن بين صور الخط الهيروغليفى ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلاً التى تعبر عن مقطع « را ») ، بل من بينها ما يرمز إلى مجرد أصوات مفردة (صورة الشفتين مثلاً التى أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بأية حركة ، كما هو

شأن الراء في الحروف الهجائية العربية) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذا الأسلوب وحده بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفي خليط من الرسم الصوتي والرسم المعنوي ؛ يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية ، صوراً حقيقية ورمزية (١) .

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائي وحده . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجاري وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب . فقد كانت هذه الشؤون تقتضيهم في جميع أعمالهم السرعة في الحركة ، والاقتصاد في الجهود ، وتحري وجوه الدقة . والأسلوب الهجائي هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها وأدناها إلى السكال . وليس من شك في أنهم قد حاكوا في أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفي من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية في معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه ؛ ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التي استخدمت فيما بعد في مختلف اللغات الإنسانية .

فن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هذه اشتق الرسم العبري الحديث (الحروف العبرية المربعة L' hébreu carré) الذي استخدم بعد رجوع بني إسرائيل من نفي بابل ، وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريباً الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمري (٢) (أو البالميري Palmyrénien (٣)) ؛ والآخر الخط النبطي Nabatéen . ومن التدمري

(١) انظر التعليق الثاني بصفحة ٢٤٥ .

(٢) نسبة إلى تدمر وهي مملكة قديمة كانت تشمل جزءاً كبيراً من سوريا الحالية . ومعنى

تدمر في العبرية بلاد النخيل .

(٣) نسبة إلى بالميرين Plmyrène وهو اسم فرنسي لبلاد تدمر . ومعناه في الفرنسية هو معنى

تدمر في العبرية أي بلاد النخيل .

اشتقت الحروف السريانية التي أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية . ومن الخط النبطي والخط السرياني اشتقت حروف الهجاء العربية .

ومن الرسم الفينيقي أخذ كذلك الرسم الآرامي . بل إن الرسم الآرامي في أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقي . وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكترانية Indo-Bactrien^(١) التي كانت مستخدمة في شمال الهند ؛ ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن في مختلف لغات الهند وسيام Siam وكامبودج Campodge (بالهند الصينية) وماليزيا Malaisie .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقي ؛ ومن الرسم الإغريقي أخذت الحروف اللاتينية ؛ ومن الرسم اللاتيني والإغريقي تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة في مختلف اللغات الأوروبية في العصر الحاضر .

* * *

والأصل في الرسم الهجائي أن يكون معبراً تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل في الترتيب ؛ فيرسم في موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذي يرمز إليه ، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتي . وقد حوفظ على هذا الأصل إلى حد كبير في بعض اللغات الإنسانية ، وخاصة القديم منها . فرسم الكلمة في السنسكريتية لا يكاد يختلف في شيء عن صوتها^(٢) . ولكن معظم أنواع الرسم ، وخاصة الحديث منها ، لا تتوافر فيه هذه المطابقة . فكثيراً ما يرسم في الكلمة حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتي في النطق (« مائة » ، في العربية ، « loup » في الفرنسية ، « thumb » في الإنجليزية) . . . وكثيراً ما تشتمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف في الرسم

(١) نسبة إلى باكتريان Bactriane وهي منطقة قديمة كان يسكنها الإيرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

(٢) وقد ساعد على ذلك أن الرسم السنسكريتي لم يكده يفادر صوتاً من أصوات اللغة الا وضع له حرفاً يرمز إليه . ولذلك كثرت حروف الهجاء في هذا الرسم ، وقويت على التعبير عن مختلف الأصوات فقد بلغت ٤٦ حرفاً منها ٢٢ حرفاً ساكناً و ١٣ حرفاً ليناً ، هذا إلى ثلاث علامات للشكل .

(« هذا ، في العربية ، picture » في الإنجليزية) . . . وكثيراً ما يرسم في الكلمة حرف أو أكثر للتعبير عن صوت غير الصوت الذي وضع له (« dompter » ، في الفرنسية ؛ « enough » ، « ocean » ، « of » في الإنجليزية) . . . وكثيراً ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد بصور صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف السكّات ، أو اختلاف أزمنتها ، أو اختلاف موقعه فيها أو اختلاف ما يسبقه أو يلحقه من حروف . . . فيرقق في بعض السكّات ويفخم في بعضها الآخر ، أو يمد في بعضها ويقصر في بعضها الآخر أو يضغظ عليه في بعضها ويرسل في بعضها الآخر . . . ؛ وهلم جرا . (اللام في « والله » ، بالله) .

« Law, low » ; « I get a piece of lead, I lead some men » ; « I will read this book, I have just read this book » ; « The lines of demarkation that separate sciences . . . , this book contains separate sciences » ; « I object against this way, the object of our book is . . . »

وكثيراً ما تختلف الحروف في كلمتين ويتحد النطق بهما

A piece of bread, . in time of peace

ويرجع السبب في هذه الظواهر وما إليها إلى عوامل كثيرة من أهمها ثلاثة عوامل : (أحدها) أن حروف الهجاء في معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع أصوات اللغة التي تسكتب بها . فقد جرت العادة مثلاً في معظم أنواع الرسم أن لا يوضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائي واحد ؛ مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصوات مختلفة في مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك . فالصوت العام للام مثلاً ليس له في معظم أنواع الرسم الحديثة إلا حرف واحد (ل . . .) ؛ مع أن هذا الصوت يختلف نطقه باختلاف السكّات والمواقع . فأحياناً ينطق به مرققاً (بالله ، low, hole) ، وأحياناً مفخماً (والله law) ؛ وتارة ينطق به مضغوطة عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلًا (يستعين بالله) . . . وهلم جرا ؛ ورسمه واحد في جميع هذه الحالات . والصوت العام للألف اللينة ليس له في العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه أحياناً ينطق به مستقيماً ، وأحياناً

ينطق به مما لا . والصوت العام للجيم ليس له في العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه في بعض اللهجات ينطق به مجرداً من التعطيش ، وفي بعضها ينطق به معطشاً كل التعطيش ، وفي بعضها ينطق به بين هذا وذاك (١) .

(وثانها) أن كثيراً من أنواع الرسم يقتصر على الرمز إلى الأصوات الهامة في الكلمة ويغفل ما عداها ؛ كأنواع الرسم السامى إذ تغفل الرمز إلى أصوات المد الطويلة والقصيرة معاً أو إلى القصيرة وحدها (٢) .

(وثالثها) أن أصوات اللغة - كما سبقت الإشارة إلى ذلك (٣) وكما سيأتى بيانه مفصلاً (٤) - في تطور مطرد وتغير دائم . فالأصوات التي تتألف منها كلمة ما لا تجمد على حالتها القديمة ، بل تتغير بتغير الأزمنة والمناطق ، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية : فأحياناً يسقط منها بعض أصواتها القديمة ، وأحياناً يضاف إليها أصوات جديدة ، وتارة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى ، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم . . . ؛ وقد يناهها أكثر من تغير واحد من هذه التغيرات . على حين أن الرسم لا يسير النطق في هذا التطور ، بل يميل غالباً إلى الجمود على حالته القديمة أو ما يقرب منها ؛ فلا يدون الكلمة على الصورة التي انتهت إليها أصواتها ، بل على الصورة التي كانت عليها من قبل . وهذا هو منشأ الخلاف في معظم اللغات الأوروبية الحديثة بين النطق الحال لسكثير من الكلمات وصورتها في الرسم . فمعظم وجوه هذا الخلاف ترجع إلى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغيير في ألسنة الناطقين باللغة .

ومع ما للرسم من الفوائد الجليلة التي أشرنا إليها في صدر هذه الفقرة (٥) . فإن عدم مطابقته للنطق يجعل له بعض آثار ضارة . فهو يعرض الناس للخطأ في

(١) انظر صفحة ٣٨ .

(٢) انظر آخر صفحة ١٩٩ وأول ٢٠٠ .

(٣) انظر ص ٢٢٧ .

(٤) انظر الفصل الخامس .

(٥) انظر صفحة ٢٤٤ وأول ٢٤٥ .

رسم الكلمات . ويجعل تعلم القراءة والكتابة لأهل اللغة أنفسهم من الأمور الشاقة المرهقة ، ويطيل زمن الدراسة ، فيسبب إسرافاً كبيراً في الوقت والمجهود . وما يلاقيه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقي أضعافه الأجانب الراغبون في تعلمها . ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها في الخارج ، ويضيق سبل الانتفاع بآدابها وعلومها ، فيصعب التفاهم بين الشعوب ، وتضعف بينها حركة التبادل العلمي والثقافي . هذا إلى أن تمثيل الرسم لصور صوتية قديمة يعمل على رجوع اللغة إلى الوراء وردها إلى أشكالها العتيقة . فكثيراً ما يتأثر الفرد في نطقه للكلمة بشكلها السكتاني ، فلا يلفظها بالصورة التي انتهى إليها تطورها الصوتي ، بل ينطق بها وفق رسمها فتنحرف إلى الوضع الذي كانت عليه في العهود القديمة . وليس الأجانب وحدهم هم المعرضين لهذا الخطر ؛ بل إنه كثيراً ما يصيب أهل اللغة أنفسهم . وإليك مثلاً الحرف المشدد في اللغة الفرنسية في مثل Savamment ، évidemment . . . الخ . فقد كان ينطق به وفق رسمه في العصور الأولى لهذه اللغة ، ثم انقرضت هذه الطريقة منذ عهد بعيد ، وأخذ الفرنسيون ينطقون به مخففاً كما ينطقون بحرف واحد (Savaman, évidaman) . ولكن منذ عهد قريب أخذت عادة النطق به مشدداً تظهر في السنة كثير منهم تحت تأثير صورته الخطية . فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبها في هذه الناحية عدة قرون إلى الوراء (١) . ومن أجل ذلك كان العمل على إصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه وبين النطق موضع عناية كثير من الأمم في مختلف العصور . فقد ظهر في هذا السبيل بعض حركات إصلاحية عند اليونان والرومان في العصور السابقة للميلاد . - وفي أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحو كثيراً من نواحيه . - ومثل هذا حدث من عهد قريب في مملكة النرويج ثم في جمهورية

(١) ومن ذلك أيضاً الحروف الساكنة (غير اللينة) في آخر الكلمات ، فقد حذفت في النطق الفرنسي في معظم المفردات منذ عهد بعيد . ولكن أخذ كثير من الفرنسيين في العصر الحاضر ينطقون بعضها تحت تأثير صورتها الخطية : « but » (نطقها الصحيح bu) قد نحوات الآن في السنة كثير من الفرنسيين إلى « bute » .

البرازيل . - وقد بدت بهذا الصدد محاولات إصلاحية كثيرة في البلاد الواطئة (هولاندا) وإنجلترا والولايات المتحدة ؛ ولكن معظم هذه المحاولات لم يؤد إلى نتائج ذات بال . - وأدخلت الأكاديمية الفرنسية ، يشد أزرها ويعاونها طائفة من سياسة فرنسا وعلمائها ، إصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسي . وقد جانبت في إصلاحاتها هذه مناهج الطفرة واتبعت سبل التدرج البطيء . فكانت تدخل في كل طبعة جديدة لمعجمها ، بجانب التنقيحات اللغوية والعلمية ، طائفة من الإصطلاحات الإملائية . وقد أقرت عام ١٩٠٦ مجموعة هامة من القواعد الجديدة في الرسم الفرنسي . هذا إلى اصطلاحات العلامة جريارد Gréard التي تناولت كثيراً من نواحي الرسم ، وأقرتها الأكاديمية الفرنسية . وكانت كل مجموعة من هذه الإصلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين . وعلى الرغم من ذلك فقد عم الأخذ بها ، وكان لها أكبر فضل في تيسير الرسم الفرنسي وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث . - والرسم العربي نفسه قد تناولته يد الإصلاح أكثر من مرة من قبل الإسلام ومن بعده . ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفكرين في عصرنا الحاضر يأخذون عليه كثيراً من وجوه النقص والإبهام ، وينادون بإصلاحه من عدة نواح وخاصة رسم الهمزة والألف اللينة وابتداع طريقة لإحلال علامات ظاهرة ترسم في صلب الكلمة محل الفتحة والكسرة والضمة حتى يتقى اللبس في نطق الكلمات (عَليم ، عَلِم ، عَلِمٌ ، عَلِمٌ . الخ) ولكن الرسم العربي ليس في حاجة إلى كثير من الإصلاح ؛ فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطاً في القواعد ومطابقة للنطق (١) .

هذا ، وعلى الرغم من المساوىء السابق ذكرها ، فإن جمود الرسم على حالته القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائد جديدة بالتنويه . فهو يوحد شكل الكتابة في مختلف العصور ، ويسهل تناقل اللغة ، ويمكن الناس في كل عصر من الانتفاع

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية صفحات ١٣٤ - ١٣٨ .

بمؤلفات سلفهم وآثارهم . فلو كان الرسم يتغير تبعاً لتغير أصوات الكلمات
لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له ، ولاحتاج الناس في
كل عصر إلى تعلم طرق النطق والإلمام بحالة اللغة في العصور السابقة لهم حتى
يستطيعوا الانتفاع بمخلفات آباءهم . هذا إلى أن جمود الرسم على حالته القديمة
يفيد الباحث في اللغات أكبر فائدة . فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات
ويقفه على ما كانت عليه أصواتها في أقدم عصور اللغة : فالرسم للألفاظ أشبه شيء
من هذه الناحية بالمتحف للآثار .

وقد كان للرسم في اللغات الأوروبية فضل كبير في تيسير النطق بكثير من
الاسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات فقد جرت العادة أن يكتب في التعبير عن
هذه الاسماء بذكر الحروف الأولى للكلمات التي تتألف منها :

« T . S . F . = télégraphe sans fil » ; « M . A = Master of arts »
وشاع هذا الاستعمال في أسماء المخترعات والشركات والأحزاب والفرق الحربية
والنظريات والشهادات العلمية .. وما إلى ذلك . وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات
وأخذ الناس يصرفونها وينسبون إليها ويشتمقون منها أفعالاً وصفات . وللإقتصار
عليها وكثرة استخدامها في الحديث والكتابة تنوسى أصلها عند عامة الناس ، وأصبح
كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازي ، الأنزك ، النافي . . . الخ) .

والرسم أثر كبير في تحريف النطق بالكلمات التي يقتبسها الكتاب والصحفيون
عن اللغات الأجنبية . وذلك أن اختلاف اللغات في الأصوات ، وحروف
الهجاء والنطق بها ، وأساليب الرسم . . . كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم
كلمة أجنبية في صورة تمثل نطقها الصحيح في اللغة التي اقتبست منها . فينشأ من
جراه ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذي يتفق مع رسمها في لغتهم ،
ويشيع هذا الأسلوب من النطق ، فتصبح الكلمة غريبة كل الغرابة أو بعض

الغرابية عن الأصل الذي أخذت عنه . وليس هذا مقصوراً على اللغات المختلفة في حروف هجائها كالعربية واللغات الأوروبية ، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة في حروف الهجاء كالفرنسية والإنجليزية . فجميع الكلمات الإنجليزية التي انتشرت في الفرنسية عن طريق رسمها في الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون في صورة لا تتفق مع أصلها الإنجليزي boy - scout ; foot ball ; rugby (hockey ; sterling ; standard of living ...) حتى أن كثيراً منها لا يكاد يبينها الإنجليزي إذا سمعها من فرنسي .

ثانياً — حركة التجديد في اللغة :

تبدو حركة التجديد المقصود في مظاهر كثيرة من أكبرها أثراً في التطور اللغوي الأمور الآتية :

١ — تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية ، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها ، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبي والعلمي . فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ في نهضة لغة الكتابة وتهذيبها واتساع نطاقها وزيادة ثروتها . والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الغابرة وفي العصر الحاضر . فأكبر قسط من الفضل في نهضة اللغة العربية في عصر بني العباس يرجع إلى انتفاع الأدباء والعلماء باللغتين الفارسية والإغريقية فقد أخذوا في ذلك العصر يترجمون آثارهما ، ويعقبون عليها بالشرح والتعليق ، ويستغلونها في بحوثهم ، ويحاكون أساليبها ، ويقتبسون منها عدداً كبيراً من المفردات العلمية وغيرها ، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى ؛ فاتسع بذلك متن اللغة العربية وازدادت مرونة وقدرة على تدوين الآداب والعلوم . — ويرجع كذلك أكبر قسط من الفضل في نهضة اللغة العربية بمصر في العصر الحاضر إلى انتفاع الصحفيين والأدباء والعلماء باللغات الأوروبية الحديثة ، وحاكتهم لأساليبها . وتعريبهم أو ترجمتهم لألفاظها ومصطلحاتها ، واستغلالهم في مؤلفاتهم وترجماتهم لمنتجات أهلها في شتى ميادين الحركة الفكرية .

ولغة الكتابة بفرنسا في العصر الحاضر مدينة بأهم نواحي رقيها إلى تأثرها باللغتين اللاتينية والإغريقية من جهة وباللغات الأوروبية الحديثة من جهة أخرى . فنذ « عصر النهضة » Renaissance لم ينفك أدباء فرنسا وعلمائها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة ، ومحاكاة أساليب هاتين اللغتين ، وترسم قواعدهما ومناهجهما في البحث (١) . وقد أخذوا منذ عهد غير بعيد يقتبسون كثيراً من المفردات والأساليب عن اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الإنجليزية والألمانية . - ولولا آلاف المفردات التي اقتبسها المحدثون من أدباء ألمانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها ومن اللغات الأوروبية الحديثة وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا أن تصل إلى الشأو الذي هي عليه الآن . - ومثل هذا يقال في معظم لغات الكتابة في العصر الحاضر . وكثيراً ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى مفردات لها نظير في معناها الأصلي ، وكثيراً ما تقتبس مفردات من لغة وتقتبس نظيرها في الدلالة عن لغة أخرى . وإلى هذه الظواهر وما إليها يرجع السبب في كثرة الألفاظ المترادفة (المشترك المعنوي) في لغات الكتابة . فما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له في اللغات ، ليس صحيحاً إلا فيما يتعلق ببعض لغات المحادثة التي تظل بآمن من الاحتكاك باللغات الأخرى . أما لغات الكتابة التي يستحيل بقاؤها بمعزل عن غيرها ، ولغات المحادثة التي يتاح لها هذا الاحتكاك ، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح ، للسبب الذي ذكرناه .

٢ - إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن معان لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة في استخدام كلمات غريبة ، أو في الترفع عن المفردات التي لا كتها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال ، تبعث هذه المفردات

(١) انتشرت بفرنسا حركة المحاكاة للقواعد والأساليب اللاتينية بفضل كتاب القرن السابع

عشر ، وعلى الأخص بلزاك وديكارت وبوسوبو Balzac, Descartes, Boussuet .

خلقاً جديداً ، ويزول ما فيها من غرابة ، وتندمج في المتداول المألوف . ولا يخفى ما لذلك من أثر في نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على التعبير . وقد سار على هذه الوتيرة بمصر في العصر الحاضر كثير من الأدباء والعلماء والصحفيين ، فردوا بذلك إلى اللغة العربية جزءاً كبيراً من ثروتها المفقودة ، وكشفوا عن عدة نواح من كنوزها المدفونة في أجداث المعجمات .

٣ — خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن أمور مستحدثة في الحياة الاجتماعية أو الفكرية لا يجدون في مفردات اللغة المستعملة ولا في مفرداتها الدائرة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً . وقد لا يضطرون إلى ذلك إلا مجرد الرغبة في الابتداع ، أو بجانب الألفاظ المتداولة المألوفة ، أو إبراز المعنى في صورة رائعة وتثبيته في الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالإغراب في تسميته . وقد عم استخدام هذه الطريقة في الأمم الأوروبية منذ القرن التاسع عشر وكثر التجاء الأدباء والعلماء إليها بنوع خاص في تسمية المستحدث من المخترعات الصناعية والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادئ السياسية والاجتماعية ، وفي التعبير عن بعض معان دقيقة في عالم الأدب والفلسفة ، فناءت مؤلفاتهم بهذه الكلمات المصنوعة ، وتألف منها معظم المصطلحات في الفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة . . . وما إلى ذلك . وقد صبغ معظم هذه المصطلحات بصبغة دولية ، فأقرته المؤتمرات والهيئات العلمية الممثلة لمختلف الأمم الأوروبية وعم استخدامها في لغاتها (تلغراف ، تليفون ، سوسولوجيا . جيولوجيا . . الخ) . وقد أجاز المجمع اللغوي بمصر الالتجاء إلى هذه الطريقة حيث تدعو إلى ذلك ضرورة ، بأن لا يوجد في مفردات اللغة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيراً دقيقاً عن الاصطلاح المراد التعبير عنه .

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر في نهضة لغة الكتابة ، واتساع متنها ، ودقة

مصطلحاتها ، وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير .

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة في وضع هذه الألفاظ .

ويستعينون عادة في تسكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو أكثر في كلمة واحدة . ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة وخاصة اللاتينية واليونانية القديمة . وكثيراً ما يستعان في تسكوينها بأكثر من لغة واحدة . فمن هذه المفردات ما هو مؤلف من لغتين (« سوسولوجيا » أي علم الاجتماع ، فصدر الكلمة « سوسيو » من أصل لاتيني معناه الجمعية وعجزها « لوجيا » من أصل يوناني معناه المقال أو البحث أو الخطبة : « Sociologie » du latin « societas » = société, et du grec « logos = discours . بل منها ما هو مؤلف من ثلاث لغات (« بيسيكلت » أي الدراجة فإن « بي » من أصل لاتيني يدل على التثنية ، « وسيكل » من أصل يوناني معناه الدائرة ، و « إت » علامة فرنسية للتصغير Bicyclette : du latin « bi » = deux fois, et du grec « kuklos » = cercle, et du suffixe diminutif français « tte »). وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح . ولذلك كثيراً ما تختلف معانيها اختلافاً يسيراً أو كبيراً عن معاني الأصول التي استمدت منها .

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التي وضعت عليها . بل ينالها ما ينال غيرها من المفردات ، وتخضع في تطورها الصوتي والدلالي للقوانين العامة نفسها التي تخضع لها الألفاظ الأصلية . فبمجرد أن يقذف بها في التداول اللغوي وتتأقلمها الألسنة تقلت من إرادة مخترعيها وتخضع لنواميس التطور العامة المسيطرة على ظواهر الصوت والدلالة . فاللفظ الموضوع أشبه شئاً بحجر يقذف به القاذف في جهة معينة بقوة خاصة ؛ فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع في سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها . ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعية ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات . والأسلوب الصوتي الذي كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلاً غير الأسلوب الصوتي الذي تلفظ به الآن . وقد أخذ كثير منها عند جميع السكتاب أو عند بعضهم ينحرف في دلالاته نفسها عن المعنى الذي وضع له في الأصل .

ثالثاً — المؤلفات اللغوية

وهي البحوث التي ترمي إلى حفظ اللغة وضبطها وسلامتها وتخليدها والوقوف على خواصها وتاريخها وآثارها . . . وما إلى ذلك . فتشمل المعجمات ودوائر المعارف وكتب القواعد بمختلف أنواعها (النحو ، الصرف ، الاشتقاق ، الوضع البيان ، المعاني ، البديع . . . الخ) ، وأدب اللغة وتاريخه ، ودراسة أصوات اللغة ومخارج حروفها ودلالة كلماتها وحياتها والأدوار التي سارت فيها من مختلف نواحيها . . . وهلم جرا .

فلا يخفى ما لهذه الجهود من أثر جليل في حياة لغة الكتابة وحفظها من التحريف وتهذيبها ونهضتها ونقلها من السلف إلى الخلف .

رابعاً — نشاط التأليف والترجمة في الآداب والعلوم والفنون والصحافة وما إلى ذلك

فن الواضح أنه لا حياة للغة الكتابة بدون استخدامها في هذه الشؤون ، وأنه بمقدار نشاط أهلها في هذه الميادين تتاح لها وسائل الانتشار والرقى والنهوض .

خامساً — تعليم لغة الكتابة

تقوم معاهد التعليم في مختلف الأمم بأهم ناحية من هذه الوظيفة ، وإليها يرجع أكبر قسط من الفضل في حياة اللغة وتخليدها وسلامتها وما يتاح لها من نهوض . فهي التي تعلم الصغار الكتابة والقراءة وتقوم ألسنتهم وتصلح فاسد نطقهم وتأخذهم بأداب اللغة وأساليبها ، وتقفهم على قواعدها وتلقنهم آثارها ، وتبعث في نفوسهم حبها وإجلالها ، وتدرس لهم بها مختلف المواد فتزيد بها تثبتاً في أذهانهم ، وتقدرهم على استخدامها في مختلف مناحي التعبير .

وتعتمد معاهد التعليم في أدائها هذه الوظائف الجليلة على العوامل الأربعة السابق ذكرها ، وعلى طرق إعداد المعلمين ومؤلّفات التربية وأساليب التعليم . . .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

وما يتصل بذلك ، وعلى ما تلقاه من إشراف وتعضيد ومعونة من جانب أولى الأمر والأسرات والهيئات والأفراد .

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذه الفقرة أن نشير إلى أن كل تطور أو رقي في لغة الكتابة يؤثر بطريق غير مباشر في لغة الحديث . فطبقات الخاصة تعمل جاهدة على تقريب لغة حديثها من اللغة الفصحى ، وانتشار التعليم الأولى يساعد على تهذيب لغة الكلام في طبقات العامة ويدنو بها من لغة الكتابة . فالعوامل السابق ذكرها في هذه الفقرة - وإن اتجه أثرها أولا وبالذات إلى لغات الكتابة - تؤثر بطريق غير مباشر في لغات التخاطب .

أسواتها إلى المثلثات في لغة (١)



لكن من عليها الآن في لغات ...
تتألف من ...
بين ...
تلك ...
سلك ...
وغيره ...
وعول ...

...
...
... (١) ...

(١) ...
...
... ١٧٧ - ١٧٨ ...

الفصل الخامس

أصوات اللغة : حياتها وتطورها

(الفونيتيك Phonétique)^(١)

ترجع أهم ظواهر اللغة إلى قسمين رئيسيين: الظواهر المتعلقة بالصوت؛ والظواهر المتعلقة بالدلالة. وكلتا الناحيتين في تطور مطرد وتغير مستمر. وهي في تطورها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين.

وسندرس في هذا الفصل ما يتعلق بالصوت وتطوره ونقف الفصل التالي على الأمور المتصلة بالدلالة.

(١) خواص التطور الصوتي وعوامله

للتطور الصوتي خواص كثيرة أهمها مايلي :^(٢)

١ - أنه يسير ببطء وتدرج. فاختلف الأصوات اللغوية في جيل عما كانت عليه في الجيل السابق له مباشرة لا يكاد يتيبئه إلا الراسخون في ملاحظة هذه الشئون؛ ولكنه يظهر في صورة جلية إذا وازنا بين حالتيهما في جيلين تفصلهما مئات السنين. فلغتنا لا تكاد تختلف في أصواتها عن لغة آبائنا المباشرين، ولكنها تختلف اختلافاً بيناً في هذه الناحية عما كانت عليه في السنة أجدادنا في العصور الوسطى أو في صدر العصور الحديثة.

٢ - أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلي لا دخل فيه للارادة الإنسانية؛ فتحول صوت الشاء العربية مثلاً إلى تاء (ثلاثة ، ثلاثة) ، والذال إلى دال (ذراع ،

(١) أنظر رقم ٣ بصفحة ٦ .

(٢) أشرنا إلى كثير من هذه الخواص في الفصول السابقة . أنظر صفحات ١٨ - ٢١ ، ٥٥ ، ٥٦

دراع) ، والظاء إلى ضاد (الظل ، الضل) والقاف إلى همزة (قلت ، آلت) ،
أو جاف (جيم غير معطشة : قلت ، جلت) ، وانقراض الأصوات التي كانت
تلتحق أو آخر الكلمات للدلالة على إعرابها ووظائفها في الجمل (كنتُ أحسبُ
أن كتابَ محمدٍ أحسنُ من كتابِ عليٍّ ، كنتُ أحسبُ أن كتابَ محمدٍ أحسنُ
من كتابِ عليٍّ) . . . كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه بطريق آليٍّ
لا دخل فيه للتواضع أو إرادة المتكلمين .

٣ — أنه جبري الظواهر ، لأنه يخضع في سيره لقوانين صارمة ، لا اختيار
للإنسان فيها ، ولا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدي إليه . وإليك
مثلاً حالة اللغة العربية في صدر الإسلام وما آلت إليه الآن : فعلى الرغم من
الجهود الجبارة التي بدلت في سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من تحريف ، ومع
أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطور
أصواتها إلى الصورة التي تتفق مع نوايس التطور اللغوي ، فأصبحت على الحالة
التي هي عليها الآن في اللغات العامية .

٤ — أنه في غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فعظم ظواهر التطور الصوتي
يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص ، ولا نكاد نعرث على تطور صوتي لحق
جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة . فتحول صوت القاف مثلاً إلى همزة
(قلت ، آلت) لم يظهر إلا في بعض المناطق الناطقة بالعربية ومنذ عهد غير بعيد ،
وتحول صوت a الواقع في نهاية بعض الكلمات اللاتينية إلى صوت e لم يظهر إلا
عند الفرنسيين ، ولم يبد أثره لديهم إلا في أثناء المدة المحصورة بين نهاية القرن
الثامن وأوائل القرن الرابع عشر .

٥ — أنه إذا لحق صوتاً معيناً في بيئة ما ظهر أثره في جميع الكلمات المشتملة
على هذا الصوت وعند جميع الأفراد الذين تسكتنفهم هذه البيئة . فتحول القاف

العربية مثلاً إلى همزة في بعض المناطق المصرية قد ظهر أثره في جميع الكلمات المشتقة على هذا الصوت وعند جميع أفراد هذه المناطق^(١).

ومن هذا يظهر فساد كثير من النظريات القديمة بهذا الصدد :
فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن تطور الأصوات يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية تنتشر عن طريق التقليد والمحاكاة^(٢).

وليس بصحيح كذلك ما كانت تقول به المدرسة الإنجليزية من عهد ساينس Sayce إلى عهد سويت Sweet من أن التطور الصوتي يتجه باللغة نحو التهذيب والكمال ، ولا ما ذهب إليه العلامة پول پاسي Paul Passy من أنه يتجه نحو إظهار العناصر الأساسية في الكلمة وتجريدها مما عسى أن يكون بها من أصوات لا تدعو إليها كبير ضرورة ، فيخفف بذلك من ثقلها ويزيدها تمييزاً . وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا في تطور اختياري مقصود تقوده الإرادة الإنسانية في سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الصوتي تطور تلقائي آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد في اتجاهه بالسبل التي تقول بها هذه النظريات . وإن موازنة بين حالة الكلمات في اللغة العربية الفصحى وما آلت إليه في اللغات العامية لا كبر دليل على ما نقول . فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه نحو التهذيب والكمال ، ولم يحقق زيادة تمييز للكلمات ، بل أدى في معظم مظاهره إلى اللبس في وظيفة الكلمات ودلالاتها ، وجرّد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها إلى منزلة وضيعة في التعبير . وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات الإنسانية الراقية . فكثير من الكلمات اللاتينية مثلاً كانت واضحة الشخصية مميزة الأصوات ، ثم فقدت بعد تطورها شخصيتها وميزاتها ، وأصبحت في حالة يكتنفها اللبس والإبهام . ويظهر هذا بالموازنة بين كلمة aqua اللاتينية

(١) هذه الخواص بعض استثناءات لا يتسع المقام لذكرها ، ومعظمها يمكن رجعه إلى القوانين العامة لحياة اللغات .

(٢) أنظر ص ٥٣ .

مثلاً وما انتهت إليه في الفرنسية إذ استحالت إلى صوت واحد من أصوات اللين (eau وينطق بها ô) .

وليس بصحيح كذلك ما ذهب إليه مكس مولر Max Muller ووتني Whitney من أن التطور الصوتي يتجه نحو تسهيل النطق ويعمل على تحقيق الاقتصاد في المجهود^(١). وذلك أن هذا الانجاء من قبيل الاتجاهات التي تقول بها النظريات السابقة . فهو مثلها لا يمكن أن يتحقق إلا في تطور اختياري مقصود تقوده الإرادة الإنسانية في سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الصوتي تطور تلقائي آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية ، فلا يتصور أن يتقيد في اتجاهه بالخطة التي تقول بها هذه النظرية . حقاً إن الحالة التي تتطور إليها أصوات الكلمة في جيل ما تكون دائماً أكثر من حالتها الأولى تلاؤماً مع طبيعة أعضاء النطق واستعدادها عند أهل هذا الجيل كما سيأتي بيان ذلك^(٢). ولكن لفظها قد يتطلب من الأعمال الصوتية وحركات أعضاء النطق أكثر مما يتطلبه لفظ الكلمة القديمة ، فلا يتحقق حينئذ الاقتصاد الذي تقول به هذه النظرية . ويظهر هذا مثلاً بالموازنة بين الكلمة العربية « ماء » وما انتهت إليه في عامية القاهرة إذ أصبحت « مَيْسَه » ، وبين الكلمة العربية « ذا الوقت » وما انتهت إليه في عامية بعض مقاطعات الشرقية إذ أصبحت « دَسُوَ جيتي » ، وبين الكلمة اللاتينية caballicet^(٣) وما انتهت إليه في فرنسية العصور الوسطى إذ أصبحت chevalcet (وكان ينطق بها tchevalst) .

أما العوامل التي تؤدي إلى تطور الأصوات فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق في بنيتها واستعدادها .

(١) «Loi du moindre effort» (Max Muller) — «Principe d'économie» (Whitney) — V.

Dauzat : Philosophie du Langage. P.166 ; Patois. P. 117.

(٢) أنظر آخر ص ٢٦٤ ونوابها .

(٣) Troisième personne du subjonctif présent du verbe chevaucher.

٢ — اختلاف أعضاء النطق في بنيتها واستعدادها باختلاف الشعوب races.

٣ — الأخطاء السمعية .

٤ — تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض .

٥ — موقع الصوت في الكلمة .

٦ — تناوب الأصوات وحلول بعضها مع بعض .

٧ — أثر الأمور النفسية والاجتماعية والجغرافية .

٨ — أثر العوامل الأدبية .

وقد تكلمنا بما فيه الكفاية في الفصلين الأول والرابع من هذا الباب عن أثر العاملين الأخيرين في التطور الصوتي (١) فحسبنا هنا أن نذكر كلمة عن أثر كل عامل من العوامل الستة الأولى في هذا التطور .

(٣) التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق

ونظرية روسلو Rousselot

من المقرر أن أعضاء النطق في الإنسان في تطور طبيعي مطرد في بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلقنا ، وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم يكن في بنيتها الطبيعية ، فعلى الأقل في استعدادها (٢) ؛ بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأقربين . غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج ؛ ولذلك لا يبدو أثره بشكل واضح إلا بعد زمن طويل .

(١) أنظر صفحات ١٦١ — ١٧١ ، ١٧٣ — ١٧٧ ، ٢٢٣ — ٢٤٢ ، ٢٥٠ — ٢٥٤ .

(٢) يكاد العلماء يجمعون على أن أعضاء النطق تختلف بعض الشيء في بنيتها واستعدادها باختلاف الشعوب وباختلاف الظروف المحيطة بكل شعب كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة التالية ، ويكادون يجمعون كذلك على أنها في الشعب الواحد والظروف المتشابهة تتطور استعداداتها وتختلف باختلاف العصور . أما تطور بنيتها الطبيعية واختلافها باختلاف العصور في الشعب الواحد والظروف المتشابهة فقد اختلف العلماء بصدده : فمن منكر له ؛ ومن قائل به . والمذهب الأخير هو الأدنى إلى الصواب .

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعدادها يتبعه تطور في أصوات السكلمات؛ فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التي كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق.

وقد كان لكشف هذه الحقيقة أكبر فضل في نهضة البحوث اللغوية المتعلقة بالصوت، وفي القضاء على كثير من النظريات الفاسدة التي أشرنا إلى بعضها في الفقرة السابقة^(١).

وقد اهتدى لهذا الكشف، من قبل العلامة روسلو Rousselot^(٢) عدد كبير من الباحثين، نخص بالذكر منهم هرمان بول Herman Paul^(٣). ولما جرت العادة بنسبته إلى العلامة روسلو؛ لأنه وقف قسطاً كبيراً من جهوده على دراسته وتدعيمه بالأدلة القاطعة وتحري حقائقه بوسائل البحث القديمة، وبوسيلة جديدة لم يكن يسبقه أحد إليها، وهي وسيلة الأجهزة (الفونيتيك التجريبي^(٤)). وليس من الميسور وضع قواعد عامة مضبوطة لاتجاهات هذا التطور؛ لأن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف اللغات والبيئات والشعوب كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في الفقرة السابقة^(٥). ولذلك سنقتصر بصدد هذا العامل على ضرب أمثلة من الظواهر الصوتية المترتبة عليه.

فن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف. فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق في كثير من البلاد العربية، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقيناً خاصاً ومجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج. ولعدم ملاءمتها مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق في هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها. فالصوت الأول (الجيم) الذي كان ينطق به معطشاً بعض التعطيش في العربية

(١) انظر صفحات ٢٦٢، ٢٦٣ (٢) انظر صفحة ٥٦ وتعليقها الأول والثاني.

(٣) انظر صفحات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦.

(٤) انظر صفحات ٣٨—٤١. (٥) انظر رقم ٤ بصفحة ٢٦١.

الفصحى قد تحول في معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ،
وفي معظم المناطق السورية والمغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (ج) (١) .
والثاء قد تحولت إلى تاء في معظم المناطق المصرية وفي بلاد أخرى (فيقال :
توب ، تلج ، تخين ، تعلب ، تعبان ، تفل ، تفل ، تليل ، تلت ، ثلاثة ، تمن ، ثمانية ، تور ،
اتنين ، نتر ، جثة ، عثة ، عتر . . . الخ ، بدلا من ثوب ، تلج ، تخين ، ثعلب ،
ثعبان ، ثفل ، ثقل ، ثلث ، ثلاثة ، ثمن ، ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، جثة ، عثة ،
عثر . . . الخ) (٢) . والذال قد تحولت في كثير من المناطق العربية إلى دال في معظم
الكلمات (فيقال : داب ، دراع ، ديب ، ده ، دبل ، دبح ، دبان ، دان ، أدان ،
ودن ، ذهب ، ديل . . . الخ ، بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذئب ، ذا ، ذى ، ذبل ،
ذبح ، ذباب ، ذقن ، أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل . . الخ) ؛ وإلى زاي في بعض
الكلمات (فيقال مثلا : زنب ، زهن ، زكى ، بز ، رزالة . . الخ ، بدلا من :
ذنب ، ذهن ، ذكى ، بذر ، رذالة . . الخ) . والظاء قد تحولت إلى ضاد في معظم
الكلمات (فيقال : ضلام ، ضفر ، ضل ، ضهر . . الخ ، بدلا من : ظلام ، ظفر ،
ظهر . . الخ) ؛ وإلى زاي مفخمة في بعض الكلمات (كما ينطق في عامية المصريين
بكلمات : ظالم ، ظريف ، أظن ، حظ . . الخ) (٣) . والقاف قد تحولت إلى همزة
في بعض اللهجات العربية (فيقال : أط ، ألت ، أبل ، عاد ، نطأ . . الخ ، بدلا من
قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق . . الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) في معظم
اللهجات العامية بمصر وغيرها من البلاد العربية (فيقال : جط ، جات ، جبل ،

(١) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقاً صحيحاً في عامية العراق وبعض المناطق المصرية ، وخاصة
في مديرية الشرقية .

(٢) تحول هذا الصوت في كلمات قليلة إلى سين أو صاد (ثواب مثلا ينطق بها أحيانا سواب أو صواب) .

(٣) لا يزال ينطق بأصوات الثاء والذال والظاء نطقاً صحيحاً في عامية العراق والمغرب وخاصة

في طرابلس وفي القبائل العربية النازحة إلى مصر (الفوايد ، الرماح ، البراعة ، أولاد علي ،
الضعفاء ، سمالوس . . الخ) .

عجد ، نطج . . . الخ ، بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق . . . الخ (١) .
ومثل هذا حدث في كثير من اللغات الأوروبية . فمن ذلك ما لوحظ بصدد
تطور الراء الفرنسية في منطقة باريس وما إليها . فقد كان ينطق بها قديما في صورة
مرققة ؛ ثم أخذت تنحرف عن مخرجها تبعا لتطور أعضاء النطق واستعدادها
حتى قربت من آخر الحلق ، فتحولت إلى صوت بين الراء والغين ، وأصبح صوتها
القديم ثقيلًا على الألسنة يتطلب لفظه من أهل هذه المناطق مجهوداً إرادياً وقيادة
مقصودة لحركات المخارج .

(٣) اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب

تختلف أعضاء النطق في بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعا لاختلاف
الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتي تنتقل عن طريق
الوراثة من السلف إلى الخلف . حقا أن أعضاء النطق تظل مرنة كل المرونة طوال
المرحلة الأولى من مراحل الطفولة . فمن المشاهد أن الطفل في هذه المرحلة لا
يستعصى عليه اكتساب أى لغة عن طريق التقليد ، مهما كانت هذه اللغة بعيدة عن
لغة أبويه ، بل في استطاعته أن يكتسب بهذه الوسيلة عدة لغات أجنبية إذا أتاحت
له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ، ويصل في إجادتها جميعها إلى درجة لا يستطيع
معها أكبر خبير في اللغات أن يميزه من أهلها ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في
الباب الثاني من هذا الكتاب (٢) . ولسكن ليس من شك في أنه كلما تقدمت به
السن ظهرت عنده الاستعدادات الصوتية الكامنة الخاصة بأتمه ، ورسخت لديه

(١) لا يزال صوت القاف محتفظا بنطقه الصحيح في كثير من الكلمات في عامية العراق وعامية
رشيد . وكان مستعملا منذ عهد غير بعيد في بعض مناطق بني سويف ، وقد سمعت أنا نفسى بعض
شيوخ أسرتى (ببلدة الحمام مركز بني سويف) يتكلمون بالقاف ؛ ولا يزال العامة في هذه المناطق
يتكلمون بالقاف ، حينما يروون عبارة منسوبة الى أجدادهم في الأقاليم الشعبية وما إليها ، وهذا
يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم الا منذ أمد قريب .

(٢) أنظر صفحات ١٢٩ — ١٣١

عادتها الكلامية ، فتنفقد أعضاء نطقه مرونتها شيئاً فشيئاً ، وتشكل بالشكل الذي فطرت عليه في شعبه ، وتسلك في تطورها منهجاً خاصاً يختلف عن المنهج الذي تسلكه أعضاء النطق في الشعوب الأخرى .

ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب بهذا الصدد من آثار خطيرة في التطور الصوتي في مختلف اللغات .

فإلى هذا يرجع بعض السبب في اختلاف اللغة الواحدة في تطورها الصوتي باختلاف الشعوب الناطقة بها . وذلك أنها تسلك في تطورها الصوتي عند كل شعب منها مسلكاً يتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقها وطبيعتها واستعدادها ومنهج ارتقاؤها . فاللاتينية مثلاً قد سلكت في تطورها الصوتي عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها مسلكاً يختلف عن مسلكها في الشعوب الأخرى ؛ فلم تلبث أن انشعبت من جراء ذلك إلى عدة لغات (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ... الخ) . واللغة العربية قد اتجهت كذلك في تطورها الصوتي عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيره ؛ فلم تلبث أن تولد عنها من جراء ذلك عدة لهجات (عامية العراق ، عامية الشام ، عامية نجد والحجاز ، عامية اليمن ، عامية مصر ، عامية المغرب ... الخ ^(١)) - حقاً إن كثيراً من مظاهر هذا الاختلاف يرجع إلى عوامل اجتماعية ونفسية أو إلى آثار البيئة الجغرافية ^(٢) ؛ ولكن ليس من شك في أن بعض هذه المظاهر يرجع إلى العامل الشعبي الذي نحن بصدد الكلام عنه .

وعلى هذا العامل يقع كذلك قسط من التبعة فيما يصيب اللغة من تحريف في أصواتها حينما تنتقل من شعب إلى آخر ^(٣) ؛ وذلك أنها تشكل عند الشعب المنتقلة إليه في الصورة التي تتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقها في بنيتها

(١) انظر صفحات ١٥٩ - ١٦٥ .

(٢) انظر صفحتي ١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) انظر صفحة ٢١٠ وآخر صفحة ٢١٣ و صفحة ٢١٤ وأول صفحة ٢٢٢ ونقول : « قسط من التبعة » لا كل التبعة ، لأن لهذه الظاهرة أسباباً أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسباباً اجتماعية ونفسية وجغرافية ... الخ) .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

واستعدادها ، فتبعد بذلك عن أصولها الأولى ، ويزداد بعدها هذا كلما اتسعت مسافة الخلف بين أصول الشعبين . فما أصاب لغة الصقالبة من تحريف في السنة البلغاريين يفوق كثيراً ما أصابها عند غيرهم ؛ وذلك لأن الأصل الفيني Finois الذى ينحدر منه البلغاريون لا تربطه صلة قريبة بالأصل السلافي الذى ينتمى إليه الصقالبة ^(١) : — وما أصاب الأصوات اللاتينية من تحريف في اللغة الفرنسية يفوق كثيراً ما أصابها في اللغة الإيطالية ؛ وذلك لأن الإيطاليين أقرب رحماً إلى قدماء الرومان من الفرنسيين ، ففهم يغلب الدم اللاتيني ، بينما يغلب في الفرنسيين الدم السلتى والجرمانى . — ولهجات القسم الجنوبى من فرنسا كالجسكونية والپروفنسية الخ Gascon, Provençal .etc أقرب إلى أصولها اللاتينية من لهجات القسم الشمالى ؛ وذلك أن الدم اللاتينى في سكان الجنوب أغزر منه في سكان الشمال . — ولهجات الجنوب نفسها تختلف في مبلغ قربها إلى اللغة اللاتينية تبعاً لاختلاف الناطقين بها في مبلغ قربهم إلى الأصل اللاتينى . ولذلك كانت الپروفنسية Provençal أقرب إلى اللاتينية من الجسكونية Gascon ؛ لأن الپروفنسيين أدنى إلى اللاتين من الجسكونيين . — ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (البراعصة ، الفوايد ، الرماح ، الجوازى ، أولاد على ، سمالوس ، . . الخ) أدنى في ناحيتها الصوتية إلى العربية الفصحى من لهجات المصريين أنفسهم ^(٢) ؛ وذلك لأنهم أقرب رحماً إلى العرب من المصريين .

وعلى ضوء هذا العامل يمكن كذلك قياس مسافة الخلف بين اللهجات المحلية ، (وهى اللهجات التى يتكلم بها في منطقة لغوية واحدة كلهجات البلاد المصرية) ^(٣) والوقوف على بعض الأسباب التى تؤدى إلى بعدها بعضها عن بعض ^(٤) . فالمشاهد

(١) انظر صفحة ٢١٠ .

(٢) انظر آخر ص ٢٦٦ والتعليق الثالث فيها .

(٣) انظر ص ١٦٥ وتوابعها .

(٤) نقول « بعض الأسباب » لأن لهذه الظاهرة أسباباً أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسباباً

اجتماعية ونفسية وجغرافية . . الخ) .

أن مبلغ اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض في أصواتها يتبع إلى حد كبير مبلغ اختلاف الناطقين بها بعضهم عن بعض في أصولهم الشعبية . فكلما كان هؤلاء متجانسين في أصولهم ضاقت مسافة الخلف بين لهجاتهم في ناحيتها الصوتية ؛ وكلما تعددت الأصول الشعبية التي ينتمون إليها اتسعت هذه المسافة . فلهجات المصريين لا تختلف كثيراً بعضها عن بعض في هذه الناحية ؛ وذلك لتجانسهم في الأصول التي انحدروا منها . — ولهجات المنطقة الشمالية بفرنسا (منطقة باريس وما إليها) تختلف كثيراً عن لهجات المنطقة الجنوبية منها (طولون ، نيس . . الخ ، Toulon ، Nice) ؛ ولكن كلتا المنطقتين تحوى مجموعة متشابهة من اللهجات (١) . وذلك لأن سكان المنطقة الشمالية يختلفون في أصولهم الشعبية عن سكان المنطقة الجنوبية ، ولكن كلتا المنطقتين تضم من السكان مجموعة متجانسة في هذه الأصول . — ولهجات المناطق الوسطى بفرنسا تختلف بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير ؛ وذلك لتعدد الأصول الشعبية التي ينتمى إليها سكان هذه المناطق (٢)

غير أنه من الخطأ المبالغة في أثر هذا العامل والعامل السابق له كما حاول ذلك بعض الباحثين . ولا أدل على أن أثرهما ليس بالدرجة التي تصورهما هؤلاء من أن الطفل من أية أمة وفي أى عصر يستطيع بسهولة أن يجيد لغة أمة أخرى أو عصر آخر عن طريق التقليد إذا أحيط في دور طفولته بأفراد يتكلمون هذه اللغة ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في أول هذه الفقرة .

(٤) الأخطاء السمعية

سقوط الأصوات الضعيفة ونظرية روسلو ومييه Rousselot — Meillet يعتمد الطفل في محادثاته للغة أبويه على حاسة السمع ، كما سبق شرح ذلك في الباب الثانى من هذا الكتاب (٣) . ولما كانت هذه الحاسة عرضة للزلل

(١) انقرض الآن معظم هذه اللهجات وحلت محلها الفرنسية الحديثة .

(٢) V. Dauzat : Vie du Langage p. 47

(٣) انظر صفحتى ١٤٠ ، ١٤١ .

في إدراكها ، كان لزاماً أن يجانب الطفل السداد في بعض ما يحاكيه وأن تختلف لغته بعض الاختلاف في ناحيتها الصوتية عن لغة أبويه .

وتنقسم الأخطاء اللغوية الناجمة عن هذا السبب إلى قسمين :

١ — أخطاء خاصة مقصورة على بعض الأفراد كالأخطاء الناجمة عن ضعف السمع أو اختلال أجهزته وما إلى ذلك . وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير في تطور اللغة ؛ لأن آثارها مقصورة على أصحابها ، تبقى معهم وخدمهم في حياتهم وتختفي بموتهم .

٢ — أخطاء عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم . وذلك كالأخطاء السمعية الناشئة عن ضعف بعض الأصوات . فقد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً حتى يصل في عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع . فحينئذ يكون عرضة للسقوط . وذلك أن معظم الصغار في هذا العصر لا يكادون يتبينونه في نطق الكبار ، فينطقون بالكلمات مجردة منه ، ولا يفظن الآباء لسقوطه في لغة أبنائهم للسبب نفسه الذي من أجله لم يفظن الأبناء لوجوده في لغة آبائهم .

ولا يخفى ما لهذا القسم من الأخطاء من أثر بليغ في تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . فإنه يرجع السبب في سقوط كثير من الأصوات في مختلف اللغات الإنسانية وخاصة في اللغات الهندية — الأوروبية .

ويرجع أكبر قسط من الفضل في توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الأستاذين روسلو وميه Rousselot, Meillet ، ولذلك تنسب إليهما نظريته (١) .

(١) انظر في ذلك : Meillet, Linguistique générale : Dautat , les Patois p. 118 ;
p. 79; Delaeroix, Le Langage et la Pensée p. 180 et suiv.

وانظر في التعريف بروسلو وميه صفحات ٤١ ، ٥٦ ، ٦٢ ، والتعليق الثالث بصفحة ٦٢ .

(٥) تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض

يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة في الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة يؤدي كل نوع منها إلى نتائج ذات بال في التطور الصوتي . ومن أهم ما سجله الباحثون بهذا الصدد الأمور الآتية :

١ - التفاعل بين الأصوات الساكنة (ونعني بها ما يقابل أصوات اللين) . يحدث أحياناً بين الصوتين المتجاورين في الكلمة مثل ما يحدث بين المواد المحملة بالكهرباء . فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تجاذباً إذا كانتا مختلفتين في نوع كهربائهما ، بأن كانت إحداهما موجبة والأخرى سالبة ، وتنافراً إذا كانتا متحدتين فيه ، بأن كانت كلتاهما موجبة أو سالبة . وكذلك يفعل أحياناً التجاور أو التقارب بين الصوتين .

(١) فإذا تجاور صوتان مختلفان في مخارجهما أو تقاربا انجذب أحياناً كل منهما نحو الآخر ، فينتهي بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الأربع الآتية :

فتارة يلتصق أحدهما بالآخر ، فتنتقل الأصوات التي كانت تفصل بينهما إلى ما بعدهما (ظاهرة النقل المكاني Métathèse ^(١)) : كما حدث لحرفي b, r في كلمة berbis إذ تحولت إلى brebis وفي كلمة abeuvrer إذ تحولت إلى abreuver وتارة يتحول أحدهما إلى صوت من نوع الصوت الآخر (ظاهرة التشاكل assimilation ^(٢)) : فيتحول الأول إلى نوع الصوت الثاني كما حدث في cercher إذ تحولت إلى chercher وكما حدث في اللام الشمسية ^(٣) في اللغة العربية إذ تحولت

(١) ليس النقل المكاني Métathèse مقصوراً على الحالة التي نحن بصدد الكلام عنها ، بل يطلق اصطلاحاً على كل حالة ينتقل فيها صوت أو أكثر من موضعه في الكلمة إلى موضع آخر كما سيأتي بيان ذلك في آخر الفقرة السادسة من هذا الفصل .

(٢) استخدمنا كلمة assimilation في معناها الواسع الذي يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين لأنها لا تطلق في معناها الاصطلاحي الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٣) وهي لام التعريف المتبوعة بأحد الحروف الآتية : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ن

إلى صوت الحرف الذي يليها (التقوى ، الثوب ، الدار ، الذنب الرحمة ، الزهر ، السماء ، الشمس ، الصواب ، الضر ، الطول ، الظلم ، الناب) ، وكما حدث في الكلمة العربية « شمس » ، إذ تحولت في بعض اللهجات العامية إلى « سمس » ؛ أو يتحول الثاني إلى نوع الصوت الأول كما حدث في *gamba, render* إذ تحولا إلى *gamma, renner*^(١) ؛ وكما حدث في الكلمة العربية « شمس » ، إذ تحولت في بعض لهجات الصعيد إلى « شمش » .

وأحياناً يمتزجان معاً ، فيتكون من امتزاجهما صوت ثالث به صفات من كليهما ؛ كما حدث في جميع الكلمات التي تجاور فيها صوتا *Y, L* ، إذ تحول هذان الصوتان في الفرنسية إلى صوت واحد يجمع بين صفتيهما وهو صوت *l, mouillé* . وأحياناً يتلاشى أحدهما في الآخر : فيبقى الثاني وحده ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *accapter* إذ تحولت في الفرنسية إلى *acheter* ؛ أو يبقى الأول وحده ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *cliave* إذ تحولت في الإيطالية إلى *chiave* (ينطق بها *Kyave*)^(٢) .

(ب) وإذا تجاور صوتان متحدان أو تقاربا فإنهما يتنافران أحياناً ، فينتهي بهما الأمر إلى واحد من النتائج الثلاث الآتية :

فتارة يتحول صوت أحدهما إلى صوت مغاير للآخر (ظاهرة التباين *dissimilation*)^(٣) . ويقع هذا على ضربين : فأحياناً يتحول أولهما كما حدث في *orphanius, peregrinum* إذ تحولا في الفرنسية إلى *orphelin* ، وأحياناً يتحول ثانيهما ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *cribrum* إذ تحولت في الفرنسية إلى *crible* ، وكما حدث لصوت اللام المشددة في اللاتينية

(١) تحول الصوت الأول إلى نوع الصوت الثاني هو الغالب في هذه الحالة : V. Dauzat : *La Vie du Langage* p.p. 57,79.

(٢) انقراض الأول وبقاء الثاني هو الغالب في هذه الحالة 57,78 V. Dauzat, op. cit.

(٣) استخدمنا كلمة *dissimilation* في معناها الواسع الذي يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ، لأنها لا تطلق في معناها الاصطلاحي الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

إذ تحول صوتها الثاني إلى ياء في معظم الكلمات الإسبانية (*castella* تحولت إلى *castilla* وينطق بها *castilya*)^(١).

وتارة يسقط أحدهما في النطق كما حدث في معظم الأصوات المشددة اللاتينية إذ تحولت في النطق الفرنسي والبروفنسى *Provençal* والإسباني إلى أصوات مخففة^(٢). وكما حدث في معظم الأصوات المشددة في العربية إذ تحولت في لهجات كثير من بلاد مديرية الشرقية إلى أصوات مخففة (فيقال مثلا : « كلمي ، أمها ، عمها ، من كل بد ») .

وتارة يتساقطان معا ويحل محلها صوت واحد غريب عنهما . كما حدث في صوتي اللام المشددة في اللاتينية ، إذ تحولوا في الجسكونية *Gascon* إلى تاء *t* في حالة وقوعهما في آخر الكلمة وإلى راء *r* في حالة وقوعهما بين حرفي لين (فالكلمتان اللاتينيتان *bellum, bella* تحولوا في الجسكونية إلى *bèt, bera*)^(٣).

٢ — التفاعل بين أصوات اللين .

وتجاور صوتي لين أو تقاربهما في الكلمة يجعلهما كذلك عرضة للتغير والانحراف .

فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فتسقط الأصوات التي تفصلهما ، ويتكون منهما صوت لين مركب *diphthong* كما حدث في الكلمة اللاتينية *regina* إذ تحولت في الفرنسية القديمة إلى *reine*^(٤) .

وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينهما صوت ساكن (أى غير لين) لتسهيل

(١) تحول الأول إلى صوت مغاير للثاني هو الغالب في هذه الحالة *V. Dauzat, op. cit. 57,79*

(٢) وهذا فيما عدا اللام المشددة *V. Dauzat, op. cit. 79* وتقول « في النطق » لأن معظمها لا يزال محتفظا بشكاه القديم في الرسم .

(٣) *V. Dauzat, op. cit, 79*

(٤) تحولت هذه في الفرنسية الحديثة إلى *reine* التي بنطق بها *rene* خضوعا لقانون « التناوب بين أصوات اللين » الذي سنتكلم عنه في صفحتي ٢٨١ ، ٢٨٢ .

النطق بهما كما حدث في الكلمة الفرنسية القديمة Poir إذ تحولت في الفرنسية الحديثة إلى Pouvoir .

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت لين آخر إذا كانا متحدين ، كما حدث في الكلمة اللاتينية vicinus إذ تحولت في لغة التخاطب عند الرومان إلى vecinus .

وتارة يخرج أحدهما عن فصيلته خروجا تاما ، فيتحول إلى صوت ساكن^(١) (ونعني به ما يقابل أصوات اللين) . كما حدث في الكلمة اللاتينية plattea إذ تحولت إلى platts^(٢) ، وكما حدث في بعض اللهجات العامية للمقاطعات الفرنسية (أوفرني وفورز ودوفيني Auvergne, Forez, Dauphiné) إذ تحولت فيها الكلمات التي من قبيل fialo, tialo إلى fsalo, tsala .

(٦) موقع الصوت الكلمة

وموقع الصوت في الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

١ - وأكثر ما يكون ذلك في الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات ، سواء أكانت أصوات لين أم أصواتا ساكنة (ونعني بالساكنة ما عدا أصوات اللين) .
(١) أما أصوات اللين فقد لوحظ أن وقوعها في آخر الكلمة يجعلها في الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدي أحيانا إلى تحولها إلى أصوات أخرى .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات اللين القصيرة (المسماة بالحركات وهي الفتحة والكسرة والضممة) التي تلحق أواخر الكلمات . ففي جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام ولبنان وفلسطين

(١) يتحول إلى ذلك في الغالب الصوت الأول منهما كما يظهر من الأمثلة التي سندكرها .

(٢) تحولت هذه في الفرنسية إلى place .

والحجاز واليمن والمغرب . . . الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها ، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن في هذه اللهجات بجميع السكليات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا «رجع عمر» للمدرسة بعد ما خف من عياه ، بدلا من «رجع عمر» إلى المدرسة بعد ما خف من إعيائه) . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث في اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع السكليات فانتقصها من أطرافها ، وجردتها من العلامات الدالة على وظائفها في الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب (١) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة في آخر السكليات . فقد تضاءلت هذه الأصوات في عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء في ذلك ما كان منها داخلاً في بنية الكلمة . (رمى ، يرمى . . . الخ) وما كان خارجاً عنها (ضربوا ، ناموا . . الخ) . فيقال مثلا في عامية المصريين : «رام وعيس ومصطف أب حسين سافروا يوم الخميس لرج ، بدلا من : «رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا ، (٢) .

وما حدث في اللغة العربية حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى . فعظم أصوات اللين المتطرفة في اللغة اللاتينية قد انقرضت في اللغات المنشعبة عنها (٣) . ففي الإسبانية سقطت من هذه الأصوات صوتان وهما *IE* (٤) ؛ وفي البروفنسية *provençal* والفرنسية القديمة لم يكدهم يبقى شيء منها (٥) . وبعض هذه الأصوات

-
- (١) يرجع السبب كذلك في هذه الظاهرة إلى العامل الذي أشرنا إليه في الفقرة الرابعة من هذا الفصل وهو الأخطاء السمعية التي تنشأ عن ضعف بعض الأصوات (أنظر ص ٢٧١) .
 - (٢) يرجع السبب كذلك في هذه الظاهرة إلى العامل المشار إليه في التعليق السابق .
 - (٣) يستثنى من ذلك الإيطالية فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .
 - (٤) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة بقي فيها أحد هذين الصوتين .
 - (٥) انقرضت جميعها في الواقع ما عدا صوت *a* الذي سيأتي الكلام عنه وما عدا بعض حالات شاذة .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

قد تحول إلى أصوات لين أخرى كما حدث لصوت « a » إذ تحول في الفرنسية

القديمة إلى « e » : (١) *canta, chante; lenta, lente; fava, fève*

(ب) ووقوع الصوت الساكن (ونعني به ما يقابل صوت اللين) في آخر

الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط .

فن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة

والهاء المتطرفتين (٢) . فقد انقرضت هذه الأصوات في معظم اللهجات العامية

المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنة بين العبارات العربية المدونة

في السطر الأول ونظائرها في عامية المصريين المدونة في السطر الثاني :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرتُه ساعة كاملة .

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد بيلعبُ ؛ الهواَ شديدٌ ؛ انتظرتُ ساعَ كاملَ .

ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التي يوقف عليها في عامية كثير

من المناطق المصرية كبعض مناطق بني سويف والشرقية ورشيد وغيرها ؛ فيقال

مثلا : « إنت يا ولَ » بدلا من « أنت يا ولد » ، « فين أخوك محمو » بدلا من « أين

أخوك محمود » ، « إديلُ خمساً رو » بدلا من « أدِّ له خمسة قروش » (٣) .

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى .

فمعظم الأصوات الساكنة المحتمتمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت في النطق الفرنسي

أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين .

أما الانقراض فلم يكد ينجو منه إلا القليل من أنواع هذه الأصوات

(١) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة . وقد حدث هذا التطور في المدة المحصورة بين نهاية القرن

الثامن وأوائل القرن الرابع عشر كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، انظر رقم ٤ بصفحة ٢٦١ ، وانظر

Dauzat, op. cit. 142

(٢) التاء المربوطة حكما في ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

ويرجع السبب كذلك في هذه الظاهرة الى العامل الذي أشرنا اليه في التعليق الأول في الصفحة السابقة .

(٣) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصيحة ، كالغة طيء ، وقد جرت عادة

المؤلفين من العرب بتسميته قطعة طيء (أي قطع اللفظ قبل تمامه) ؛ فكان يقال مثلا في لغتهم « يا أبا الحك »

بدلا من « يا أبا الحكم » . ولم يكن هذا مقصوراً لديهم على المنادي بل كان عاما في جميع الكلمات .

(plunbum تحولت في الفرنسية إلى plomb التي ينطق بها plon بدون صوت الباء الأخير ؛ cambus تحولت في الفرنسية إلى champ التي ينطق بها chan بدون صوت p الأخير...^(١) الخ . ومن ذلك أيضاً حذف علامة الجمع s في النطق الفرنسي ، وبذلك أصبح المفرد وجمعه المختتم بصوت s سيين في النطق ولا يختلفان إلا في الرسم) .

وأما تحولها إلى أصوات ساكنة ضعيفة فقد حدث في كثير من الكلمات المنتهية بأصوات مدوية sonores مثل أصوات v.d b. إذ تحولت في الفرنسية القديمة هذه الأصوات القوية إلى أصوات ضعيفة صامتة sourds مثل أصوات f.t.p. (navem, grandem تحولتا في الفرنسية القديمة إلى nef, grant) . وقد جرت عادة العلماء أن يطلقوا على هذه الظاهرة اسم « توهين الأصوات الساكنة الأخيرة، assourdissement des consonnes sonores finales »^(٢) .

وأما تحولها إلى أصوات لين فقد حدث على الأخص في حرف اللام المتطرفة (vocalisation de l final)^(٣) .

هذا ، وقد أحدث سقوط الأصوات اللينة والساكنة الواقعة في أواخر الألفاظ انقلاباً كبيراً في عالم اللغات . فقد كان من آثاره انقراض « طريقة الإعراب » في كثير من اللغات التي كانت تسير عليها كالعربية واللاتينية وما إليهما^(٤) .

٢ - ووقوع الصوت في وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

(١) V. Dauzat, op. cit. 75,76

(٢) حدث مثل ذلك أيضاً في الألمانية الحديثة إذ تحول فيها مثلا grob, tod إلى grop, tot أنظر

Dauzat op. cit. 75

(٣) حدث ذلك في الفرنسية وفي البروفنسية حوالي القرن الثاني عشر الميلادي V. Dauzat, op. cit. 75

(٤) « طريقة الإعراب » هي الطريقة التي تعتمد في بيان نوع الكلمة ووظيفتها في الجملة على ما يلحق آخرها من أصوات . ولا يزال لهذه الطريقة آثار كثيرة في بعض لغات التخاطب كالألمانية وما إليها .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة في وسط
الثلاثي . فقد تحولت إلى ألف لينة في عامية المصريين وغيرهم (فيقال : رأس ، فأس ،
قال ، ضاني . . . ، بدلا من : رأس ، فأس ، فال ، ضأن . . الخ) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين في وسط الكلمة
في مثل عين ويوم . فقد تحولتا في بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من
أصوات اللين : فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت è في اللغة الفرنسية (عين ،
خيل ، بين ، زينب . . . الخ) ؛ وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت ô الفرنسي
(يوم ، نوم ، فوز ، لوم . . الخ) .

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع في وسط كلمة ثلاثية في كثير من
لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل
العربية النازحة إلى مصر ، ولهجة العراق . . الخ) ؛ فيقال مثلا : اسم ، رسم ،
مصر ، جرن ، بدر ، فجل ، فججل . . الخ ، بدلا من اسم ، رسم ، مصر ،
جرن ، فجل ، فججل . . الخ (١) .

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل في اللغات الهندية - الأوربية .
فمن ذلك ما حدث بصدد صوت اللين القوي tonique الواقع قبيل آخر
الكلمة ، وخاصة إذا كان حراً voyelle libre أي متبوعاً بصوت ساكن واحد
أو بصوتين من إحدى المجموعات الآتية : br, cr, dr, tr . فقد تحول هذا الصوت
في معظم حالاته في اللغات اللاتينية والجرمانية واليونانية القديمة إلى صوت لين
مركب (diphtongue) . وأشد أصوات اللين اتجاهاً إلى هذا التحول صوتان
هما è, ô ؛ وأقل منهما ميلا إلى ذلك صوتا é, o ؛ وأقلها جميعاً ميلا إلى هذا التحول
صوتا u, i ، فإنه لم يكد يبدو فيهما هذا الميل إلا في اللغات الجرمانية (scinan
تحولت في الألمانية scheinen وينطق بها chaïnen ، وفي الإنجائزية إلى shine
وينطق بها shaine) (٢) .

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية .

(٢) ظهر هذا الميل كذلك في بعض اللهجات العامية الإيطالية V. Dauzat, op. cit. 70

ومن ذلك ما حدث للصوت الساكن الواقع بين صوتي لين . فوقعه هذا قد أدى به أحياناً إلى السقوط وأحياناً إلى الانحراف عن مخرجه الأصلي والتحول إلى صوت آخر . فصوت الباء b قد تحول في لغة التخاطب اللاتينية إلى صوت v (faba تحولت إلى fava) .^(١) وصوت السين s قد تحول في اللاتينية إلى راء r (arboris تحول إلى arboris) . وصوت الدال d في الكلمات اللاتينية قد تحول إلى ذال z في البروفنسية^(٢) وسقط في الفرنسية والإسبانية :

latin : videre ; provençal : vezer ; français : veoir , voir ;

espagnol : veer , ver . وصوتا اللام والنون n, l الواقعان بين صوتي لين قد سقطا في

اللغة البرتغالية في العصور الوسطى (p o p u l u s تحول إلى povo ; rationem ;

تحول إلى razoe ... الخ) . والأصوات الصامتة : consonnes sourdes :

(p . t . k . . . etc.) الواقعة بين صوتي لين قد تحولت في اللاتينية الحديثة حوالى

القرن السادس إلى أصوات مدوية consonnes sonores قريبة منها

(b . d . g . . . etc.) . وإلى هذا الحد وقف تطور هذا النوع في الإسبانية

والبروفنسية . أما في الفرنسية الحديثة فقد حدث تحول آخر ، إذ انقلب صوت

الباء b إلى v وسقط صوتا الدال والجيم d . g . كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية^(٣) :

latin : ripa, amata, securus.

esp. et prov. : ribera (riba), amada, segur (o)

français : rive, aimée ; sûr

٣ - ووقوع الصوت في أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف . فن

ذلك ما حدث في بعض المفردات العربية المفتحة بالهمزة ، إذ تحولت همزتها

في بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو (د أذن ، تحولت في عامية المصريين إلى

« ودن » ، و « أين » تحولت إلى « فين » ، أو إلى « وين » في عامية القبائل العربية

النازحة إلى مصر وفي عامية العراق والحجاز ؛ و « أدّى » تحولت في بعض المواضع

(١) لم يشذ عن ذلك الا عدد يسير من الكلمات .

(٢) كان ينطق بصوت z في البروفنسية كما ينطق بالذال العربية (th في الانجليزية) .

(٣) انظر في هذا الموضوع . 74,75. Dauzat, op. cit.

في عامية المصريين إلى « وِدَى » ، فيقال مثلاً « وِدَّاه المدرسة » بمعنى « أدى به إلى المدرسة » أي أوصله إليها (١) .

٤ — وقد تتبادل الأصوات مواقعها في الكلمة ويحل بعضها محل بعض ، فيتقدم المتأخر منها ويتأخر السابق . وتسمى هذه الظاهرة « بالنقل المسكاني ، (Métathèse) كما حدث في abeuver, berbis إذ تحولت إلى abreuver, brebis ؛ وكما حدث في الكلمة العربية « أرانب » ، إذ تحولت في عامية القاهرة وغيرها إلى « أنارب » .

(٧) تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض

وفيما عدا الحالات السابقة قد لوحظ أن الأصوات المتحددة النوع تتناوب ويحل بعضها محل بعض . وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة بهذا الصدد بعضها خاص بأصوات اللين وبعضها يتعلق بالأصوات الساكنة .

١ — أما تناوب أصوات اللين فلم تسكد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية . ففي اللغة العربية حدث تناوب واسع النطاق بين أصوات اللين القصيرة (التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) . ويمثل هذا التناوب انقلاباً من أهم الانقلابات التي اعتورت هذه اللغة . فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات وانقلبت أشكالها رأساً على عقب ، حتى لا نكاد نجد في اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربي القديم . فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحياناً والكسرة في كثير من الأحوال (فبدلاً من : يَعموم يَستجد ، يَسمع ، عَثر ، خَلس ، سَكَت ، كَسِير ، أَلِكْتَاب ، ... الخ ، يقال في عامية المصريين : يُعموم ، يُستجد ، يسمع ، عِتر)

(١) ليس هذا مقصوداً على اللغات العامية، بل يوجد له نظير في بعض اللهجات العربية النصحى ففي لغة أهل اليمن تبدل الهمزة واواً في مثل « آتيته » ، فيقال مثلاً واتيته علي الأمر موأناة وهي المشهورة على ألسنة الناس .

أَوْعُتْرُ ، خَلِص ، أَوْخُلِص ، سَكِتْ أَوْسُكُتْ ، كَبِير ، إِسْكَتَاب . . . الخ) ،
والكسرة قد استبدل بها الضمة أحياناً والفتحة في كثير من الأحوال (فبدلاً من :
يَلِطُم ، يَضْرِب ، يَسْرِق ، عِنْد . . . الخ ؛ يقال في عامية المصريين : يَلِطُم
يَضْرَب ، يَسْرَأ ، عِنْد . . . الخ) . - والضمة قد استبدل بها الفتحة أحياناً
والكسرة في معظم الحالات (فبدلاً من : مُحَمَّد ، تُعْبَان ، أُتِي ، عُمَّة ، يَقْتُل
يَذُم ، ظُنْفَر . . . الخ ؛ يقال في عامية المصريين : مَحْمَد ، تَعْبَان ، إْتَيَاة ، عِتَّة ،
يَتَل ، يَزِم ، صِفْر ، . . . الخ) .

وحدث كذلك تناسخ في أصوات اللين الطويلة نفسها ، وخاصة في الألف اللينة
إذ أميلت في لغات بعض القبائل العربية القديمة ، وتمال الآن في كثير من لهجات
المغاربة وفي لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي بعض اللهجات في بلاد الشرقية .
وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الأوربية .

فمن ذلك تحول أصوات اللين المركبة diphtongue إلى أصوات لين بسيطة
في كثير من هذه اللغات . فاللغة الفرنسية مثلاً قد تحول في نطقها معظم أصوات
اللين المركبة إلى أصوات لين بسيطة ؛ وإن كانت لا تزال ترسم حسب حالتها
القديمة (ai, ei, au, eau, eu...etc) ؛ وعلى هذه الظاهرة يقع قسط كبير من
التبعية في صعوبة الرسم الفرنسي وعدم مطابقته للنطق (١) . - وما حدث في اللغة
الفرنسية بهذا الصدد حدث مثله في سائر اللغات الأوربية وخاصة الإسبانية
والإيطالية والألمانية والإنجليزية (٢) .

ومن ذلك أيضاً تحول صوت a إلى صوت i في عدد كبير من مفردات اللغة
اليونانية وفي بعض مواطن في اللغتين السلتيّة والفرنسية . وقد لوحظ أن هذا
التحول يتم بالتدريج ، فينحرف صوت a إلى صوت آخر قريب منه ، وهذا إلى
ثالث . . . وهكذا حتى يصل إلى i ؛ ولوحظ كذلك أنه يقطع لهذه الغاية أحد

(١) V. Daunzat, op. cit. 64, 65.

(٢) V. Dauzat, op. cit. 63, 64.

طريقين : طريق قصير وهو a, è, é, i, وطريق طويل وهو a, o, ô, ou, u, i . ولم يحدث مطلقاً أن قطع في تطوره سبيلاً آخر غير هذين الطريقين ، أو تخلى مرحلة من المراحل المرسومة في كليهما ، أو غيّر شيئاً في ترتيبها السابق بيانه .

٢- وأما تناسخ الأصوات الساكنة فقد حدث كذ في جميع اللغات الإنسانية . فكثير من الأصوات الساكنة في اللغة العربية قد تناسخت في اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض . فالسين قد تحولت إلى صاد في بعض المواطن (« ساخن » تحول إلى « صاخن » في عامية الشرقية وغيرها) ؛ والصاد إلى سين في كثير من الألفاظ في عامية القاهرة وغيرها (فبدلاً من يصدق ، مصير . . . الخ ، يقال : يسَدِّق ، مسير) ؛ والضاد إلى ظاء في عامية المغرب وخاصة طرابلس ، وفي لهجة العراق ، وفي لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر ^(١) (فبدلاً من : وضوء ، يضيع ، يضرب ، يضم . . . الخ ، يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يضم . . . الخ) ؛ والعين إلى نون في بعض الكلمات في لهجة العراقيين (فيقال مثلاً : « ينطى » بدلاً من « يعطى ») ^(٢) ؛ واللام إلى ميم في بعض الكلمات في عامية القاهرة (« امبارح » بدلاً من « البارحة ») ^(٣) ؛ والميم إلى نون أحياناً في عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلاً من « فاطمة ») . . . وهلم جرا .

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حصل مثله في اللغات الهندية-الأوربية . فمن ذلك تحول صوت w في اللغة اللاتينية (وكان ينطق به كما ينطق به الآن في الإنجليزية ، وكما ينطق بالواو في العربية) إلى صوت v . فقد أخذ الصوت الأول ، منذ مبدأ العصور الوسطى ، يدنو شيئاً فشيئاً من الصوت الأخير حتى استبدل به في كثير من الكلمات في معظم اللغات المنشعبة عن اللاتينية ^(٤) .

(١) نعتي بها القبائل الحاضرة التي تسكن في مختلف مديريات مصر وخاصة الفيوم وبني سويف والمنيا والبحيرة والشرقية والقليوبية (الفوايد ، الرماح ، الحرابي ، أولاد علي ، خويلد ، الضعفاء سمالوس . . . الخ) .

(٢) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء ، وهذه كذلك هي لهجة هذيل .

(٣) هذه كذلك لغة حمير ، وقد جاء بها الحديث « ليس من امبر أمصيام في امسفر » .

(٤) V. Dauzat, op. cit. ٤5,66. (٤)

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في صوت k المتبوع بصوت a في الكلمات اللاتينية . فقد تحول في اللغة الفرنسية في معظم مواطنه إلى (canem, caballum) ch تحولا في الفرنسية إلى (chien, cheval) (١) .
ومن ذلك أيضاً ما حدث في اللغات الجرمانية من تناوب بين المجموعات الثلاثة الآتية من الأصوات : f, th, kh . p, t, k . b, d, g . فإن كل صوت من أصوات المجموعة الأولى قد تحول إلى ما يقابله في الترتيب من أصوات المجموعة الثانية ؛ وأصوات المجموعة الثانية تحولت بهذا النظام إلى أصوات الثالثة ؛ وأصوات الثالثة إلى أصوات الأولى . فبالموازنة بين الكلمات الجرمانية وأصولها في اللغات الهندية — الأوربية القديمة ونظائرهما في اللاتينية والإغريقية يظهر أن الأصوات الآتية المدونة في السطر الأول قد تحولت في اللغات الجرمانية إلى الأصوات المدونة تحتها في السطر الثاني :

b, d, g	p, t, k	f (ph) th kh
p, t, k	f (ph) th kh (gh)	b d g

كما يظهر ذلك في الأمثلة الآتية :

(Sanscrit)	(Latin)	(Anglais)
pitar	pater	father
	frater	brother
	dentis	touth
	genu	knee
	pedis	fout

وقد حدث في بعض اللغات الجرمانية في العصور الوسطى تطور ثان في الأصوات الجديدة التي نجمت عن التطور الأول ، فتحولت هذه الأصوات نفسها إلى ما يقابلها في الجدول السابق . وحدث في اللغة الألمانية في العصور الحديثة تطور ثالث في الأصوات التي جاء بها التطور الثاني وفقاً للخطة نفسها المرسومة

أنفا ؛ وقد أدى ذلك إلى رجوع بعض هذه الأصوات إلى الأصل القديم الذي كانت عليه قبل التطور الأول. فالتاء مثلا t في كلمة frater قد تحولت إلى ذال th فأصبحت bruther ؛ ثم تحولت هذه الذال إلى دال d فأصبحت bruder ؛ وهذه الدال قد تحولت في الألمانية الحديثة إلى تاء فأصبحت bruter ؛ وبذلك عاد هذا الصوت بعد هذه التطورات الثلاثة إلى الأصل القديم الذي كان عليه قبل التطور الأول. وهذا هو ما أستخدم علماء اللغة من الألمان على تسميته « بالدورة الثلاثية » (١).



تأثير التاء في اللغة الألمانية (١)

وإنما تأثير التاء في اللغة الألمانية هو ما يلي :
 (١) في اللغة الألمانية القديمة كان التاء يفتقد في كثير من الأحيان ، فالكلمة الألمانية القديمة "bruder" كانت تكتب "bruder" ، ثم تحولت إلى "bruther" ، ثم إلى "bruder" ، وهكذا دواليك ، وهذا هو ما نسميه بالدورة الثلاثية .
 (٢) في اللغة الألمانية الحديثة ، فإن التاء قد تحولت إلى دال ، فالكلمة الألمانية الحديثة "bruder" كانت تكتب "bruder" ، ثم تحولت إلى "bruther" ، ثم إلى "bruder" ، وهكذا دواليك ، وهذا هو ما نسميه بالدورة الثلاثية .
 (٣) في اللغة الألمانية الحديثة ، فإن التاء قد تحولت إلى تاء ، فالكلمة الألمانية الحديثة "bruder" كانت تكتب "bruder" ، ثم تحولت إلى "bruther" ، ثم إلى "bruder" ، وهكذا دواليك ، وهذا هو ما نسميه بالدورة الثلاثية .

v. Dauzat, OP. cit. 66-69 (١)

الفصل السادس

الدلالة و تطورها

La Sémantique

ذكرنا في فاتحة الفصل السابق أن أهم ظواهر اللغة ترجع إلى ناحيتين رئيسيتين وهما الظواهر المتعلقة بالصوت والظواهر المتعلقة بالدلالة، وأن كلتا الناحيتين في تطور مطرد وتغير مستمر، وأنها في تطورها وتغيرها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين.

وقد فرغنا في الفصل السابق من دراسة الناحية الأولى، وهي المتعلقة بالصوت وتطوره، وسنقف هذا الفصل على دراسة الناحية الثانية وهي المتعلقة بالدلالة.

(١) أنواع التطور الدلالي

ترجع أهم ظواهر التطور الدلالي إلى ثلاثة أنواع:

(أحدها) تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة... وما إلى ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف (المورفولوجيا) والتنظيم (السينتاكس)... وهلم جرا. وذلك كما حدث في اللغات العامية المنشعبة من اللغة العربية، إذ تجردت من علامات الإعراب^(١) وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق^(٢) واختلفت مناهج تركيب العبارات^(٣).

(١) يوقف في جميع هذه اللهجات بالسكون على جميع الكلمات المعربة بالحركات، وتلتزم حالة واحدة في الكلمات المعربة بالحروف (المتني، جمع المذكر السالم، الأسماء الخمسة... الخ فيقال مثلاً أخوك مجتهد، ضربت أخوك، سلم على أخوك...). فوظيفة الكلمة في العبارة لا تفهم في لغاتنا العامية إلا من مجرد السياق أو من ترتيبها بالنسبة لبقية عناصر الجملة.

(٢) تغيرت وجوه التصريف العربية تغيراً كبيراً في اللغات العامية، حتى لا تكاد تعثر فيها على فعل باق على حالته العربية الصحيحة من هذه الناحية.

(٣) فن ذلك مثلاً نعت المتني بصيغة الجمع وتأخر الإشارة في تركيب الجملة عن المشار إليه...

وهلم جرا.

(وثانيتها) تطور يلحق الأساليب ، كما حدث في لغات المحادثة العامية المنشعبة عن العربية ، إذ اختلفت أساليبها اختلافاً كبيراً عن الأساليب العربية الأولى ، وكما حدث للغة الكتابة في عصرنا الحاضر إذ تميزت أساليبها عن أساليب الكتابة القديمة تحت تأثير الترجمة والاحتكاك بالأدب الأجنبية ورقى التفكير وزيادة الحاجة إلى الدقة في التعبير عن حقائق العلوم والفلسفة والاجتماع . . . وهلم جراً .
(وثالثها) تطور يلحق معنى الكلمة نفسه ، كأن يخص معناها العام ، فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل ، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلي ومعاني أخرى تشترك معه في بعض الصفات ، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما ، وتصبح حقيقة في هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازاً فيه ، أو تستعمل في معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول . . . وهلم جراً .

(٢) خواص التطور الدلالي ومناهجه

للتطور الدلالي بمختلف أنواعه خواص كثيرة تشبه في جملتها خواص التطور الصوتي التي أشرنا إليها في الفصل السابق^(١) . ومن أهم هذه الخواص ما يلي :

١ - أنه يسير ببطء وتدرج . فتغير مدلول الكلمة مثلاً ، لا يتم بشكل فجائي سريع ؛ بل يستغرق وقتاً طويلاً ، ويحدث عادة في صورة تدريجية ، فينتقل إلى معنى آخر قريب منه ، وهذا إلى ثالث متصل به . . . وهكذا دواليك ، حتى تصل الكلمة أحياناً إلى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول . فكلمة bureau مثلاً كانت تطلق في المبدأ على صنف خاص من الأقمشة (Étoffe de bure) ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لاتخاذها غالباً من هذا الصنف ، ثم أطلقت على مائدة المكتب نفسها ، ثم أطلقت على مقر العمل والإدارة لملازمة المكتب لها . فلا علاقة مطلقاً بين أول مدلول هذه الكلمة وهو القماش الصوتي وآخر مدلول

(١) أنظر صفحات ٢٦٠ - ٢٦٢ .

لها وهو مقر العمل والإدارة؛ على حين أن العلاقة وثيقة بين كل معنى من المعاني التي اجتازتها والمعنى السابق له (١).
٢ - أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية؛ فسقوط علامات الإعراب في اللهجات العربية الحاضرة، وتغير أوزان الأفعال (٢) وتأنيث بعض الكلمات المذكرة وتذكير بعض الكلمات المؤنثة (٣)، وجمع صفة المثنى (٤)، وتأخر الإشارة عن المشار إليه (٥)، وتزحزح كثير من المفردات عن مدلولاتها الأولى إلى معان جديدة... كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه في صورة آلية لا دخل فيها للتواضع أو إرادة المتكلمين.

٣ - أنه جبرى الظواهر، لأنه يخضع في سيره لقوانين صارمة لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها، أو تغيير ما تؤدي إليه. وإليك مثلا حالة اللغة العربية. فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها في القواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التي تتفق مع قوانين التطور اللغوي، فأصبحت على الحالة التي هي عليها الآن في اللهجات العامية.

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد إلى الكشف عن جميع القوانين التي يسير عليها التطور الدلالي؛ وما كشفوه منها لم يصل بعد في دقته وضبطه وعمومه إلى

(١) هذه الخاصة صحيحة في تطور معاني الكلمات وتطور الأساليب. أما تطور القواعد فكثيرا ما يحدث بدون تدرج.

(٢) فيقال مثلا في عامية بعض المناطق المصرية «كبر (بكسر الكاف والباء) يكبر (بكسر الياء وفتح الباء)» بدلا من «كبر يكبر» (من باب تعب) أو «كبر يكبر» (من باب شرف). ومثل هذا يقال في معظم الأفعال.

(٣) فيقال مثلا في عامية بعض المناطق المصرية: رأس كبيرة وبطن كبيرة، بدلا من رأس كبير وبطن كبير.

(٤) فيقال مثلا في عامية المصريين: «كتابين كبار» بدلا من: «كتابان كبيران».

(٥) فيقال مثلا في عامية المصريين «الكتاب ده» و«الكتابين دول» بدلا من «هذا الكتاب» و«هذان الكتابان».

الكتاب» و«هذان الكتابان».

مستوى القوانين المتعلقة بالتطور الصوتي ؛ كما أشرنا إلى ذلك وإلى أسبابه في مقدمة هذا الكتاب^(١) .

٤ - أن الحالة التي تنتقل إليها الدلالة ترتبط غالباً بالحالة التي انتقلت منها بإحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعي المعاني^(٢) ونعني بهما علاقتي المجاورة والمشابهة^(٣) . فتارة يعتمد انتقال الدلالة على علاقة المجاورة المكانية ، كتحويل معنى « ظعينة » (معناها في الأصل المرأة في الهودج) إلى معنى الهودج نفسه وإلى معنى البعير^(٤) ، وتحويل معنى « ذقن » في عامية المصريين إلى معنى اللحية^(٥) ، وتحويل معنى bureau من غطاء المكتب إلى المكتب نفسه ، وكتأنيث الرأس في عامية بعض المناطق المصرية (انتقل إليه التأنيث من الأعضاء المؤنثة المجاورة له وهي العين والأذن) وهلم جرا . - وتارة يعتمد على علاقة المجاورة الزمنية ، كتحويل معنى الحقيقة (هي في الأصل الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه) إلى معنى الذبيحة التي تنحر عند حلق ذلك الشعر^(٦) ؛ وكتذكير كلمة été (فصل الصيف) التي كانت مؤنثة في الأصل لمجاورة مدلولها مجاورة زمنية لمدلول كلمة مذكرة وهي printemps فصل الربيع^(٧) . - وتارة يعتمد على علاقة المشابهة ، كتحويل معنى

(١) أنظر صفحتي ٢٠ ، ٢١ .

(٢) من المقرر في علم النفس أن حضور معنى يدعو إلى الذاكرة بعض المعاني المرتبطة معه بعلاقة المجاورة أو المشابهة .

(٣) هذا هو تفصيل ما يقصده علماء اللغة إذ يقررون أن تطور الدلالة خاضع لقانون التماثل
Loi del'analogie.

(٤) المزهرة للسيوطي الجزء الأول ٢٠٧ .

(٥) الذقن في الأصل هو مجمع عظمي الحنك ، ولا يخفى أن هذا الموضع مجاور للشعر النابت في الوجه .

(٦) المزهرة للسيوطي ج ١ ص ٢٠٧ .

(٧) كانت الفصول في الفرنسية القديمة من حيث التذكير والتأنيث على النحو التالي : الربيع (مذكر) ، الصيف (مؤنث) ، الخريف (مذكر) ، الشتاء (مذكر) . ثم انتقل تأنيث الصيف إلى الخريف ، وانتقل فيما بعد تأنيث الخريف إلى الشتاء ، فأصبحت الفصول جميعها مؤنثة ما عدا الربيع . ولكن تذكير الربيع لم يلبث أن انتقل فيما بعد إلى الصيف ، وتذكير الصيف رد إلى الخريف والشتاء نوعهما المذكور القديم ، فأصبحت جميع الفصول مذكرة في الفرنسية الحالية

V. Dauzat op. cit. 106

« الأفسن » (وهو في الأصل قلة لبن الناقة) إلى معنى قلة العقل والسفه ؛ وتحول معنى « المجد » (وهو في الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف) إلى معنى الامتلاء بالسكرم وهلم جراً (١) .

٥ - أن النطور الدلالي في غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص . ولا نكاد نعثر على تطور دلالي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة ووقت واحد .

٦ - أنه إذا حدث في بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة . فسقوط علامات الإعراب في لغة المحادثة المصرية مثلا لم يفلت من أثره أى فرد من المصريين .

* * *

ومن هذه الخواص يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصدد هذا التطور . فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذا التطور يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة (٢) .

وليس بصحيح ما ذهب إليه أعضاء المدرسة الإنجليزية وبعض الباحثين من الفرنسيين كالعلامة بريال Bréal ، إذ يرون أن التطور الدلالي يسير باللغة نحو التهذيب والكمال ويسد ما بها من نقص ويخلصها مما لا تدعو إليه الحاجة (٣) . وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا في تطور اختياري مقصود تقوده

(١) قد يعتمد انتقال الدلالة من حالة إلى حالة على علاقة التضاد بين الحالتين (إطلاق الكلمة مثلا على ضد مدلوها القديم) . والتضاد في الواقع مظهر من مظاهر التشابه ، إذ لا يوجد تضاد إلا بين شيئين يشتركان في صفة عامة كالطويل والقصير والأسود والأبيض . أما الأمران اللذان لا يشتركان في صفة ما فلا يوجد بينهما تضاد كالأحمر والطويل مثلا . (أنظر كلمة عن التضاد في اللغة العربية بكتابتنا « فقه اللغة » الطبعة الثانية صفحات ١٦٠ - ١٦٥) .

(٢) قال بهذا المذهب الفاسد جماعة من العلماء على رأسهم سايس وسويت وجيسبرسن ونارد Sayce, Sweet, Jespersen, Trade.

(٣) انظر صفحتي ٥٢ ، ٥٣ ، وأول ٥٤ ، وانظر كذلك ٩٩ ، ١٠٠ Dautat, op. cit.

الإدارة الإنسانية في سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الذي نحن بصده
تطور تلقائي آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد في اتجاهه
بالسبل التي تقول بها هذه النظرية .

وإن موازنة بين الحالة التي كانت عليها اللغة العربية فيما يتعاق بدلالة ألفاظها
وقواعدها في الإعراب وغيره ، وما آلت إليه في اللغات العامية الحاضرة لأكثر
دليل على ما نقول . فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه دائماً نحو التهذيب والكمال ،
بل أدى في معظم مظاهره إلى اللبس في دلالة الكلمات والخلط بين وظائفها وأنواعها ،
وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها إلى منزلة وضيعة في التعبير . وما
حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات . وإليك مثلاً
قواعد اللغة اللاتينية التي انقرضت في اللغات المنشعبة عنها . فإن معظم هذه القواعد
كبير الفائدة في بيان وظيفة الكلمات وتحديد مدلولاتها وتعيين العلاقات التي تربط
عناصر العبارة بعضها ببعض ، وقد أدى انقراض هذه القواعد في اللهجات المنشعبة
عن اللاتينية إلى كثير من اللبس والاضطراب .

حقاً إن هذه المذاهب تصدق على بعض مظاهر التطور الدلالي الخاص بلغات
الكتابة . فتطور لغات الكتابة يعتمد في كثير من نواحيه على عوامل أدبية
مقصودة ترمي إلى تنقيح اللغة وتهذيبها والسير بها في سبيل الكمال ، كما أشرنا إلى
ذلك في الفقرة الرابعة من الفصل الرابع^(١) .

(٣) عوامل التطور الدلالي

عرضنا في الفصول السابقة لطائفة كبيرة من عوامل التطور في القواعد
والأساليب ، وأشرنا في شيء من التفصيل إلى مختلف آثارها في كثير من اللغات
الإنسانية^(٢) ، ولكن لم يتح لنا فيما سبق أن نوفي البحث في عوامل النوع الثالث

(١) انظر على الأخص صفحات ٢٥٤-٢٥٩ .

(٢) انظر على الأخص صفحات ٢٢٣-٢٤٣ ، ٢٥٤-٢٥٩ ، ٢٧٥-٢٨٥ .

من أنواع التطور الدلالي ، وهو التطور في معاني الكلمات ؛ ولذلك سنقتصر عليها
دراستنا في هذه الفقرة .

* * *

لهذا النوع من التطور عوامل كثيرة من أهمها الطوائف الآتية :
١ - عوامل تتعلق باستخدام الكلمات ؛ فدلول الكلمة يتغير تبعاً للحالات
التي يكثر فيها استخدامها .

فكثرة استخدام العام مثلاً في بعض ما يدل عليه يزيل مع تقادم العهد عموم
معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله . ولدينا في اللغة العربية
وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع . فمن ذلك جميع المفردات التي كانت عامة
المدلول ثم شاع استعمالها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر
أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع
والسجود . . . وهلم جرا . فالصلاة مثلاً معناها في الأصل الدعاء (١) ، ثم شاع
استعمالها في الإسلام في العبادة المعروفة لاشتغالها على مظهر من مظاهر الدعاء ،
حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى ؛ والحج معناها في الأصل
قصد الشيء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله في قصد البيت الحرام ، حتى أصبح
مدلوله الحقيقي مقصوراً على هذه الشعيرة . . . وقس على ذلك جميع أفراد هذه
الطائفة . ومن ذلك أيضاً كلمة « الرث » فقد كانت تطلق على الخسيس من كل
شيء ، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استعمالها
في هاتين الطائفتين ؛ وكلمة « المدام » فهي في الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع
استعمالها في الخمر لدوامها في الدن ، أو لأنه يغلي عليها حتى تسكن ، فأصبحت
لا تنصرف إلى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم

(١) وقد جاء على الأصل قوله تعالى « وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » .

العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلاً في اللغة العربية كلمات :
البأس والورد والرائد والنجعة والحوة . . . وهلم جرا ؛ فالبأس في الأصل الحرب ،
ثم كثر استخدامه في كل شدة ، فاكسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأصل
الورد إتيان الماء وحده ثم صار إتيان كل شيء ورداً ، لكثرة استخدامه في هذا
المعنى العام ؛ والرائد في الأصل طالب الكلاء ثم صار طالب كل حاجة رائداً ؛
والنجعة في الأصل طلب الغيث ثم عممت في الاستخدام فأصبح كل طلب انتجاعاً ؛
والحوة في الأصل شية من شيات الخيل ، وهي بين الدهمة والسكمتة ، ثم توسع
في استعمالها حتى صار كل أسود أحوى ، فيقال ليل أحوى ، وشعر أحوى . ومن
ذلك في اللغة الفرنسية كلمة salaire : فقد كان معناها في الأصل - كما تدل على
ذلك بنيتها - ما يصرف للجندي من نقود في نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ،
ثم شاع استعمالها في كل أجرة حتى نسي معناها الأصلي ؛ وكلمة arriver : فقد كانت
تدل في الأصل - كما تشير إلى ذلك بنيتها - على الوصول إلى الشاطئ ، ثم شاع
استعمالها في كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي تؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي
وحلول هذا المعنى المجازي محله . فمن ذلك مثلاً في اللغة العربية كلمات المجد والأفن
والوغى والغفران والعقيقة . . . وهلم جرا . فالمجد معناها في الأصل امتلاء بطن
الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازاً في الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه
الأصلي وأصبح حقيقة في هذا المعنى المجازي ؛ ولهذا السبب نفسه انتقل معنى «الأفن»
من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى «الوغى» من اختلاط الأصوات
في الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى «الغفر» و «الغفران» من الستر إلى الصفح
عن الذنوب ؛ ومعنى «العقيقة» من الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه إلى
ما يذبح عند حلق ذلك الشعر .

وكثرة استخدام الكلمة في العبارات المنفية ينزع عنها معناها الأصلي ويكسبها
معنى العموم والإطلاق ، فتصبح أشبه شيء بأداة من أدوات النفي : فمن ذلك في

العربية كلمات أحد وديار وقط وأبدا . . . وما إليها ؛ وفي الفرنسية كلمات
Pas, rien, Personne . . . etc.

واستخدام الكلمة في فن بمعنى خاص مجردها في هذا الفن من معناها اللغوي
ويقتصرها على مدلولها الاصطلاحي . ويدخل في هذا مصطلحات الآداب والفلسفة
والقانون والاجتماع والعلوم والفنون . . . وما إلى ذلك . ومن ثم نرى أن الكلمة
الواحدة تستعمل في الشعر بمعنى ، وفي الرسائل بمعنى آخر ، وفي السياسة بمعنى ثالث ،
وفي القانون بمعنى رابع ، وفي الفنون الحربية بمعنى خامس ، وفي الطبيعة بمعنى
سادس ، وفي الطب بمعنى سابع . . . وهلم جرا . وقد عرضنا لهذا الموضوع بشيء
من التفصيل في الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب (١) .

٢ — عوامل تتعلق بمبلغ وضوح الكلمة في الذهن . فكلما كان مدلول الكلمة
واضحاً في الأذهان قل تعرضه للتغير ؛ وكلما كان مبهماً غامضاً مرناً أكثر ثقله
وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف . ويساعد على وضوح مدلول الكلمة عوامل
كثيرة من أهمها أن تكون مرتبطة بفصيحة من الكلمات معروفة الأصل ،
ويعمل على إبهامها عوامل كثيرة من أهمها أن لا تكون لها أسرة معروفة
الأصل متداولة الاستعمال .

٣ — عوامل تتعلق بأصوات الكلمة . فثبات أصوات الكلمة يساعد على
ثبات معناها ، وتغيرها يذلل أحياناً السبيل إلى تغيره . وذلك أن صلتها بالأسرة
التي تنتمي إليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة في الذهن ما دامت
محتفظة بصورتها الصوتية ، وقوة هذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها . على حين
أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها في الأذهان بأصلها وأسرتها ويبعدها عنهما ،
وهذا يجعل معناها عرضة للتغير والانحراف . فالوصف اللاتيني vivus مثلا ظل
محتفظاً بمعناه الأصلي (الحى ، ضد الميت) طوال المدة التي احتفظ فيها بأصوات
بنية ، وذلك لقوة ارتباطه عن طريق هذه البنية بأفراد أسرته vivere, vita... etc

(١) أنظر على الأخص صفحات ١٧١ — ١٧٣ .

ولسكنه لم يلبت ، بعد أن تغيرت صورته الصوتية في الفرنسية إلى *vif* أن أخذ ينحرف شيئاً فشيئاً عن مدلوله القديم حتى بعد عنه وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط . وذلك لأن تغير صورته الصوتية قد باعد ما بينه وبين أفراد أسرته (*vivre, vivant..etc*) ، فعرض مدلوله لهذا الانحراف . ومن هذا القبيل كذلك كلمة *sage* ؛ فإن انحراف صورتها الصوتية إلى هذا الوضع قد عزها عن أفراد فصيلتها (*savoir, savant*) وعرض مدلولها للتغير ، فانحرف من معنى العالم إلى معنى الهادئ المطيع .

٤ — عوامل تتعلق بالقواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى تغير مدلول الكلمة ، وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكير كلمة « ولد » ، مثلاً في العربية (ولد صغير) قد جعل معناها يرتبط في الذهن بالذكر ، ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع حتى أصبحت لا تطلق في كثير من اللهجات العامة إلا على الولد من الذكور . وكذلك كلمة *homo* في اللاتينية . فقد كانت تطلق في الأصل على الإنسان رجلاً كان أم امرأة ؛ واسكن تذكيرها ربط مدلولها في الذهن بنوع الذكور ، فأخذ يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع حتى أصبحت في كثير من اللغات المتشعبة عن اللاتينية لا تطلق إلا على الرجال .

٥ — عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف . فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تغير في معاني المفردات . وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق . ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز . فقد يكثر استخدام الكلمة مثلاً في جيل ما في بعض ما تدل عليه ، أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلية بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد . وإليك مثلاً كلمة *saoul* الفرنسية ، فقد كان معناها في الأصل « الشبعان » من الطعام ؛ ثم كثرت استخدامها في عصر ما في النشوان من الخمر عن طريق المجاز والتهمك وللتحرج من استخدام

السكلمة الصريحة في هذا المعنى وهي ivre. فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار في هذا الجيل ، وتحول إليه مدلول هذه السكلمة فأصبحت صريحة فيه (١) وانقرض معناها القديم .

وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب في تحول السكلمات إلى معان كانت مجازية في الأصل وفيما يعترى المدلولات في نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء على رأسها العلامة هرزوج herzog قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور في الدلالة (٢) .

٦ — وكثيراً ما يتغير مدلول السكلمة على أثر انتقالها من لغة إلى لغة . فقد يخصص مدلولها العام وتقتصر على بعض ما كانت تدل عليه في لغتها الأصلية ، وقد يعمم مدلولها الخاص ، وقد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ، وقد تنحط إلى درجة وضيعة في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك وإلى أسبابه وأمثله في الفصول السابقة (٣) .

٧ — وقد يكون العامل في تغير معنى السكلمة أن الشيء نفسه الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشؤون الاجتماعية المتصلة به . . . وما إلى ذلك . فكلمة « الريشة » مثلا (plume) كانت تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة من المعدن مشكلة في صورة خاصة . والقطار كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر ، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات ، فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . و « البريد »

(١) لا تقل الآن كلمة saoul عن كلمة ivre في صراحتها في التعبير عن النشوان ، ان لم يزد عنها في ذلك .

(٢) V. Meillet, dans « L' Année Sociologique » T.9, p.p. 6, 7 ; et Herzog: der Romanischen Philologie.

(٣) انظر آخر صفحة ٢١٣ وصفحات ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ .

كان يطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل ، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل ، فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر . و « بنى الرجل بامرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوي كان إذا تزوج يبني له ولاهله خباء جديداً ؛ ولا تزال تستخدم هذه العبارة كناية عن المعنى نفسه مع أن الزفاف لا علاقة له في نظمنا الحاضرة بالبناء . وقد جرت العادة في بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم في أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ، ومن ثم جاءت عبارة *envoyer aux galères* وجاء وصف *galérien* . ولكن تغير الآن مدلولها تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

٨ — عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات . فكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس في طبقاتهم وفتاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجهان معانيها الأولى . ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق في الخواص الشعبية والجسمية والنفسية وفي شئون السياسة والاجتماع والثقافة والتربية ومناحي التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والتقاليد والعادات ، وفي الظروف الطبيعية والجغرافية المحيطة بكل جماعة منها ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التي تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم . . . وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالسكات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها في كل طبقة وفي كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند

غيرها كما تقدم شرح ذلك بتفصيل في الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب (١).

ويدخل في موضوع التطور الدلالي نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل وهجر كلمات كان مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضاً تاماً .

أما نشأة كلمات في اللغة فتدعو إليها في الغالب مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث جديد مادي أو معنوي (مخترع جديد ، نظام حديث في الشؤون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها ، نظرية جديدة علمية أو فلسفية ... وهلم جرا) . ويتم ذلك بإحدى الوسائل الآتية :

١ - إنشاء الكلمة إنشاء على الوجه الذي بيناه بتفصيل في آخر الفصل الرابع من الباب الثالث بصدد موضوع التجديد في اللغة (٢) . وهذه الوسيلة لا تكاد تستخدم إلا في لغات الكتابة وخاصة في إنشاء المصطلحات العلمية وما شاكلها (٣) .

٢ - انتقال الكلمة من اللغة أو اللهجة إلى لغة أو لهجة أخرى على الوجه الذي شرحناه في الفصول الأول والثالث والرابع من الباب الثالث (٤) .

٣ - إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات المهجورة في اللغة على الوجه الذي شرحناه في أواخر الفصل الرابع من الباب الثالث (٥) .

٤ - تفرع الكلمة في صورة تلقائية أو مقصودة من الكلمات المستخدمة في اللغة . ويتم ذلك عن طريق الاشتقاق بأوسع معانيه ، أو تكوين كلمة من كلمتين أو أكثر ، أو تسمية شيء جديد باسم مكانه أو مخترعه ، أو نحت أفعال من بعض

(١) أنظر على الأخص آخر صفحة ١٠٢ وصفحات ١٦٣ ، ١٧٣-١٧٨ .

(٢) أنظر صفحتي ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٣) تستخدم أحياناً هذه الوسيلة كذلك في اللهجات الاجتماعية كما سبقت الإشارة إلى ذلك في صفحة ١٧٧ .

(٤) أنظر في الفصل الأول صفحات ١٦٧-١٧٠ ، وفي الفصل الثالث ٢١٢-٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،

٢٢١ ، ٢٢٥ ، وفي الفصل الرابع صفحات ٢٢٩-٢٣٣ .

(٥) أنظر آخر ٢٥٥ وأول ٢٥٦ .

الأسماء الجامدة أو أسماء الأعلام لعلاقة ما . . . وهلم جرا (١) .

وأما انقراض الكلمة من الاستعمال فترجع أسبابه إلى عوامل كثيرة من أهمها ما يلي :

١ — انقراض مدلول الكلمة نفسه أو عدم استخدامه . ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية . . . التي انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فمن ذلك في الفرنسية *Veste, casaquin, cabas, carosse, souperentes, briquet, pacotille, corvette, frégate, brulot boulet, arpent, écu, liard, toise...etc* (٢) .

وقد انقرض كذلك في اللغة العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الإسلام كالمربع والهريرة والنوافج . . . وهلم جرا (٣) .

٢ — انعزال الكلمة وعدم ارتباطها بفصيحة من الكلمات معروفة الأصل متداولة الاستعمال . فانعزال الكلمة ، أى عدم اتصالها بأسرة معروفة ، لا يقف أثره عند تعريض مدلولها للانحراف عن وضعه الأصلي على الوجه الذى سبق شرحه (٤) ، بل كثيراً ما يعرضها هي نفسها للفناء - فما أشبه الكلمات بأفراد الحيوانات الاجتماعية : يظل الواحد منها قويا منيع الجانب ما اندمج في أفراد قطيعه وقوى تضامنه معه ، ويتعرض للأذى والهلاك كلما انعزل عنه أو وهنت

(١) من أمثلة نحت الأفعال من أسماء الأعلام كلمة تبغدد فلان اذا صار مترفا فاتها مأخوذة من بغداد. ومن أمثلة ذلك في اللغات الأوروبية كلمة *to boycott*. وأصل ذلك أن مزارعا ارلنديا يسمى *Boycott* كان غير مرضى عنه في أثناء حركة من الحركات الشعبية الوطنية ، فقوطع من جميع جيرانه وزملائه، وأخذ من اسمه فعل *to boycott* المستخدم الآن في المقاطعة السياسية والاقتصادية وما إليها. وقد انتقل هذا الفعل من الإنجليزية الى معظم اللغات الأوروبية (الفرنسية *boycotter* والألمانية *boycotten* . . . الخ) V. Meillet. op. cit. p. 29.

(٢) Y. Dauzat, op. cit. 228 et suiv.

(٣) المربع ربع الغنمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه في الجاهلية . والضرورة هو الذى بدع النكاح تبثلا أو الذى يحدث حدثا ويلجأ الى الحرم . والنوافج الابل تساق في الصداق .

(٤) انظر صفحة ٢٩٤ رقى ٢ ، ٣ وأول ٢٩٥ .

العلاقات التي تربطه به . - ولهذا السبب كادت تنقرض من لغة التخاطب الفرنسية
 كلمات : besicles, binocle, missive, visage, miroir وحل محل كل
 منها كلمة معروفة الاشتقاق قوية الصلة بأفراد أسرتها : Lunettes, lorgnon,
 lettre, figure, glace
 ٣ - ثقل الكلمة على اللسان أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التي انتهى
 إليها تطور أعضاء النطق . فان هذا العامل لا يقف أثره عند تعريض أصواتها
 للانحراف عن مخارجها الأولى على الوجه الذي سبق شرحه (١) ، بل قد يعرضها
 هي نفسها للانقراض . وإلى هذا يرجع السبب في انقراض كثير من الكلمات
 العربية من لغات التخاطب العامية في العصر الحاضر .

هذا ، وكثير من الكلمات التي تنقرض من لغات المحادثة تأوى إلى ركن
 شديد في ميادين الشعر أو الأمثال أو الآداب أو الفنون فتتوطد لها فيه أسباب
 المنعة والبقاء .

انتهت طبعته الثالثة في ربيع الأول سنة ١٣٦٩
 يناير سنة ١٩٥٠

(١) انظر صفحة ٢٦٤ وتوابعها .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
 LIBRARY

أهم المراجع

أولا - أهم المراجع العربية

- ١ - ابن السكيت (يعقوب الجعفي) كتاب الألفاظ
- ٢ - ابن جنى (أبو الفتح عثمان) الخصائص
- ٣ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المقدمة
- ٤ - ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم) وفيات الأعيان
- ٥ - ابن دريد (محمد بن الحسن) جمهرة الكلام . طبع في الهند
- ٦ - ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني) العمدة في صناعة الشعر ونقده
- ٧ - ابن سلام (أبو عبد الله محمد بن سلام) طبقات الشعراء
- ٨ - ابن سيده (علي بن إسماعيل) المخصص
- ٩ - ابن سينا (الرئيس أبو علي الحسين) أسباب حدوث الحروف . مطبوع بمصر
- ١٠ - ابن عبدربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد
- ١١ - ابن فارس (أبو الحسين أحمد) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها
- ١٢ - ابن قتيبة أدب الكاتب
- ١٣ - ابن منظور (جمال الدين بن مكرم) لسان العرب
- ١٤ - أبو البقاء (الحسيني الكهوي) الكليات
- ١٥ - أحمد تيمور باشا معجم اللغة العامية (مخطوط بالخزانة التيمورية) وقد نشر بعض نماذج منه بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، في المجلد السادس
- ١٦ - أحمد تيمور باشا الأمثال العامية طبع سنة ١٩٤٩
- ١٧ - أحمد تيمور باشا السكنايات العامية طبع سنة ١٩٤٩

- ١٨ - أحمد عيسى (الدكتور) التهذيب في أصول التعريب
١٩ - الأزهرى (محمد بن أحمد بن الأزهر) تهذيب اللغة .
منه نسخة بدار السكتب المصرية رقم ٩ لغة
٢٠ - الأسكافى (محمد بن عبد الله) مبادئ اللغة
٢١ - الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) كتاب الأغاني
٢٢ - الأصمعي (عبد الملك بن قريب) غريب الحديث (انظر كذلك
رسائله في طوائف خاصة من الألفاظ والمعاني بآخر ص ٥٨ وبصفحة
١٨٨ من الطبعة الثانية من كتابنا «فقه اللغة» .)
٢٣ - الأنبارى (أبو بكر محمد بن القاسم) كتاب الأضداد
٢٤ - البستاني (بطرس) محيط المحيط
٢٥ - البستاني (بطرس) قطر المحيط
٢٦ - البستاني (بطرس) دائرة المعارف
٢٧ - البستاني (عبد الله) البستان
٢٨ - البغدادي (عبد القادر) خزانة الأدب
٢٩ - التبريزى (يحيى بن علي) تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت
(المذكور برقم ١)
٣٠ - التهانوى (محمد علي بن علي) كشاف اصطلاحات الفنون
٣١ - الثعالبي (أبو منصور عبدالله بن محمد) فقه اللغة
٣٢ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين
٣٣ - الجرجاني (علي بن محمد) التعريفات
٣٤ - الجزائرى (الشيخ طاهر) التقريب إلى أصول التعريب
٣٥ - الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد) المعرب من الكلام الأجمعي
طبعته أخيراً «دار السكتب المصرية» في مجلد يقع في ٤٥٦ صفحة
من القطع الكبير مع بعض شروح وتعليقات للأستاذ أحمد محمد شاكر

- ٣٦ — الجوهري (إسماعيل بن حماد) (تاج اللغة وصحاح العربية) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)
- ٣٧ — الخفاجي (شهاب الدين أحمد بن محمد) شفاء العليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل
- ٣٨ — الخليل بن أحمد العين
- ٣٩ — الدسوقي تهذيب الألفاظ العامية
- ٤٠ — الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر) مختار الصحاح
- ٤١ — الرنخسري (أبو القاسم محمود) أساس البلاغة
- ٤٢ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) المزهري في علوم اللغة وأنواعها
- ٤٣ — الشدياق (أحمد فارس) سر الليال في القلب والإبدال
- ٤٤ — الشرتوني (سعيد) أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد
- ٤٥ — العسكري (أبو هلال) المعجم في بقية الأشياء
- ٤٦ — العسكري كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر
- ٤٧ — الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب) الروض المألوف فيما له اسمان إلى ألوف
- ٤٨ — الفيروز آبادي القاموس المحيط
- ٤٩ — الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المقرئ) المصباح المنير
- ٥٠ — القالي (أبو علي) الأملاني وذيل الأملاني والنوادر
- ٥١ — السكرملي (انستاس) مجلة لغة العرب
- ٥٢ — المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) كتاب الكامل في اللغة والأدب
- ٥٣ — الهمذاني (عبد الرحمن بن عيسى) الألفاظ الكتابية
- ٥٤ — اليازجي (إبراهيم) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد
- ٥٥ — جرجي زيدان الفلسفة اللغوية
- ٥٦ — جرجي زيدان تاريخ اللغة العربية
- ٥٧ — جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية
- ٥٨ — طه حسين الأدب الجاهلي

- ٥٩ - علي العناني ومحمد عطيه الإبراشي وليون محرز كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها
- ٦٠ - علي العناني ومحمد عطيه الإبراشي وليون محرز كتاب المفصل في قواعد اللغة السريانية وآدابها والموازنة بين اللغات السامية
- ٦١ - علي عبد الواحد وافي اللغة والمجتمع
- ٦٢ - علي عبد الواحد وافي فقه اللغة
- ٦٣ - علي عبد الواحد وافي في التربية
- ٦٤ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
- ٦٥ - مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية
- ٦٦ - محب الدين الخطيب اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب
- ٦٧ - مرمرجي الدومنيكي (الأب) هل العربية منطقية أبحاث ثنائية ألسنية
- ٦٨ - معلوف (الأب لويس) المنجد (معجم لغوي)
- ٦٩ - ولفنسن (الدكتور اسراييل) تاريخ اللغات السامية
- ٧٠ - ياقوت معجم الأدباء



AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
 LIBRARY

ثانيا - أهم المراجع الافرنجية

- 1 — Baldwin : Le Developpement mental chez l'enfant et dans la race (trad. fr.)
- 2 — Bally : Le Langage et la Vie.
- 3 — Bally : Précis de Stylistique
- 4 — Berry : An Experimental study of Imitation
- 5 — Bloch : Les Premiers stades du Langage de l'enfant « J. de Psych. 1921 »
- 6 — Boas : Handbook of American Indian Languages, 2 vols, Washington
- 7 — Brandenburg : Language development
- 8 — Bréal : Essai de Sémantique
- 9 — Bréal : Mélange de Mythologie et de Linguistique
- 10 — Brockelmann : Précis de Linguistique (trad. fr.)
- 11 — Claparède : Psychologie de l'Enfant ... etc.
- 12 — Clodd : Story of the Alphabet (New york)
- 13 — Crammont : Mélanges Meillet
- 14 — Darmesteter : La Vie des Mots
- 15 — Darmesteter : L'Expression des Emotions (trad. fr.)
- 16 — Darwin : L'Origine des Espèces (trad. fr.)
- 17 — Dauzat : Les Patois
- 18 — Dauzat : La Philosophie du Langage
- 19 — Dauzat : La Vie du Langage
- 20 — Danzat : Etudes Linguistique sur la Basse-Auvergne
- 21 — Delacroix : Le Langage et la Pensée
- 22 — Dumas et collaborateurs : Traité de Psychologie
- 23 — Durkheim : Les Règles de la Méthode Sociologique
- 24 — Durkheim : Les Formes élémentaires de la Vie Religieuse
- 25 — Durkheim : La Prohibition de l'Inceste; dans " L'Année Sociologique " T. I.
- 26 — Gennep (Van) : Essai d'une théorie des Langues Spéciales (dans « Revue des Etudes Ethnographiques et Sociologiques »)

- 27— Gillieron et Roques : Etude de Géographie Linguistique
- 28— Ginneken : Principes de Linguistique psychologique
- 29— Grammont : La Dissimilation
- 30— Grégoire : Petit Traité de Linguistique
- 31— Guillaum : L' Imitation chez l' Enfant
- 32— Hermann (Paul) : Etudes sur les Changements Phonétiques
- 33— Hovelacque : La Linguistique
- 34— Jespersen : Language; its nature, development, and origin
- 35— Jespersen : The Progress of Language.
- 36— Kohler : L' Intelligence des Singes Supérieurs (trad. fr.)
- 37— Larousse du .xxe Siècle
- 38— Leroy : Le Langage
- 39— Levy Bruhl : Les Fonctions mentales dans les Sociétés primitives
- 40— Malinowski : Primitive Language
- 41— Mallery : Sign-Language among the North American Indians
- 42— Marichelle : l'Enseignement de la Parole aux sourd-muets
- 43— Meillet : Comment les Mots changent de Sens (dans « l' Année Sociologique » T - IX, P.P. 3-33)
- 44— Meillet : Les Dialectes Indo-Européens
- 45— Meillet : Introduction à l'Etude Comparative des Langues Indo-Européennes
- 46— Meillet : Les Langues dans l'Europe Nouvelle
- 47— Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale
- 48— Meillet : et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meillet et Cohen) : Les Langues du Monde
- 49— Muller (Max) : The Science of Language
- 50— Muller (Max) : New Lectures on the Science of Language
- 51— Paulhan : La Double Fonction du Langage
- 52— Pawlowitch : Le Langage infantin
- 53— Piaget : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant
- 54— Renan : Histoire générale des Langues Sémitiques
- 55— Renan : L'Origine du Langage
- 56— Ribot : L'Evolution des Idées Générales
- 57— Roudet : Éléments de Phonétique générale
- 58— Rousselot ; Introduction à l' Etude des Patois
- 59— Rousselot : Les Modifications Phonétiques du Langage
- 60— Rousselot : Principe de Phonétique expérimentale
- 61— Roustan : Psychologie
- 62— Sapir (E) : Language (New York)

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

- 63— Saussure (De) : Cours de Linguistique Générale
- 64— Sayce : Introduction to the Science of Language (2 vols).
- 65— Sayce : Principles of Comparativ Philology
- 66— Sechehay : Programme et Méthode de la Linguistique théorique
- 67— Sweet : History of English Sounds
- 68— Sweet : The Practical Study of Language
- 69— Taine : Observations sur l'Acquisition du Langage par les Enfants (Revue Phil. 1876)
- 70— Tarde : Lois de l'Imitation
- 71— Tomas (Antoine) : Essai de Philologie Française
- 72— Tomas (Antoine) : Mélange d' Etymologie Française
- 73— Tylor : Early History of Mankind
- 74— Tylor : Origin of Givilisation
- 75..... Vannier : L'Esprit et les Mœurs d' une nation d'après sa Langue
- 76— Vendryès : Le Langage
- 77— Vendryès : Reflexion sur les lois phonétiques
- 78— Whitney : Language and the Study of Language
- 79— Wright : Lectures on the comparative grammar of the Semitic languages



استدراك

- في السطر الحادى عشر من التعليق بصفحة ١٩ اقرأ: الدكتور زامنهوف Zamenhof
 في آخر السطر الأول من التعليق بصفحة ٢٧ اقرأ: في الفصل الأول من الباب الثالث
 في أول السطر الثانى من التعليق بصفحة ٨٥ اقرأ: في الباب الثانى
 في السطر الخامس قبل الاخير بصفحة ١٣٢ اقرأ: آ آ - الدجاجة آ آ - الضرب
 في السطرين الحادى عشر والثالث عشر اقرأ: ومن نماذج هذا ما قالتها بنتى عفاف
 بصفحة ١٣٥ في ٢٠/٧/٣٦: وآنونو . . . (شأى)؛
 في السطر الثامن بصفحة ١٩٣ اقرأ: إلى درجة عرض ٣٠ شماليه
 في التعليق الثانى بصفحة ٢٢١ اقرأ: آخر صفحة ٢١٩ وتعليقها الخامس
 في السطر الثانى عشر بصفحة ٢٢٤ اقرأ: إذ ليس منها ما ينجم عنه
 في السطر الثالث من التعليق بصفحة ٢٣١ اقرأ: السكرَ وِياً .
 في أول السطر الثالث بصفحة ٢٧٩ اقرأ: فال
 في السطر الرابع بصفحة ٢٨٣ اقرأ: فقد حدث كذلك
 في السطر الرابع قبل الاخير بصفحة ٢٩٥ اقرأ: تربطه بمعناها الأصيلى
 في السطر السابق للاخير من التعليق
 بصفحة ٢٩٨ اقرأ: ٢٢١ إلى ٢٢٥

فهرس

(الموضوع) (الصفحة)

٤	مقدمة الطبعة الأولى
٧٣ - ٥	تمهيد في التعريف بعلم اللغة
١٤ - ٥	١ - البحوث اللغوية وما يدخل منها تحت علم اللغة
١٥ ، ١٤	٢ - أغراض علم اللغة
١٨ - ١٥	٣ - قوانين العلوم
٢٠ - ١٨	٤ - قوانين علم اللغة
٢١ ، ٢٠	٥ - قوانين « الفونتيك » وقوانين « السيمنتيك »
٢٥ - ٢١	٦ - الشعبة التي ينتمى إليها علم اللغة
٢٧ - ٢٥	٧ - الانتفاع ببحوث علم اللغة من الناحية العملية
٣٠ - ٢٧	٨ - علاقة علم اللغة بما عداه من البحوث
٤٧ - ٣٠	٩ - مناهج البحث في علم اللغة
٧٣ - ٤٨	١٠ - تاريخ البحوث اللغوية
٧٣	١١ - موضوعات هذا الكتاب

الباب الأول. نشأة اللغة عند الإنسان

٧٩ - ٧٤	١ - أنواع التعبير الإنساني
٨٨ - ٧٩	٢ - اختصاص الإنسان باللغة ومراكزها
٩٧ - ٨٨	٣ - نشأة الكلام
١٠١ - ٩٧	٤ - نشأة مراكز اللغة

(الصفحة)	(الموضوع)
١٠٩ - ١٠١	٥ - المراحل الأولى التي اجتازتها اللغة الإنسانية
١٥٥ - ١١٠	الباب الثاني . نشأة اللغة عند الطفل
١١٧ - ١١٠	١ - أنواع الأصوات في الطفولة وأساس كل منها
١١٨ ، ١١٧	٢ - أنواع التعبير في الطفولة
١٤٠ - ١١٩	٣ - المراحل التي يجتازها الطفل في أصواته وتعبيراته
١٤٢ - ١٤٠	٤ - عوامل كسب الطفل للغة
١٤٨ - ١٤٢	٥ - أثر النظر في التقليد اللغوي
١٥١ - ١٤٨	٦ - أساس التقليد اللغوي عند الطفل
١٥٥ - ١٥٢	٧ - مبلغ تمثيل الطفل في ارتقائه اللغوي لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها
٣٠٠ - ١٥٦	الباب الثالث : حياة اللغة
١٧٨ - ١٥٦	الفصل الأول : تفرع اللغة إلى لهجات ولغات
١٥٩ - ١٥٦	١ - انتشار اللغة وأسبابه
١٦٥ - ١٥٩	٢ - تفرع اللغة نتيجة لازمة لانتشارها
١٧٠ - ١٦٥	٣ - اللهجات المحلية وصراعها بعضها مع بعض
١٧١ ، ١٧٠	٤ - نشأة لغة الدولة أو لغة الكتابة
١٧٣ - ١٧١	٥ - اختلاف مناحي الفصحى باختلاف فنون القول
١٧٧ - ١٧٣	٦ - اللهجات الاجتماعية
١٧٨ ، ١٧٧	٧ - اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

(الصفحة)

(الموضوع)

٢٠٧-١٧٩	الفصل الثاني : فصائل اللغات
١٨٠ ، ١٧٩	١ - أشهر الآراء في فصائل اللغات
١٨٤ - ١٨٠	٢ - الفصيلة الهندية - الأوروبية
١٨٨ - ١٨٤	٣ - الفصيلة الحامية - السامية
١٩٧ - ١٨٨	٤ - الفصائل الأخرى
٢٠٥ - ١٩٧	٥ - بعض ما تختلف فيه السامية عن الهندية - الأوروبية
٢٠٧ - ٢٠٥	٦ - وجوه الشبه بين السامية والهندية - الأوروبية

الفصل الثالث : صراع اللغات

٢٠٨	١ - نظرة عامة في عوامله وآثاره في حياة اللغة
٢١٨ - ٢٠٩	٢ - العامل الأول من عوامل الصراع اللغوي : نزوح عناصر أجنبية إلى البلد
٢٢٤ - ٢١٨	٣ - العامل الثاني من عوامل الصراع اللغوي : تجاور شعبين مختلفي اللغة
٢٢٥ - ٢٢٤	٤ - عوامل أخرى للاحتكاك اللغوي

الفصل الرابع . التطور اللغوي العام

٢٢٨ - ٢٢٦	١ - انتقال اللغة من السلف إلى الخلف
٢٢٣ - ٢٢٩	٢ - تأثر اللغة باللغات الأخرى
٢٤٣ - ٢٢٣	٣ - أثر العوامل الاجتماعية والنفسية والجغرافية

(الصفحة)

الموضوع

٤ - العوامل الأدبية المقصودة :

الرسم ، التجديد في اللغة ، البحوث اللغوية ، حركة التأليف
والترجمة ، وسائل تعليم اللغة

٢٤٣ - ٢٥٩

الفصل الخامس : أصوات اللغة ، حياتها وتطورها ٢٦٠-٢٨٥

١ - خواص التطور الصوتي وعوامله ٢٦٠ - ٢٦٤

٢ - التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق ٢٦٤ - ٢٦٧

٣ - اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب ٢٦٧ - ٢٧٠

٤ - الأخطاء السمعية ٢٧٠ ، ٢٧١

٥ - تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض ٢٧٢ - ٢٧٥

٦ - موقع الصوت في الكلمة ٢٧٥ - ٢٨١

٧ - تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض ٢٨١ - ٢٨٥

الفصل السادس : الدلالة وتطورها ٢٨٦-٣٠٠

١ - أنواع التطور الدلالي ٢٨٦ - ٢٨٧

٢ - خواص التطور الدلالي ومناهجه ٢٨٧ - ٢٩١

٣ - عوامل التطور الدلالي ٢٩١ - ٣٠٠

أهم المراجع ٣٠٠-٣٠٧

أولا - أهم المراجع العربية ٣٠٠ - ٣٠٤

ثانيا - أهم المراجع الإفريقية ٣٠٥ - ٣٠٧

استدراك ٣٠٨

APR 1972

JAN 28 1987

P
121
W16
1950

P
121
W16
1950

Wāfi, 'Alī 'Abd al-Wāhid.
Ilm al-lughah.

RESEARCH CENTER

UNIVERSITY OF CALIFORNIA
LIBRARY

